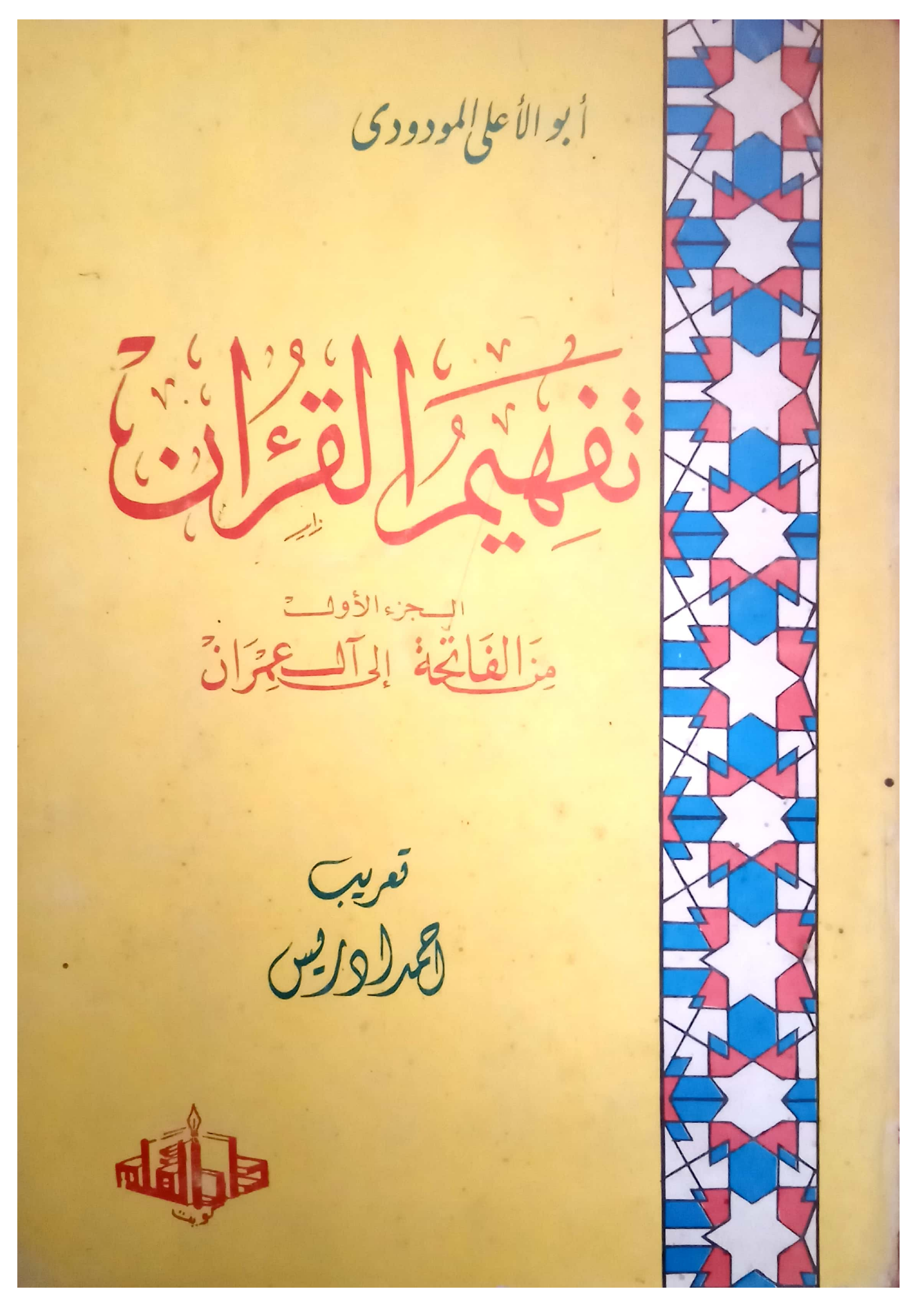


Scanned with CamScanner



تصدير

احمدك ربى نزلت اصدق الحديث كتابا يهدى الى صراطك المستقيم . واصلى واسلم على خير من فسر لنا كتابك عملا وشرح لنا هديك واقعا سيدنا محمد امام الأنبياء والمرسلين ونبى الحق واليقين وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد ..

فلقد سألت الله كثيرا ان يوفقنى فى ان انقل لقراء العربية كتاب استاذى الكبير ابى الأعلى المودودى « تفهيم القرآن » بعد أن سمعنا الكثير عن قيمته وتطرق الينا العديد من انباء الشروع أو محاولات الشروع فى ترجمته منذ أمد بعيد دون ان تقع أبصارنا على شىء يؤيد ما سمعت به آذاننا .

وراسلت استاذى حول هذا ولبثت دهرا أحاول هنا وهناك ان أعثر على نسخة منه باللغة الأردية حتى وجدت منه نسخة منقولة الى الانجليزية فأمسكت بالجزء الأول منها ــ ويضم مقدمة وتفسيرا لسورتى الفاتحة والبقرة وشرعت فى ترجمته على الفور . وأتم الله ذلك منذ عام مضى . غير أن صدوره تاخر لاسباب يعلمها سبحانه وتعالى .

ثم قيض الله من أرسل لى المجلد الاول من «تفهيم القرآن» باللغة الأردية ويحوى مقدمة وتفسيرا لسور القرآن الكريم من الفاتحة الى الأنعام . فامسكت به وبالنسخة الانجليزية وبالترجمة العربية وحاولت التوفيق بينهم قدر الاستطاعة اذ رايت من العسير أن أعيد ترجمة ما فرغت منه عن الاردية من البداية . ثم نقلت تفسير سورة آل عمران من الاردية خالصة والحقتها بأختيها على ان يصدر ثلاثتهم فى كتاب واحد ثم اتبع ذلك بقية السور نقلا عن الاردية مباشرة لتظهر فى أجزاء مناسبة ان شاء تعالى .

ولى كلمة أود ذكرها فى تقدمتى هذه وهى أن هذا الكتاب ليس بتفسير تقليدى كالتفاسير التى نعرفها فاستاذى الكبير ابو الاعلى المودودى لم يقصد منه ذلك ، وانما هو أضواء يسلطها المؤلف كلما رأى الى ذلك ضرورة لتعين قارىء القرآن على فهم ماقد يستشكل على ذهنه . ولعل اسم الكتاب هو خير ما يوضح لنا ذلك اذ المقصود به تفهيم القرآن .. مجرد التفهيم .. لا التفسير .

واختم قولى بضراعة الى الله أن يوفقنى فى اتمام هذا العمل فهو سبحانه القريب المجيب والسميع العليم وهو من وراء القصد .

١٨ شعبان ١٣٩٧هـ

٣ اغسطس ١٩٧٧م .

أحمد ادريس
معيد بكلية اللغات والترجمة
جامعة الأزهر

* * *

مقدمة

اهدف من وراء كتابى هذه المقدمة لدراسة القرآن الى امرين :

الأول : اننى أبغى تعريف القارىء بالاشياء التى تساعده على فهم معانى القرآن والتى ستظل تغاود كرتها على ذهنه — ما لم يعرفها بادىء الأمر — وغالبا ما تشكل عائقا أمام استكناهه معانى القرآن وروحه .

الثانى : أود أن أجيب مسبقا على بعض من الأسئلة التى تثور عادة فى ذهن الدارس أثناء تناوله للقرآن ، وقد اقتصرت على الأسئلة التى طرأت على ذهنى شخصيا عندما شرعت فى دراستى النقدية للقرآن وكذلك تلك التى بدت لى فيما بعد ، ولو تكشفت اسئلة أخرى فسوف أرد عليها فى الطبعة القادمة أن شاء الله

كتاب فريد :

ينبغى على القارىء — قبل أن يبدأ دراسته للقرآن — أن يضع فى ذهنه حقيقة هامة هى أن هذا الكتاب فريد فى أصله وفصله ، مختلف تمام الاختلاف عما اعتاد أن يقرأه من كتب فهو — على عكس الكتب التاليفية المعهودة — لايحوى معلومات وافكارا وتصورات ومناقشات حول قضايا وافكار معينة معدة فى قالب ادبى . ومن ثم فالدارس الغريب عن القرآن تغشاه الحيرة عند تناوله للمرة الأولى اذ لا يجد فيه اعلانا عن فكرته ولا يراه مقسما حسب التقسيم المالوف الى أبواب وفصول ،ولايلقى فيه معالجة مستقلة لنقاط مختلفة ، أو تعاليم قائمة براسها حول أشكال عديدة للحياة مكتوبة فى أسلوب مسلسل ، بل يجد نفسه أمام شىء ليس له به عهد من قبل ، ولا يطابق تصوره عن «الكتاب »

كذلك يراه يقر عقائد ويسدى تعاليم اخلاقية ويشرع قوانين ويدعو الناس للاسلام وينذر الكافرين ويعطى دروسا وعبرا من حوادث تاريخية ويرهب ويرغب وينذر ويبشر كل هذا ممزوج ببعضه متجانس فى أسلوب رائع فالموضوع الواحد يتكرر بطرق متباينة وكل نقطة تلى الأخرى دونما اتصال ظاهر ، واحيانا تبرز نقطة جديدة وسط نقطة ما دون سبب واضح والمتكلم والمخاطب واتجاه الخطاب يتبدل بغير ملاحظة ، وليس فيه عنوان لباب او علامة لفصل ، والحوادث التاريخية مبسوطة فيه ولكن لا كما فى كتب التاريخ ، ومشاكل الفلسفة وقضايا ما بعد الطبيعة تعالج فيه باسلوب ومنهج لاشبه بينه وبين منهج الكتب الاصطلاحية التى تطرق هذه الامور .

وكل من «الانسان» و «العالم» مذكور فيه بلغة تغاير لغة العلوم الطبيعية ومصطلحاتها .

كذلك يرى القارىء أن القرآن يتبع طريقته فى حل المشاكل التعليمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كما يتناول مبادىء القانون واصوله باسلوب يخالف منهاج علماء الاجتماع والقانون ويلقن الاخلاق بطريقة ليس لها نظير من قبل ولا من بعد .

لكل هذا تعتصر الحيرة ادراك القارىء لان كل هذه الاشياء تخالف تصوراته السابقة عن «الكتاب» بوجه عام فيبدا يحس بان القرآن كتاب ينقصه الترتيب ويعوز آياته الترابط ، ويفتقر الى استمرار موضوعه واتصاله ، وانه يتناول موضوعات شتى بمنهج مفكك غير منسق ، وانه أعطى هيكل الكتاب المتصل على الرغم من انه ليس كتابا بالمعنى العام المصطلح عليه لهذه الكلمة .

ونتيجة لهذا يثير خصوم القرآن اعتراضات غريبة حوله ، ويتبنى أتباعه المحدثون تفاسير مستغربة فى محاولة تفادى شكوك المعارضين واعتراضاتهم ، فتراهم بين نزاع الى الهروب فى التفسير ومتخذ لشروح وتأويل بعيدة مبتورة بغية التماس الراحة لعقولهم وتفكيرهم . وأحيانا تجدهم يقدحون أذهانهم لخلق أتصال وترابط صناعى بين آيات الكتاب ليفسروا التفكك والتشعث الظاهر عليها . او تراهم يقبلون الزعم بان القرآن يعالج موضوعات شتات دون ترتيب أو اتساق أو ارتباط وعلى هذا فآياته مفصولة عن سياقها ومعانيه منثورة بلا انسجام .

هذا هو ما يحدث عندما لا يضع القارىء فى اعتباره حقيقة أن القرآن كتاب متفرد فى نوعه لايكشف من أول صفحة فيه — كغيره من الكتب — عن الموضوع الذى يتحدث عنه او الغرض الذى يعتزم تحقيقه وانجازه وطريقته فى تفسير الأشياء وشرحها تخالف أيضا طريقة الكتب الاخرى التى يقراها الانسان عامة مخالفة واضحة ، ولا يسير على أى ترتيب من ترتيبات الكتب ، وفوق هذا وذاك فهو ليس كتابا عن الدين بالمعنى العام لهذا اللفظ . ومن ثم فلو تفحص القارىء القرآن معتمدا على الافكار العامة عن « الكتاب » فلا مناص من وقوعه فى شراك الحيرة والدهشة نتيجة لأسلوب وطريقة عرضه فلا ذكر « للخلفية » فى مواضع كثيرة فيه ولا تقرير للظروف التى حدثت فيها حادثة بعينها ، لهذا فليس فى مكنة القارىء العادى أن يفيد من كنوز القرآن الثمينة تماما بالرغم من أنه قد يصادف نجاحا — أحيانا — فى التقاط واكتشاف بعض الجواهر هنا وهناك .

أن من تنقصهم معرفة هذه الملامح الاساسية المميزة للقرآن هم وحدهم الذين يسقطون ضحايا هذه الريب وامثالهم فلا يجدون على صفحات القرآن غير موضوعات مبعثرة ويصعب عليهم سبر معانى آياته ، بل حتى الآيات الواضحة التى تنطق بمعانيها لأول وهلة تبدو فى عيونهم مبتورة السياق مشتتة الاتصال .

وقد يأمن القارىء كل تلك المصاعب اذا اخبر بادىء الأمر بأن هـذا الكتاب الذى سيقراه هو كتاب فريد وحيد من نوعه فى العالم اجمع ، وأن طرازه ويختلف تماما عن كافة الكتب الأخرى وأن بحثه منفرد فى ذاته ، وان كل التصورات المسبقة فى ذهنه عن «الكتاب» لاتساعده على فهم القـرآن وانما تشكل عائقا فى سبيل فهمه ، ولذا فعليه اولا أن يحرر ذهنـه من الافكار والتصورات التى كونها واكتسبها سلفا ثم يقف على الملامح المميزة لهذا الكتاب . عندئذ يستطيع أن يفهمه ويغوص فى معانيه .

ومن الضرورى لفهم القرآن فهما تاما أن نعلم أصله وبحثة الرئيسى وهدفه ، كما ينبغى أن يعرف القارىء اسلوبه ومصطلحاته وطريقتـة فى شرح الاشياء معرفة تامة ، ويضع أمام ذهنه الخلفية والظروف التى أنزلت فيها آية معينة .

هداية الهيـة :

واول ما يتحتم على القارىء فهمه هو طبيعة القرآن واصله سواء كان يؤمن به كتابا منزلا من الله أم لا ، فلابد له من أن يتقبل بادىء ذى بدء دعواه كما ينطق بها بذاته وكما أوضحها من جاء به (محمد عليه الصلاة والسلام) وهى أنه ـــ أى القرآن ـــ هداية الهية .

أن اله هذا العالم وخالقه وسيده وحاكمه خلق الانسان واودعه قدرات العلم والكلام والفهم والتمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر ، وحباه حرية الاختيار والارادة وحرية العمل وأعطاه سلطة اكتشاف ما يحيط به واستغلاله . باختصار شديد منحه نوعا من الاستقلال الذاتى وجعله خليفة له على الارض وارشده ليعيش وفق هدية .

وحين عين الله تعالى الانسان فى هذا المنصب أخبرة ـــ فى وضـوح ودقة لايبقى معهما أى شك ـــ بنوعية العلاقات التى بينه وبين خالقه فقال له انني سيدك وحاكمك وسيد وحاكم كل العالم ولهـذا فعليك أن تعبدنى وحدى ، فلا أنت حر مستقل فى مملكتى ولا أنت عبد خاضع لسواى ، وانك مبعوث الى الأرض ومعك قوى معينة لفترة معينة أختبرك وأجربك فيها ، ولا مفر من رجوعك الى فأزن أعمالك التى اقترفتها فى الدنيا وأقرر نجاحك أو اخفاقك ، لذا فالطريق الصحيح أن تؤمن بى ـــ طوعا واختيارا ـــ حاكما فردا ، وتعبدنى وحدى وتعيش فى دنياك بما يطابق الهدى الذى ابعثه اليك وتحيا فى الدنيا وكلك ادراك وايمان ويقين من أنها مجرد مكان للاختبـار ، وهدفك الحقيقى فى الحياة الدنيا أن توفق فى يوم الحكم النهائى . وعلى هذا فاى مسلك آخر تسلكه يخالف الهداية الالهية هو مسلك خاطىء غير قويم فان سلكت الطريق الأول ـــ وأنت حر فى اختياره ـــ فسوف تحظى بالراحة والسعادة فى الدنيا ، وتفوز بدار السعادة الابدية ذات النعيم المقيم (الجنة) فى الآخرة التى أنت عائد فيهـا الينا لا محالة . وان اتخذت وجهة وطريقا آخر ـــ وأنت حرا أيضا فى اختيارك هذا ـــ فستجلب على نفسك غضبى

وكراهيتى فى الدنيا ، وتجر على نفسـك العذاب المخلد والخراب والاسى حيث تلقى فى هاوية جهنم فى الاخرة .

ثم بعث مالك الكون ـ بعد هذا التحذير ـ آدم وحواء عليهما السلام الى الأرض ـ وهما أول أفراد النوع البشرى ـ : واعطاهما الهداية التى يتحتم عليهما وعلى ذرياتهما أن يحيوا طبقا لها وفى نورها . فاول اثنين من أفراد البشر لم يخلقا فى جهالة وظلمة ولكنهما وهبا نورا وضاء يهديهما سـبل السلام ، ومنحا القانون الذى كان عليهما اتباعه وهو الاسـلام (الاذعان والخضوع لله) وقد طبقاه ونفذاه قبـل أن يغادرا الدنيـا وعلماه أبناءهما واحفادهما واوصياهم أن يعيشوا مسلمين (عبادا طائعين لله)

غير أن الناس ما لبثوا على كر القرون أن حادوا شيئا فشيئا عن جادة الطريق القويم للحياة (الاسلام) وسلكوا سبلا ومسالك أخرى ضـالة ، ولم يفقدوا الهداية اهمالا وتراخيا فحسب ، بل عبثوا بها ومسـخوها ، فنسبوا قوى الله وصفاته الى آخرين ، واشركوا معه غيره فى الالوهيـة والربوبية وابتدعوا الوانا من المذاهب وصـنوفا من الاديان بخلطهـم ما أعطاهم الله من هداية ورشد بكل نوع من الخرافات والشعبذات والنظريات الفاسدة والفلسفات العقيمة الزائفة ، فالقوا بالحق ظهريا ـ حتى المبادىء الأخلاقية التى لقنهم الله اياها ـ وحرفوا الكلم واخترعوا قوانين للحيـاة تنسجم وامزجتهم واهواءهم وملاوا ارض الله جورا وظلما واثما مبينا .

ورغم هذا لم يشأ الله أن يكره الناس على اتباع الطريق الصحيح لأن فى هذا تعارضا مع حرية العمل المحدودة التى أعطاها بنفسه للانسان ، كما أنه لم يرد أن يسقط عليهم كسفا مدمرة من السماء فور عصيانهم ، لما فى ذلك من مجافاة لقواعد الحياة الدنيا التى جعلت دار بلاء واختبار وانما قطـع تعالى على نفسه عهدا منذ بداية حياة الانسان على تراب الارض أن يرسل اليه هدية خلال فترة حياته تاركا اياه حرا فى اتباعه أو لفظه ورفضه .

لهذا أتخذ الله ترتيبات بشان هداية الانسانية ، فاصطفى رسله من بين الناس أنفسهم ، واعطاهم معرفة الحقيقة وانزل عليهم منهاج الحيـاة الصحيح وكلفهم بدعوة الناس الى الصراط السوى الذى انحرفوا عنه .

هؤلاء الرسل يؤمنون بالله ويعملون وفق هديه وقانونه الذى تلقوه عنه وقد ظهروا فى أمم مختلفة فى أقطار مختلفة ، وبعثت الاف منهم على مدى الاف من السنين ، وكان دينهم واحدا وعقيدتهم واحدة وهى وحدانية الله والايمان بالحساب فى الاخرة . ولقد علموا نفس طريقة العيش التى لقنت للانسان الاول فى أول برهة من حياته على وجه البسيطة ، واتبعوا جميعـا هديا واحدا يقوم على تلك المبادىء الجوهرية الخالدة فى الاخلاق والحضارة والتى نصح الانسان الاول باتباعها منذ اول يوم فى حياته .

ومهمة هؤلاء الانبياء مهمة واحدة هى دعوة البشرية كافة الى الهـداية التى تلقوها ، وتوحيد الانسانية فى أمة واحدة . فمن قبلوا دعوتهم صاروا

امة واحدة وهى التى وجب عليها اتباع الهداية الالهية والجهاد لاقامتهـا وحمايتها من اى انتهاك أو تعد .

ولقد أدى هؤلاء الانبياء مهمتهم احسن اداء واكملـه خلال فترات حيواتهم الطاهرة الشريفة ، ومن أسف أن غالبية الناس لم تكن نزاعـة لقبـول دعوتهم ، وحتى من قبلوهم وانضموا اليهم دب الفساد بينهم رويدا رويدا حتى تعاظم وبلغت شدته الى أن خلع بعضهم ربقة الهداية الالهية من عنقه تماما ، وحرف البعض الآخر كلام الله عن مواضعه وخلطه بأشياء زائفة ما أنزل الله بها من سلطان .

عندئذ ارسل رب العالمين محمدا عليه الصلاه والسلام آخر رسول من لدنه لانجاز نفس المهمة التى أرسلت من أجلهـا الأنبياء قبله فجعل دعوته تتسع لتعم البشرية كلها بما فيها اتباع الأنبياء السابقين الذين انحرفوا عن دعوة أنبيائهم ، وناشد الانسانية اتبـاع الصراط القويم ثم جمع من آمنوا بالهداية الالهية فى أمة واحدة هى التى أمرت بدورها أن تعيد بناء حياتهـا الجماعية على أساس هداية الله ، وتجاهد لاصلاح العالم الذى ضل وفسد والقرآن الذى أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام هو الكتاب الذى يحوى هذه الدعوة ويضم الهداية الالهية بين جنبيه .

بحثه الرئيسى :

ها نحن قد عرفنا أصل القرآن فأصبح من اليسير أن نقرر موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه .

فموضوع القرآن هو الانسان . حيث يناقش أنماط وانواع حيـاته التى تقوده الى النجاح المحقق أو الى دار البوار .

وبحثه الرئيسى هو توضيح الحقيقة ودعوة البشرية الى الطريق الذى يتخذ الحقيقة له أساسا .

فالقرآن يبين أن الحقيقة هى بعينها التى اوحاها الله بنفسه الى آدم عند تنصيبه خليفة والى كافة الرسل من بعده ، وأن المسلك الصحيح هو الطريق الذى علمه الانبياء طرا وأن كل النظريات التى تخالف هذه الحقيقة والتى ابتدعها النـاس ووضعوها عن الله والعالم والانسان وعلاقاته بالله وبقية خلقه أنما هى نظريات فاسدة وكل نظم الحياة التى تتخذ أيا من هذه النظريات ركيزة لها وعمادا أنما هى نظم عقيمة فاسدة تورث الانسان دمارا وبوارا .

أما هدف التنزيل فهو دعوة الانسان الى الطريق الحق والنهج السديد وتوضيح الهداية التى فقدها إهمالا منـه وتراخيا أو حرفهـا صلفا وتكبرا وسوءا ...

فان استجلى القارىء هـذه الأشياء الاساسية الثلاثة أمام عينيه وذهنه فلن يجـد فى هـذا الكتاب انفصاما وتنافرا فى الأسلوب ، أو هوة وفجوة تقطع استمرار موضوعه واتصاله وترابطه ، أو نقصا فى ارتباط موضوعاته العديدة ببعضها .

حقا أن هذا الكتاب ليس (غير مترابط) فى اى موضع منه بالنظر الى موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه . فالمباحث والموضات التى يعالجها — من أوله الى آخره — تتصل ببحثه الأساسى وهدفه اتصال لآلىء العقد الواحد ببعضها رغم تباين الوانها واحجامها ، اذ يضع القرآن أمامه هدفا بعينه لايتغير سواء حين يتحدث عن قصة خلق السماوات والارض والانسان ، أو حين يشير الى ظواهر الكون ، أو ياتى بحوادث من واقع التاريخ البشرى. ولما كان هدفه هداية الانسان لا تعليمه علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو تلقينه اى فن أو علم من الفنون والعلوم ، تراه لايولى هذه الموضوعات اهتماما . والأمر الوحيد الذى يعطيه كبير اهتمام هو اجلاء الحقيقة وتبيينها لمحو أغلاط الفهم والتصور عنها واقرارها وتثبيتها فى الالباب ، ولتحـذير البشر من مغبة المواقف الخاطئة ودعوة الانسانية كى تسلك سبل السلام. كذلك تراه ينتقد المعتقدات والنظم الاخلاقية ، ويفند أعمال الافرادوالجماعات ويورد مناقشاته وحججه لمشاكل ما بعد الطبيعة .. الخ

لهذا فهو اذ يقرر شيئا او يذكر أمرا أو يناقش مسألة انما يفعل ذلك لاتصال هذا الشىء بهدفه وغرضه ، على حين يترك تفاصيله غير الضرورية التى لا صلة له بها ، ثم يعود كرة أخرى الى بحثه الرئيسى ودعوته التى يدمر حولها كل موضوع فيه .

الا ان القرآن حين يدرس تحت ما سلف من أضواء فليس من شك فى رؤيته كله مناقشة عقليـة محكمة وليس من ريب فى التيقن من استمرار موضـوعه وبحثـه واتصـاله ببعضـه عبر حروفه وكلماته وسـطورة وصفحاته .

الخلفيـة :

والمرء لا يستطيع فهم عديد من المباحث التى يتناولها القرآن بالعرض والنقاش فهما جيدا ما لم يكن قد الم بخلفية تنزيلها ، ومن ثم يتحتم عليـه أن يقف على الأحوال والظروف الاجتماعية والتاريخية ونحوها التى تعينه على شرح وتفسير أى موضوع خاص . اذ القرآن لم ينزل كلا متكاملا فى آن واحد ، كما أن الله تعالى لم يلق الى محمد عليه الصلاة والسلام نسخة منه مكتوبة منـذ بداية مهمته ويطلب اليـه أن ينشرها ويدعو الناس كى يتبنوا نهجا خاصا فى الحياة .

كذلك ليس القرآن عملا أدبيا على النمط التأليفى المألوف تنمو فكرته الاساسية وتتطور فى تناسق وترتيب منطقى مطرد كما أنه لايشـاكل هذا الصنف من الاعمال فى أسلوبه . فالقران يتخذ سياقا يتناسب وقيادة الحركة

الاسلامية التى اشعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت اشراف القرآن وقيادته المباشرة وعلى هذا فالله سبحانه وتعالى اوحى القرآن وانزله رويدا رويدا ليوفى متطلبات الحركة ويسد احتياجاتها ولوازمها فى كافة مراحلها المختلفة .

السـور المكيـة :

حين امر الرسول الكريم أن يبدأ مهمته فى مكة أنزل الله عليه تلك الارشادات والتعاليم التى يحتاجها فى تدريبه على هذا العمل الجليل الذى أسند اليه . كذلك أوضح الله الحقيقة ورد باختصار على أخطاء الفهم الشائعة التى أضلت الناس ودفعتهم الى الدخول مداخل السوء فى حياتهم ودعاهم الى قبول مبادىء الأخلاق الاساسية واتخاذ الموقف الصواب الذى يؤدى الى فلاح البشرية وسعادتها .

هذه الرسائل الاولى المبكرة تتالف من جمل قصيرة مختصرة صيغت فى لغة فصيحة سلسة ذات جرس قوى مؤثر لتلائم ذوق من كانت تخاطبهم آنذاك فجاء أسلوبها الأدبى رائعا أخاذا حتى انها خالطت سويداء قلوبهم وبلغت فى سحرها أن أستحوذت على مشاعر سامعيها فراحوا يرددونها اعجابا بجمالها وتألقها . ورغم أن الحقائق العامة كانت جلية فى هذه الرسائل (السور) الا انهاكسيت لونامحليا وزودت بالادلة والمجالات والامثلة والشواهد والصور التوضيحية المستوحاة من البيئة التى كان المخاطبون الأوائل على علم تام بها . ولكى تحرز هذه الرسائل تاثيرها الفعال المطلوب تم تسديدها الى تاريخهم وتقاليدهم وآثارهم ومعتقداتهم واخلاقهم وطرقهم الفاسدة المفعمة بالشرور والاثام .

هذه المرحلة المبكرة أسفرت بعد أعوام أربعة عن ايمان بعض من خيار القوم بالدعوة ، وأسسوا نواة الأمة الاسلامية التى اكتملت فيما بعد . غير أن الأكثرية العظمى من قريش راحت تعارضهم وتقف فى وجههم فهم قد ظنوا فى جاهليتهم أن هذه الجماعة تستهدف مصالحهم ورغائبهم ونزواتهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم العتيقة الموروثة . ورغم هذا استمرت رسالة القرآن تنتشر خارج حدود مكة حتى وصلت الى أماكن أخرى وقبائل أخرى .

هناك دخلت الحركة الاسلامية مرحلتها الثانية التى امتدت أعواما تسعة وبدات حركة مقاومة عنيفة فى وجه الجماعة الاسلامية لا من جانب قريش وحدها ، وانما شمر أغلب الزعماء المؤيدين لها عن سواعدهم ليخنقوا هذه الحركة او على الاقل يحاصروها ويمنعوا تقدمها مجندين لهذا العمل كل الطاقات وجميع انواع الاسلحة . فاشاعوا عنها الشائعات والدعاوى الكاذبة ، ونسجوا التهم وحبكوها ، وأثاروا ضدها اعتراضات واهية ، وضوعوا الأجواء من حولها برياح الشكوك والريب كى يبعدوا العامة عن الانضمام اليها والتحالف معها وحجبوا الزائرين من غير أهل البلاد عن الاستماع الى النبى الاعظم وصبوا أنواع القساوات وصنوف العذابات

على أبدان من قبلوا الاسلام وقاطعوهم اجتماعيا واقتصاديا كي يقضوا عليهم المضاجع ويكرهوهم على طاعتهم وبلغ اضطهادهم للمسلمين مبلغا لا يحتمل حتى اضطر بعضهم ان يتركوا منازلهم فارين الى الحبشة مرتين ثم هاجروا كلهم آخر الامر الى المدينة .

غير أن الحركة استمرت فى الاتساع والانتشار رغم كل الاضطهادات والمعوقات ونادرا ما خلت اسرة أو عائلة فى مكة لم يقبل احد افرادها دعوة الاسلام الأمر الذى خلق بالطبع مرارة واسى فى قلوب المعارضين فاشتد اضطهادهم للمسلمين وبلغ ذراه حين رأوا اخوانهم وأبناء اخوانهم وابناءهم وبناتهم واخواتهم وعشيرتهم المقربين قد دخلوا فى الاسلام وآمنوا به وغدوا من مؤيديه ومعاضديه الذين كانوا على استعداد لبذل أرواحهم ونفوسهم ونفائسهم دفاعا عنه وذودا .

ولقد اشتد ساعد الحركة باجتذابها خيرة الناس الى حظيرتها وهم الذين تحولوا بعد قبولهم الاسلام أمثلة مجسدة للفضيلة مما جعل الدنيا تستشعر سمو الحركة الخلقى الذى كان يصهر شخصيات تابعيها ويصبها فى قالبه .

وعبر هذا النضال المر الطويل واصل الله تنزيله بما يطابق مطالب الحالة آنذاك ، فاوحى الى نبيه آيات اثرت فى أفكار سامعيها وسلوكهم تاثيرا جد كبير ، وعرفت المسلمين بواجباتهم الاولية ، وغرست فيهم روح الاخلاص والفداء لتضمهم الىبعضهم لبنات اعضاء فى الجماعة الاسلامية . كذلك لقنتهم الرحمة والخلق الدمث وعفاف الشخصية وطهرها ، ودربتهم ليكونوا دعاة للاسلام . ومن وجهة أخرى واست هذه الرسائل الالهية المسلمين وطمانتهم وروحت عنهم وحثتهم بالوعود الغالية فى نجاح دنيوى وسعادة أخروية وحرضتهم على الجهاد فى سبيل الله بجأش رابط وعزم ثابت وشجاعة فائقة . ولقد امتلات قلوب المسلمين آنذاك بروح التضحية والفداء فى سبيل هذه القضية الشريفة حتى انهم كانوا على استعداد لأن يتحملوا كافة الوان البلاء ويقاتلوا ضد المعارضة المريرة القاسية .

وفى الوقت ذاته أنذرت هذه الايات معارضى الحركة واشياعهم ، وسيقت الامثلة من تواريخ الامم المجاورة لاثبات ذلك وحولت انظارهم ومداركهم الى آثار دورهم التى يمرون عليها فى رحلاتهم ، وجعلت أطلال مساكنهم عبرة لتلقى الدروس والعظات وطالبتهم الآيات أن ينظروا الى الظواهر الطبيعية التى يرونها فى المساء وحين يصبحون سواء فى السماوات أو فى الأراضين كدليل على وحدانية الله وحتمية البعث والحساب فى الآخرة .

لقد كشفت الرسائل الالهية الاولى عن عورات الوهية الاوثان والوثنيين الكاذبة وشركهم بالله وعبادتهم تقاليد الاباء والاجداد البالية بغية اقناع اولى الألباب السليمة بخطئهم ونقدت تصوراتهم المجوجة المهترئة وبينت مدى انفصالهم عن الله وعدم أيمانهم بحسابه لهم يوم الدين بمعقولية ظاهرة لم تترك فى البابهم وافئدتهم ثغرة للشك والارتياب ، فانمحى كل ظن واندثرت

كل ريبة ، واجيب كل اعتراض وانجلى كل تعقيد وقعوا فيه واوقعوا فيه غيرهم .

وزبدة القول أن هذه الخطابات برهنت فى جلاء على أن تلك الطرق القديمة البالية كانت قائمة على الجاهلية ويعوزها المعنى والحجة ، كما أنذرت الكافرين سوء المآل لسوء أخلاقهم وفساد نهوجهم فى الحياة وعاداتهم الجاهلية النافقة ، ومعارضتهم الحق واضطهادهم المؤمنين واخراجهم رجالا ان يقولوا آمنا بالله الواحد القهار . والى جانب هذا كله قدمت هذه السور المبكرة بشكل عام مبادىء الحضارة والأخلاق الاساسية التى حازت قبولا على الدوام والتى كونت الحضارة الالهية المضيئة .

وفى أثناء هذه المرحلة المكية طرأت على الحركة تغيرات عدة اذ اتسعت يوما بعد يوم واشتدت معارضتها ومقاومتها على قدر انتشارها وقوتها ، ثم ما لبثت ان اصطدمت بأصحاب العقائد المختلفة وأنصار أساليب الحياة المتباينة مما نتج عنه ظهور مشاكل جديدة فبدأت السور والآيات تتناول مواضيع جديدة متعددة وهذا يفسر لنا اختلاف أسلوبها عن أسلوب الخطابات والسور الاولى .

هذه هى خلفية السور التى نزلت على مدى ثلاثة عشر عاما من الحياة المكية .

السور المدنية :

بعد الوقوف فى وجه المقاومة ثلاث عشرة سنة داخل مكة وجدت الحركة الاسلامية لها مركزا جديدا فى المدينة حيث يتيسر عليها أن تلم شعث أتباعها من كل أحداب الجزيرة العربية وأصوابها ، وتوحدهم وتقوى عضدهم ، وعلى هذا هاجر الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام ومعه أغلب المسلمين الى يثرب .

وهنا دلفت الحركة الى طورها الثالث فى ظل ظروف مغايرة تماما ، فهاهى قد نجحت فى تأسيس دولة منظمة مما نجم عنه اشتباك مسلح بينها وبين أمة الجاهلية القديمة .كذلك نزل اليهود والنصارى الى حلبة الصراع يناوشونها رغم ادعائهم أنهم أهل كتاب واتباع من سبق من الانبياء ، كما أضحى لزاما على الحركة الاسلامية أن تلقى ضروبا متعددة الامزجة والالوان من المسلمين المنافقين الذين دخلوا الاسلام بوسيلة أو باخرى

غير أن الحركة قدر لها النجاح رغم كل جبال العوائق الراسيات وتمكنت من نشر لوائها على الجزيرة العربية بأكملها بعد خوض نضال وكفاح عنيف دام عشرة أعوام وغدت فى مركز ثابت ووضع راس يمكنها من بسط رسالتها الأممية الاصلاحية الى العالم الخارجى .

ان عديدا من التغيرات قد وقع أيضا فى هذه المرحلة وكل أمر انقلب

وتغير أضحت له مشاكله الخاصة ، ولذا أوحى الله تعالى الى رسوله صنوفا من الرسائل التى تتطلبها كل مناسبة جديدة ، وهذا هو السبب فى مجىء بعضها مصاغا فى بيان نارى متقد صادر من منذر محذر ، على حين أتى البعض الاخر فى صيغة مرسوم ملكى من لدن المشرع المقنن ، وبعضها فى اسلوب المعلم والمدرب والمصلح معلما مبادىء وطرق تاسيس وانشاء المجتمع وبناء وارساء الحضارة الراقية من أجل تصريف شئون الحياة المختلفه وتدبيرها ، والبعض الاخر يسدى تعليمات بشان كيفية التعامل مع المنافقين والكفار وقد صاروا رعايا للدولة ، ثم لقن المسلمون فى بعض من هذه الرسائل الالهية الاسس التى تضبط العلاقات بينهم وبين أهل الكتاب وشئون الحرب وعلاقاتهم بالحلفاء على حين تم تدريبهم وتربينهم فى آيات اخرى ليؤدوا واجباتهم ويفوا بعهودهم بوصفهم خلفاء رب العالمين كذلك يلقى بعض هذه الايات أضواء وتعاليم لهداية المسلمين ويحذرهم أن يهنوا ويضعفوا فتذهب ريحهم ويحضهم على التضحية بالحياة وما فيها ومن فيها فى سبيل الله ، بينما البعض الآخر تراه يعلمهم الدروس الأخلاقية التى تلزمهم فى الهزيمة والنصر وفى الشدة والرخاء وفى الحرب والسلام .

وقصارى القول أن هذه الايات كلها دربتهم على كيفية أنجاز المهمة المتعلقة بالرسالة من أجل نشر الاسلام وسيادته باعتبارهم خلفاء الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام ، لذا فقد دعا بعض آيات القرآن أهل الكتاب والمنافقين والكفار والمشركين الى الاسلام ووبخهم وعنفهم على قسوة قلوبهم وتحجرها ، وانذرهم نارا تلظى ، وحذرهم عاقبة اهمالهم الدروس والعبر المستقاة من قصص التاريخ الماضى وحوادثة كى لاتكون لهم حجة على الله فى اتباعهم ما ضل من السبل .

هذه هى خلفية السور التى نزلت على مدى سنوات عشر فى يثرب وواضح تمام الوضوح ان اسلوبها ولابد مخالف لاسلوب السور المكية .

الاسلوب :

لابد أن يتضح مما سبق أن نزول القرآن ووحيه بدأ مع بداية الحركة الاسلامية واستمر ثلاثا وعشرين سنة ، وأن سوره نزلت وفقا لمقتضيات أطوار الحركة ومراحلها المختلفة ومن ثم يتضح أن كتابا مثل هذا من المحال أن يحوى تشاكلا واتساقا فى الاسلوب على نحو يناظر ما هو متبوع فى كتب الديانات المماثلة له . وعلى المرء أن يضع فى ذهنه كذلك أن سور القرآن المختلفة — ما طال منها أو قصر — لم يكن القصد منها أن تنشر فور نزولها فى هيئة كتيبات بل قصد منها أن تلقى وتوجه كدروس وتنشر وتذيع كما هى وبالتالى لم يكن ممكنا أن تنزل فى أسلوب كتاب مؤلف مكتوب أضف الى هذا أن هذه السور ذات طبيعة تختلف بالضرورة عن المحاضرات التى يلقيها أستاذ من الاساتذة ومن ثم فاسلوبها لايجانس أسلوب المحاضرات كما أن الرسول الاعظم صلوات الله عليه وسلامه أسندت اليه مهمة خاصة وكان عليه أن يخاطب العواطف والألباب على السواء ويتعامل مع أناس ذوى

أذهان تتباين فى مستوياتها ومواجدها ، ويقابل أوضاعا متلونة ويصادف ضروبا كثيرة من التجارب خلال زمن مهمته فمثل هذا الشخص ذى المهمة الشاقة كان عليه أن يقوم بكل ما يتطلبه أنتشار الرسالة وتقتضيه قيادة الحركة . فكان عليه أن يقر رسالته فى عقول الناس من كافة وجوهها كى يتحقق تغيير تلال الأفكار المتخلفة العفنة ، وأن يؤجج المشاعر والعواطف كى تواجه قوى المعارضين وأن يدرب أتباعه ويصلحهم كى يملاهم بالطاقة الروحية والشجاعة والاقدام،وأن يدحض حجج معارضيه وبراهينهم ويكشف سوءات أخلاقهم الى غير ذلك من مقتضيات انجاح المهمة لهذا كان لابد من ملاءمة أسلوب ما أنزل الله على رسوله للوازم الحركة ومتطلباتها ، ومن هنا نقف على مدى الخطأ فى أن نفتش فى القرآن وآياته عن أسلوب الكتب التأليفى أو أسلوب محاضرات الجامعة .

أن ما سبق يفسر لنا تكرار الاشياء مرارا فى القرآن . فاى مهمة وحركة يلزم لها بسط ماتتطلبه فىمرحلة من مراحلها مع ضرورة التزام الصمت ازاء ما تحتاجة فى مرحلتها المقبلة لهذا فان أحتياجات الحركة ما تفتا تتكرر ما دامت الحركة لم تدخل فى مرحلة أخرى سواء استمرت شهورا أم أعواما . وطبيعى أن تكرار هذه الأمور يتخذ ألفاظا وأساليب متنوعة لتجنب الرتابة كما أنها تصاغ فى لغة جميلة جليلة لتكون ذات تاثير فعال ، أضف الى هذا أن القرآن يكرر عقيدته ومبادئه الاساسية فى مواضع مناسبة ليحفظالحركة قوية فى كل مرحلة ودور .

لذا فالسور التى نزلت فى مرحلة من المراحل تشترك فى معالجة نفس الموضوعات بشكل عام مع أختلاف الالفاظ والاشكال والصور ، كذلك تحوى كل سور القرآن أشارت الى العقيدة الرئيسية وهى وحدانية الله وصفاته والاخرة والحساب والثواب والعقاب والنبوة والايمان بالكتاب وما فيه . كما أنها تعلم الرحمة والشفقة والجلد والايمان والثقة فى الله والاعتماد عليه وما الى ذلك لكيلا تهمل هذه الفضائل فى أى من مراحل الحركة ولو كانت أحدى هذه القواعد او المبادىء قد ضعفت فى أى مرحلة ولو باقل القليل لما استطاعت الحركة الاسلامية أن تحرز تقدما فى روحها الحقيقية وجوهرها .

الترتيب :

وقليل من امعان النظر والتفكير فى ضوء التباين بين السور المكية والمدنية يجيب على من يسأل : لماذا لم ترتب سور القرآن حسب ترتيب نزولها ؟ والحق أن هذا السؤال على جانب كبير من الأهمية لان أعداء الاسلام قد تصيدوه وراحوا يستخدمونه فى خلق المزاعم الشوهاء حول القرآن وبث الظنون والمزاعم السخيفة بشأن ترتيب السور الحالى ، فهم يرون ، أن أتباع محمد (عليه الصلاة والسلام) قد نشروا القرآن دون أى ترتيب يسهل ادراكه وملاحظته كالترتيب الزمنى أو غيره وانهم فقط حاولوا — كما هو واضح من الكتاب — أن يقدموا السور الكبيرة على الصغيرة ..

هذه الشكوك والمزاعم مبنية فى أصلها على جهل الحكمة الكامنة فى ترتيب القرآن الحالى فرغم حتمية أن يكون القرآن كتابا لكل عصر وأوان كان تنزيله لابد وأن يكون تدرجا على فترة ظلت ثلاثا وعشرين سنة ووفق مقتضيات ومستلزمات الادوار المختلفة التى كانت تعيشها الحركة الاسلامية ومن الواضح أن تسلسل الوحى ـ الذى كان يناسب التطور التدريجى للحركة الاسلامية ـ لم يعد له وجه مناسب بعد أكتمال القرآن . وهنا استلزم الامر ترتيبا آخر يتفق مع الظروف التى تبدلت ويناسبها . فلقدكان القرآن فى دور المرحلة الاولى للحركة يخاطب من كانوا على جهل تام بالاسلام ومن ثم كان عليه بالطبع قبل أى شىء أن يعلمهم ويلقنهم أسس الايمان ومواده الاساسية أما بعد نضوجها واكتمالها اهتم القرآن فى المقام الاول بمن قبلوا الاسلام وكونوا جماعة لتنفيذ المهمة التى كلفهم بها الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام . وواضح من هذا أن ترتيب الكتاب الكامل كان لابد من أختلافه عن ترتيب نزول آياته الزمنى حتى يناسب مستلزمات الامة الاسلامية فى كل العصور والدهور . فكان على القرآن ـ اولا ـ أن يوقف المسلمين على واجباتهم بشان تنظيم حياتهم وأن يهيئهم لحمل رسالته الى العالم الخارجى الذى يجهل الاسلام كما كان عليه أن يحذر المسلمين من المفاسد والشرور التى ظهرت بين أتباع من سبق من الانبياء لكى يبقوا فى مأمن عنها . وعلى هذا كان لزاما أن تكون سورة البقرة ونظيراتها المدنية وليست سورة العلق ومثيلاتها المكية فى مستهل القرآن وبدايته .

وثمة أمر آخر ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار وهو أن ليس مما يناسب هدف القرآن وغرضه أن تجمع كافة السور التى تعالج موضوعات متجانسة وتصنف مع بعضها . ولتفادى النزعة الواحدية فى دراسته كان لابد ـ كامر أساسى وجوهرى ـ أن تتخلل السور المكية أخواتها المدنيات وأن تتبع السورة المدنية قريناتها المكيات وحتى تظل صورة الاسلام الكاملة منشورة أمام القارىء عبر صفحات الكتاب كان لابد وأن تتناثر الدرر التى نزلت فى المراحل الاولى بين الجواهر التى نزلت فى المراحل المتاخرة وهذه هى حكمة الترتيب الحالى .

وجدير بالاشارة أن ترتيب السور القرآنية الحالى لم يقم به الصحابة كما يزعم البعض ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذى رتبه بهدى من الله وتحت أشرافه ومباشرته . فكان صلوات الله وسلامه عليه كلما أوحيت اليه سورة من ربه استدعى أحد كتابه وأملاها عليه كلمة كلمة كما نزلت وطلب اليه أن يضعها قبل سورة كذا وبعد سورة كذا . والحال نفسه فى شأن الآيات التى لم يقصد بها أن تكون قائمة برأسها اذ كان عليه الصلاة والسلام يرشد كاتبه الى مكانها الصحيح الذى يجب أن توضع فيه من سورة كذا بحيث تكون جزءا منها . كذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن فى مناسبات أخرى بنفس الترتيب الحالى وكان يوجه أصحابه لحفظه وتلاوته على نفس النحو . لذا فالحقيقة التى لا تقبل قلامة ظفر من شك أن سور القرآن قد تم ترتيبها على النحو الحالى يوم أن اكتمل القرآن وأن من رتبها هو من أوحت اليه وبهدى واشراف ومتابعة من اوحاها .

جمع القرآن :

ان الله الذى نزل الذكر قد حفظه بنفسه وأعد لحفظه وصيانته السرمدية ترتيبات وتجهيزات فكان الرسول اذا نزلت آية من الله أملاها فدونت على جريد النخل ورقاع الجلد ولحاء الشجر وقطع العظام العريضة ثم جمعت كل هذه القطع ووضعت فى كيس كبير . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتخذون من هذه القطع نسخا يستخدمونها فى منازلهم على حين حفظ المسلمون آيات الكتاب عن ظهر قلب . اذ كان عليهم ترتيلها فى صلواتهم التى فرضت عليهم منذ بداية الاسلام.

ورغم أن كثرة من الصحابة حفظوا القرآن كله أثناء حياة النبى الا أنه لم يجمع فى شكل كتاب غير أنه فور موت الرسول عليه الصلاة والسلام وقع ما استلزم جمع القرآن فى كتاب فلقد هبت عاصفة عنيفة من الارتداد عن الاسلام واستشهد كثير من الصحابة الكرام أثناء خوضهم معارك اخماد الردة وكان من بينهم عدد من حفظة القرآن عندئذ خطر ببال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرورة اتخاذ تدابير لحفظ القرآن على رسمه الاصلى ضد أى من صنوف الاخطار والمهلكات اذ ليس من الحكمة والتعقل الاعتماد على الحفظ اعتمادا كليا . فطالب عمر بضرورة تدوينه على هيئة كتاب صحيح معتمد واراد أن يحمل سيدنا أبابكر رضى الله عنه على القيام بهذه الخطوة لكن أبا بكر أبدى ترددا أول أمره من أن يفعل ما لم يفعله النبى الا أنه وافق بعد نقاش وتباحث واوكل هذه المهمة الى زيد بن ثابت الذى تردد أيضا فى البداية ولنفس السبب الذى من أجله تردد أبو بكر رضى الله عنه ثم ما لبث أن اقتنع واطمأن قلبه وتعهد هذا العمل التاريخى .

لقد كان سيدنا زيد بن ثابت رضوان الله عليه كفءا لهذه المهمة فهو قد عمل من قبل كاتب وحى للرسول عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من بين من تعلموا القرآن عن رسول الله مباشرة هذا الى جانب أنه كان حاضرا وقت أن قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن على جبريل عليه السلام . وعلى هذا أتخذت أجراءات جمع كافة القطع التى دون عليها القرآن وتركها لهم رسول الله ثم التى كانت فى حوزة الصحابة (١) وعن طريق الصحابة الكرام الذين حفظوا القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب تمت مقارنة سائر القطع وتحقيقها وكان زيد لايدون الا ما أتفقت عليه هذه المصادر الثلاثة (القطع التى تركها الرسول والقطع التى فى حوزة الصحابة وصدورهم) وبهذا جمعت نسخة صحيحة معتمدة وحفظت فى دار أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر ابن الخطاب احدى زوجات النبى وأذن فى الناس من شاء فلينسخ منها له نسخة ومن شاء فليضبط او يقارن ما عنده عليها .

---

(١) تطلعنا الروايات الصحيحة على أن بعض الصحابة الكرام قد نسخوا قطعا من القرآن أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدموها فى دورهم ومنهم على وجه التحديد سيدنا عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو زيد قيس بن السكن وغيرهم رضوان الله عليهم اجمعين .

هذه الشكوك والمزاعم مبنية فى أصلها على جهل الحكمة الكامنة فى ترتيب القرآن الحالى فرغم حتمية أن يكون القرآن كتابا لكل عصر وأوان كان تنزيله لابد وأن يكـون تدرجا على فتـرة ظلت ثلاثا وعشرين سـنة وفق مقتضيات ومستلزمات الادوار المختلفة التى كانت تعيشها الحركة الاسلامية ومن الواضح أن تسلسل الوحى ـ الذى كان يناسب التطور التدريجى للحركة الاسلامية ـ لم يعد له وجه مناسب بعد أكتمال القـرآن . وهنا استلزم الامر ترتيبا آخر يتفق مع الظروف التى تبدلت ويناسبها . فلقد كان القرآن فى دور المرحلة الاولى للحركة يخاطب من كانوا على جهل تام بالاسلام ومن ثم كان عليه بالطبع قبل أى شىء أن يعلمهم ويلقنهم أسس الايمان ومواده الاساسية أما بعد نضوجها واكتمالها اهتم القرآن فى المقام الاول بمن قبلوا الاسلام وكونوا جماعة لتنفيذ المهمة التى كلفهم بها الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام . وواضح من هذا أن ترتيب الكتاب الكامل كان لابد من أختلافه عن ترتيب نزول آياته الزمنى حتى يناسـب مستلزمات الامة الاسلامية فى كل العصور والدهور . فكان على القرآن ـ اولا ـ أن يوقف المسلمين على واجباتهم بشان تنظيم حياتهم وأن يهيئهم لحمل رسالته الى العالم الخارجى الذى يجهل الاسلام كما كان عليه أن يحذر المسلمين من المفاسد والشرور التى ظهرت بين أتباع من سـبق من الانبياء لكى يبقـوا فى مأمن عنها . وعلى هذا كان لزاما أن تكون سورة البقرة ونظيراتها المدنية وليست سورة العلق ومثيلاتها المكية فى مستهل القرآن وبدايته .

وثمة أمر آخر ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار وهو أن ليس مما يناسب هدف القرآن وغرضه أن تجمع كافة السور التى تعالج موضـوعات متجانسـة وتصنف مع بعضها . ولتفادى النزعة الواحدية فى دراسته كان لابد كـأمر أساسى وجوهرى ـ أن تتخلل السور المكية أخواتها المدنيات وأن تتبـع السورة المدنية قريناتها المكيات وحتى تظل صورة الاسلام الكاملة منشورة أمام القارىء عبر صفحات الكتاب كان لابد وأن تتناثر الدرر التى نزلت فى المراحل الاولى بين الجواهر التى نزلت فى المراحل المتاخرة وهذه هى حكمة الترتيب الحالى .

وجدير بالاشارة أن ترتيب السور القرآنية الحالى لم يقم به الصحابة كما يزعم البعض ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسـه هو الذى رتبه بهدى من الله وتحت أشرافه ومباشرته . فكان صلوات الله وسلامه عليه كلما أوحيت اليه سورة من ربه استدعى أحد كتابه وأملاها عليه كلمة كلمة كما نزلت وطلب اليه أن يضعها قبل سورة كذا وبعد سـورة كذا . والحال نفسه فى شأن الآيات التى لم يقصد بها أن تكون قائمة برأسها اذ كان عليه الصلاة والسلام يرشد كاتبه الى مكانها الصحيح الذى يجب أن توضع فيه من سورة كذا بحيث تكون جزءا منها . كذلك كان الرسول عليـه الصلاة والسلام يتلو القرآن فى مناسبات أخرى بنفس الترتيب الحالى وكان يوجه أصحابه لحفظه وتلاوته على نفس النحو . لذا فالحقيقة التى لا تقبل قلامة ظفر من شك أن سور القرآن قد تم ترتيبها على النحو الحالى يوم أن اكتمل القرآن وأن من رتبهـا هو من أوحت اليـه وبهـدى واشراف ومتابعة من اوحاها .

جمع القرآن :

ان الله الذى نزل الذكر قد حفظه بنفسه وأعد لحفظه وصيانته السرمدية ترتيبات وتجهيزات فكان الرسول اذا نزلت آية من الله أملاها فدونت على جريد النخل ورقاع الجلد ولحاء الشجر وقطع العظام العريضة ثم جمعت كل هذه القطع ووضعت فى كيس كبير . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتخذون من هذه القطع نسخا يستخدمونها فى منازلهم على حين حفظ المسلمون آيات الكتاب عن ظهر قلب . اذ كان عليهم ترتيلها فى صلواتهم التى فرضت عليهم منذ بداية الاسلام .

ورغم أن كثرة من الصحابة حفظوا القرآن كله أثناء حياة النبى الا أنه لم يجمع فى شكل كتاب غير أنه فور موت الرسول عليه الصلاة والسلام وقع ما استلزم جمع القرآن فى كتاب فلقد هبت عاصفة عنيفة من الارتداد عن الاسلام واستشهد كثير من الصحابة الكرام أثناء خوضهم معارك اخماد الردة وكان من بينهم عدد من حفظة القرآن عندئذ خطر ببال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرورة اتخاذ تدابير لحفظ القرآن على رسمه الاصلى ضد أى من صنوف الاخطار والمهلكات اذ ليس من الحكمة والتعقل الاعتماد على الحفظ اعتمادا كليا . فطالب عمر بضرورة تدوينه على هيئة كتاب صحيح معتمد واراد أن يحمل سيدنا أبابكر رضى الله عنه على القيام بهذه الخطوة لكن أبا بكر أبدى ترددا أول أمره من أن يفعل ما لم يفعله النبى الا أنه وافق بعد نقاش وتباحث واوكل هذه المهمة الى زيد بن ثابت الذى تردد أيضا فى البداية ولنفس السبب الذى من أجله تردد أبو بكر رضى الله عنه ثم ما لبث أن اقتنع واطمأن قلبه وتعهد هذا العمل التاريخى .

لقد كان سيدنا زيد بن ثابت رضوان الله عليه كفءا لهذه المهمة فهو قد عمل من قبل كاتب وحى للرسول عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من بين من تعلموا القرآن عن رسول الله مباشرة هذا الى جانب أنه كان حاضرا وقت أن قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن على جبريل عليه السلام . وعلى هذا أتخذت أجراءات جمع كافة القطع التى دون عليها القرآن وتركها لهم رسول الله ثم التى كانت فى حوزة الصحابة (١) وعن طريق الصحابة الكرام الذين حفظوا القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب تمت مقارنة سائر القطع وتحقيقها وكان زيد لايدون الا ما أتفقت عليه هذه المصادر الثلاثة (القطع التى تركها الرسول والقطع التى فى حوزة الصحابة وصدورهم) وبهذا جمعت نسخة صحيحة معتمدة وحفظت فى دار أم المؤمنين السيد حفصة بنت عمر ابن الخطاب احدى زوجات النبى وأذن فى الناس من شاء فلينسخ منها له نسخة ومن شاء فليضبط او يقارن ما عنده عليها .

---

(١) تطلعنا الروايات الصحيحة على أن بعض الصحابة الكرام قد نسخوا قطعا من القرآن أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدموها فى دورهم ومنهم على وجه التحديد سيدنا عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو زيد قيس بن السكن وغيرهم رضوان الله عليهم اجمعين .

وقد نهج زيد رضى الله عنه فى ترتيب السور عين الترتيب الذى اقره الرسول بنفسه وما كان لزيد أن يتبع أو يبتدع ترتيبا آخر وهو الذى اشتهر باتباعه الدقيق لرسول الله عليه الصلاة والسلام فى كل أمر حتى انه تردد فى البداية فى القيام بهذا العمل لالشىء الا لان الرسول لم يفعله خلال حياته الشريفة . ولهذا فمن الخطل والراى الافن أن يزعم أمرؤ أن ترتيب السور على وضعها الحالى قد تم بعد وفاة الرسول الكريم . والحقيقة التى تؤكد أن النبى تلا القرآن مرتين أمام جبريل فى آخر رمضان فى حياته (١) ما هى الا حجة وبرهان على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بكل تاكيد يتبع ترتيبا واحدا لاغير . والحديث النبوى يقطع بأن زيدا بن ثابت قد حضر التلاوة الثانية من آخر تلاوتين . كما أن الصحابة الذين حفظوا القرآن فى صدورهم لابد وانهم حفظوه مرتبا على النحو الذى علمه لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

يقول الامام مالك أن القرآن جمع كما سمعه الصحابة من النبى . كذلك يتحدث القرآن عن نفسه (ككتاب) فى مواضع عديدة فمثلا فى سورة المزمل وهى من السور المكية الأولى يقول تعالى لرسوله **ورتل القرآن ترتيلا** آية ٤. وهذا يوضح أن القرآن قد قصد به أن يكون كتابا منذ أول الوحى . والكتاب لابد له من ترتيب .

أختلاف اللهجـــات :

بالرغم من أن اللغة العربية كانت لغة عامة مشتركة لكل سكان الجزيرة العربية الا أنه كان هناك بعض الاختلافات فى لهجات بعض المناطق والقبائل .

ولاسباب واضحة أنزل القرآن بلهجة قبيلة قريش فى مكة ومع هذا رخص للعرب القاطنين فى مناطق مختلفة من الجزيرة أن يقراوا القرآن — تيسيرا عليهم — بلهجاتهم الاخرى ، لكن هذا لم يؤد الى فرق أو أختلاف فى معانى آيات الكتاب . وحين اتسع نطاق دعوة الاسلام ونشر خيمته خارج حدود الجزيرة وتوشج العرب بالمسلمين من غير العرب (العجم) بدات اللغة العربية تتاثر تدرجا ببيئتها الجديدة فخيف أن ينتهى اختلاف اللهجات فى قراءة القرآن الى مشاحنات ومنازعات بين ذوى اللهجات المتباينة فيتهم كل منهم الأخرى بتحريف القرآن ويزعم كفره . بالاضافة الى الخوف من احتمال تغير لغة القرآن العربية الجميلة النقية على يد العرب الذين أختلطوا بالعجم وعايشوهم .

---

(١) تقول الأحاديث الصحيحة أن النبى عليه الصلاة والسلام اعتاد أن يتلو القرآن مرة خلال شهر رمضان مام جبريل عليه السلام ولكنه تلاه عليه — مكتملا — مرتين فى آخر رمضان **فى حياته وأن زيد بن ثابت حضر التلاوة الثانية من آخر تلاوتين .**

لهذا استشار الخليفة عثمان بن عفان صحابة رسـول الله وانتهى الامر بان قرر استخدام النسخ المعتمدة التى جمعت بامر سيدنا ابى بكر الصديق رضى الله عنه فى العالم الاسلامى دون غيرها وحظر كافة النسـخ الاخرى المكتوبة بلهجات مغايرة وتحريمها وكاجراء وقائى أحرق عثمـان كافة النسخ الاخرى الموجودة تجنبا لوقوع خطا أو نزاع مستقبلا . فبعض الصحابة — مثلا — كان قد سجل بعض الكلمات التفسيرية والتعليقات على هوامش ما بايديهم من نسخ فخيف أن تختلط هذه الحواشى بالنص الاصلى وبالرغم من أن هذا الاحتمال كان بعيد الوقوع فى ذلك الوقت الا أن أحراق النسخ الأخرى كان عملا سديدا حكيما صادرا من ذى نظر بعيد ثاقب كى يبقى القرآن حصينا ضد أى تحريف فى المستقبل .

والقرآن الموجود فى العالم كله ليوم هو النسخة الصحيحة من القرآن الذى أصدر أبو بكر الصديق أمره بجمعه والذى أرسل منه عثمان بن عفان رسميا نسخا عديدة الى أماكن مختلفة من العالم . ومن به شك فى صون القرآن وبقائه حصينا ضد التغير والابدال فليقارن أيا من النسخ بالنسخة القديمة ليطمئن قلبه الى جانب انه لو ابتـاع نسخة من القرآن من احدى مكتبات لجزائر فى غرب أفريقيا مثلا وقارنها بنسـخة حصل عليها من دار للكتب فى جاوة فى أقصى الشرق لوجد النسختين منطبقتين تمام الانطباق على بعضهما وعلى النسخ التى كتبت ووزعت فى عهد عثمان بن عفان ، ولو كان الشك لايزال يرين على قلبه فلياخذ نسخة من القرآن من أى بقعة فى العالم ويطلب الى واحد من الملايين الذين يحفظونه أن يتلوه عليه كلمة كلمة من الالف الى الياء وسيجد أن التلاوة لابد مطابقة للنص المكتوب بحذافيره . وهذا دليل لا يأتيه الدحض من بين يديه ولا من خلفه على أن القرآن الذى بين أيدينا اليوم هو نفس القرآن الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام الى العالم . وقد يثير الشاك ريبا حول نزوله من عند الله ولكن احدا أيا كان لايرتاب قيد أنملة فى أصالته وصحته وحصانته ونقائه من كافة أنواع الحذف أو الاضافة والابدال اذ ليس فى تاريخ الانسانية شىء أصح وأصدق من القول بأن القرآن الذى معنا الآن هو بعينه الذى أتى به محمد عليه الصلاة والسلام الى العالم .

ولنتدارس الان موضوع القراءات واختلافها لان وجودها خلق كثيرا من الظن والالتباس وسوء الفهم والزعم بان القرآن لم يبق سليما كما هو . ولعل الحقائق التالية تساعدنا على فهم طبيعة هذه القراءات ومداها : —

١ — لم يكن الخط العربى الذى كتب به كتاب الرسـول اثناء حياته الشريفة يشتمل على نقاط أو حركات صوتية وكذا الحال فى النسـخة التى جمعها زيد بن ثابت فى عهد ابى بكر وكذلك النسخ التى وزعها عثمـان بن عفان رضى الله عنهم جميعا .

٢ — رغم أن صحة النص القرانى قد تاكدت فى الرسم المكتوب الآن أنتشاره كان مشافهة وذلك لانتشار الامية بين النـاس وندرة الورق ومع هذا فقد كان العرب القادرون على القراءة والكتابة يلقون بعض المصاعب فى

استكناه معنى هذا الخط . وكان هناك آلاف منهم ممن حفظوا القرآن كله عن ظهر قلب على يد الرسول بشخصه أو صحابته الكرام فاتبعوا القراءة التى علمها الرسول لهم وعلموها لغيرهم .

٣ ــ ان عثمان بن عفان رضى الله عنه حين أرسل الى كل مراكز الاسلام نسخا من القرآن صحيحة لم يكتف بذلك بل ارسل مع كل نسخة قارئا ليحافظ على شكل قراءته الصحيحة التى علمهم الرسول بنفسه أن يقرأوها .

٤ ــ وعلى كر الايام والليالى رؤى ضرورة وجود حركات صوتية لتحافظ على قراءة القرآن الصحيحة ومن ثم تحولت النقاط الى حركات صوتية بأمر من زيد حاكم البصرة (٤٥ ــ ٥٣ هـ) . وفى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٥هـ) عين الحجاج بن يوسف علماء ليضعوارموزا جديدة للحركات الصوتية والنقاط بغية التمييز بين الحروف المتشابهة واستمر أستخدامها الى يومنا هذا .

ينبغى أن يتضح من الحقائق التاريخيـــة السالفة أن قراءة القرآن (باختلافات طفيفة جدا) هى نفس القراءة التى قراها الرسول علية الصلاة والسلام ويجمع علماء القرآن على تاكيد القراءة الصـحيحة بانها القـــراءة التى :

أ ــ تطابق نص النسخة التى وزعها عثمان بن عفان .

ب ــ تخضع لمعجم اللغة العربيـــة واستخدامات الفاظها وتعبيراتها وقواعدها . وفوق كل هذا .

جـ ــ القراءة المأثورة عن النبى نفسه والواردة بحلقات متصلة واسانيد مربوطة فى روايتها .

هذا هو سبب وجود اختلافات طفيفة فى قراءة القرآن وهى أختلافات لا تتعارض مع معانيه بل توسعها وتجعلها أكثر فهما . وبهذا لا يوجد أدنى شك فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قد مارس هذه القراءات على أختلافها ورسمها الموجود الان .

ولناخذ القراءتين الصحيحتين للاية ٣ من سورة الفاتحة والاية ٦ من سورة المائدة مثالا على هذا .

فثم قراءتان للآية الثالثة من الفاتحة ، الأولى (مالك يوم الدين) والثانية (ملك يوم الدين) ومن الواضح الجلى أن هاتين القراءتين تجعلان معنى الاية واضحا متسعا تماما (١) .

---

(١) ذلك أن الملك ولابد مالك أما المالك فقد لا يكون ملكا ــ المترجم .

أما الاية السادسة من المائد فالقراءة الاولى (فاغسلوا وجوهكم .. وارجلكم) كما يحدث فى الوضوء بقدمين عاريتين . والقراءة الثانية (فاغسلوا وجوهكم ... وامسحوا برؤسكم وأرجلكم (١) وهذه القراءة الثانية تبيح للمرء أن يمسح على قدميه بيديه مبتلتين شريطة أن يكون قد غسل قدميه وارتدى خفا أو جوربا سميكا أو نحوه بعد آخر وضوء ، وهذا الترخيص معمول به لمدة أربع وعشرين ساعة اذا كان المرء ملازما داره واثنى وسبعين ساعة ان كان على سفر .

وواضح من المثالين أن القراءات المختلفة لا تضم تعارضا مع جوهر المعنى على الاطلاق كما أنها تجعله أكثر وايسر فهما . والامر ينطبق على كافة القراءات الاخرى .

الشمولية :

يعرف كل أنسان أن القرآن يقول بتقديمه الهداية للانسانية كلها لكنه ما أن يقرأه حتى يجده موجها فى أساسه الى العرب الذين كانوا يعاصرون نزوله ورغم أنه يخاطب غيرهم حينا ويوجه كلامه الى البشرية قاطبة أحيانا الا أنه يناقش بشكل أساسى تلك الأشياء التى يألفها ذوق العرب وتتصل ببيئتهم وتاريخهم وعاداتهم . وهذا بالطبع يجعل المرء يتساءل : اذا كان القرآن موجها للبشرية كلها فلماذا يضم بين سوره عديدا من العناصر المحلية والقومية المرتبطة بوقت تنزيله ؟ والذين لا يفهمون حكمة هذا الأمر يجمعون على أن القرآن كان مقصودا به اصلاح العرب آنذاك ثم ادعى فيما بعد أنه نزل لهداية البشرية كلها فى جميع آونتها ودهورها .

واذا كان من يثير مثل هذه الاعتراضات لا يدفعه اليها حبه للاعتراض فى ذاته بل يبغى الوصول الى حقيقة الامر بالفعل فانى اسأله ان يقرأ القرآن ويستخرج من بين آياته ما يثير فى ذهنه هذا الشك وينتقى منه عقيدة او فكرة او مبدأ قد يكون المقصود به العرب آنذاك دون سواهم ويتصيد مبدأ او قاعدة سلوكية خالية من الصبغة العمومية الشاملة وموجهة الى العرب وحدهم حينذاك .

ان مجرد كون القرآن — حقيقة — يدحض العقائد الوثنية الكافرة ويدين العادات المبنية على الشرور والمفاسد فى قوم بعينهم يعيشون فى وقت ومكان محدد معلوم ، ثم يقيم ادلته وبراهينه فى اثبات وحدانية الله متخذا المادة المجموعة من بيئتهم عمادة فى ذلك فهذا ليس دليلا دامغا يثبت

---

(١) الآية « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم الى الكعبين » فى القراءة الأولى تقرأ « أرجلكم » بفتح اللام على انها معطوف على « وجوهكم وأيديكم » فيقع عليها فعل « اغسلوا » والقراءة الثانية بكسر اللام على أنها معطوف على « رؤوسكم » فيقع عليها فعل « امسحوا » ثم تكسر لعطفها على مجرور بالياء قبلها — المترجم .

الزعم بأن دعوته كانت محلية مؤقتة . وعلينا ان نتفحص المسألة عن كثب وببصيرة متقدة ثم نقرر ما اذا كان قوله مقصورا على كفار الجزيرة وحدهم ام لا ، وما اذا كانت دعوته تشكل حقيقة تنطبق وكل زمان ومكان ام لا ، وما اذا كنا نستطيع اولا نستطيع فى اى مكان وآن تقديم نفس الادلة والحجج التى يقدمها القرآن بنفس القوة لازهاق الكفر ودمغه وما اذا كان فى مقدورنا فى اى عصر ووقت استخدام الدلائل التى يعرضها القرآن لاثبات وحدانية الله — مع تغيير طفيف — أم لا ، فان جاءت اجابة هذه الاسئلة بالقبول والايجاب فليس هناك ما يدعو لضرورة وصف هذا الوحى العام والتنزيل الشامل بأنه محلى مؤقت بحجة واهية هى انهيخاطب مجتمعا خاصا فى فترة خاصة .

ونحن لا نعرف فلسفة ولا منهج حياة ولا عقيدة قط فى العالم تفسر وتشرح كل شىء من مبتداه الى منتهاه بالنظر والتجريد دون أن تشير الى حالات خاصة او تستدل بأمثلة وشواهد اذ من المستحيل — بداهة — ان يتأسس نموذج للحياة على اساس النظر وحده . وحتى اذا فرضنا جدلا امكان تحقق هذا فبالتأكيد ان مثل هذا النظام سيبقى مجرد نظرية مخطوطة على الورق ولن ترى النور فى الواقع العملى .

وفوق هذا ، ليس من الضرورى ولا من المجدى بدء اية حركة فكرية — جعلت لتكون حركة عالمية — منذ اول امرها على خطوط واسس عالمية وانما الطريقة المثلى لبدئها ان تنشأ فى بلدها الاصلى الاول ، ثم تقدم بوضوح نظرياتها ومبادئها الاساسية التى تكون عمد نظام الحياة المطلوب وهنا يتحتم على انصارها واشياعها ان يقروا مبادئها واسسها فى اذهان شعبهم الذى يتكلم لغة واحدة وله عاداته وظروفه الواحدة . ثم ينبغى عليهم قبل كل شىء أن يحققوا مبادىء حركتهم فى داخل بلدهم ويبرهنوا على صلاحيتها وكفاءتها بتحقيقهم نظاما حياتيا سعيدا ناجحا وهذا بالطبع سوف يجذب اليه أمما أخرى وستقبل أقوامها العاقلة على تفهم الحركة وتنكب على دراستها وتعقلها ليشرعوا من بعد فى تطبيقها بينهم . ان اى نظام فكرى لا يصح ذا صبغة قومية محلية لمجرد انه قدم اول امره الى امة بعينها ووجهت ادلته وحججه الى شعب بعينه . والحق ان ما يميز بين النظام المحلى والنظام العالمى ويفرق بين النظام المؤقت والنظام الدائم ان النظام المحلى يهدف اما الى بسط سيادته ورفعته او دعوته الخاصة على الامم الاخرى واما الى تقديم مبادىء ونظريات لا تصلح — من حيث طبيعتها — لأن تقدم الى أمم أخرى غيره . ومن جهة أخرى فان النظام العالمى يعطى البشرية كلها درجات ورتبا وحقوقا متساوية ويقدم مبادىء ذات روح عامة وتطبيق شامل اما النظام المحلى فهو لا يفعل هذا . كذلك تتسم مبادىء النظام الدائم بقابليتها للتطبيق فى اى وقت على حين تفقد مبادىء النظام المؤقت واقعيتها وامكانية تطبيقها بمرور الزمن وتوالى العصور ولو تدبر المرء القرآن فى ضوء ما تقدم فلسوف يخلص الى ان تعاليمه ذات سمة عامة وتطبيق شمولي واسع .

دستور كامل :

وثمة أمر آخر يثير لغطا ويسبب خلطا ذهنيا وهو الادعاء الذى يتردد دائما بأن القرآن دستور كامل للحياة على حين اذا سرح القارىء طرفه بين آياته لم يجد فيه قواعد ولوائح تفصيلية حول المشاكل الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وما يشاكلها فيدهش ويحار لعدم رؤيته اى شروح تفصيلية حتى عن الصلاة والزكاة وهما من الفروض الهامة التى يؤكد عليها القرآن نفسه تاكيدا بالغا وما يفتأ يكرر تأكيده هذا ما توالت آياته وسوره ، لذا فالقارى العادى لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن تسمية هذا الكتاب دستورا كاملا .

ومرد هذا الخلط والعجن أن صاحب الاعتراض يغفل جانبا من الحقيقة هو أن الله تعالى لم يرسل الكتاب فحسب بل عين معه رسوله عليه الصلاة والسلام ليرى الناس تعاليمه ويشرح لهم مبادئه بممارستها فى الواقع العملى . وتقريبا للذهن اضرب مثلا بالعمارة او البناء فلو وضع رسم المبنى المقترح دون تعيين مهندس ليشرف على اقامته وانشائه فلا مناص من اعداد كل دقيقة من دقائق رسمه وكل تفصيلة من تفاصيل خطته اما اذا عين مع الرسم مهندس لانشاء المبنى على الفور فبالطبع لا تكون ثمة حاجة الى خطة تحوى ادق التفاصيل بل يكفى آنئذ وجود الخطوط الاساسية للرسم وملامحه الرئيسية ، ومن الخطأ اذن ان نتهم هذه الخطة بالنقص والعيب لأنها لا تحوى التفاصيل الدقيقة .

ولما كان الله قد ارسل مع القرآن رسوله العظيم فان الحاجة لزمت للمبادىء العامة دون التفاصيل وللتعاليم الكلية الاساسية دون الدقائق الصغيرة ، ومن ثم فوظيفة القرآن الرئيسية ان يقدم قواعد عقلية وخلقية واضحة للطريق الاسلامى ويدعمها بالبراهين العقلية وما يأسر القلب من خطاب . وهو قد خط الحدود الرئيسية لكل شعبة فى الحياة — دون اعطاء لوائح وقواعد — بقدر ما يلزم الجانب العملى لبناء الطريق الاسلامى للحياة الى جانب انه يضع فى اماكن هامة معينة معالم للهداية ليبين لنا كم هو ضرورى أن تقوم هذه الشعاب على ما يرضى الله ووفق رغبته . وقد أسند البناء العملى الفعلى للطريق الاسلامى للحياة — حسب التعاليم التى يحويها الكتاب — الى الرسول عليه الصلاة والسلام الذى بعث خاصة لينشىء النموذج المثالى لحياة الفرد والمجتمع والدولة الاسلامية كى تكون قائمة — فعلا على مبادىء لقرآن . وهكذا فالقرآن دستور كامل بمعنى انه يؤخذ جنبا الى جنب مع السنة النبوية العطرة .

وهناك مسألة أخرى تحير الألباب وترهق العقول وهى اختلافات تفسير القرآن فالناس يرون ان القرآن يعد من يحدثون اختلافات حول كتاب الله ويتقطعون دينهم بينهم شيعا سوء العذاب ثم اذا بنا نرى تفاسير عديدة مختلفة للقرآن حتى قل ان يوجد امر تتفق عليه كافتها . ولم يقتصر الامر على المتأخرين وحدهم بل ان العلماء العظام من الرعيل الاول بما فيهم صحابة رسول الله ومن تبعهم لم يتفقوا على تفاصيل الاوامر والتحريمات

والقوانين فهل يستحق أولئك الوعيد والادانة التى وردت فى القرآن لتفسيرهم القرآن بمفاهيم شتى ورؤى مختلفة ؟ واذا كان الامر ليس كذلك فاى ضرب من الاختلاف يمقته القرآن ويتوعده بالعذاب السرمدى ؟.

هذه المسألة واسعة متشعبة وليس فى هذا المقام متسع لبسطها ونقاشها ويكفى هنا ان نقول ان القرآن لا يعارض اختلافات الرأى الصحيحة حول تفسير وصاياه وتعاليمه بشرط :

(أ) ان يكون هناك اتفاق بين ذوى الآراء المختلفة حول المبادىء الاساسية .

(ب) ان يبقى الجميع داخل الامة الاسلامية وبين افرادها .

والقرآن يستنكر الاختلاف الذى يبدأ بعبادة النفس والغرور والانحراف ويسوق الامة الى التطاحن والانقسام ولما كان الصنفان من الاختلاف لا يتشابهان فى طبيعتهما او نتائجهما فلابد الا يضعهما المرء تحت قسم واحد فالنوع الاول ضرورى لتقدم المجتمع وهو عصب الحياة وروحها وكل مجتمع عاقل مفكر لابد وان يزكيه ويشجعه لان وجوده علامة حياة والمجتمع الذى يحتمل كبحه وكظمه هو المجتمع الذى يريد لنفسه أن يتردى فى لجج الحماقة والبله أما النوع الثانى فكما تعلمون يضرب بمعاوله فى جذور المجتمع ويعمل فيه بالتفسيخ والتقطيع ومن ثم فظهوره فى مجتمع ما ليس دليل صحة بل نذير سوء ورمز مرض ومحال ان يأتى بثمار طيبة او نتائج حسنة .

ولايضاح هذين الصنفين من انقسام الرأى واختلافه اتمثل باننا لو افترضنا وجود اثنين من العلماء أو الفقهاء يتفقان مبدئيا على أن الله ورسوله فحسب هما الجديران بالطاعة والانصياع وان القرآن والسنة هما المرجع والسلطة النهائية فى سن كافة القوانين ، لكن هذين العالمين او الفقيهين قد يختلفان حول التفاصيل والدقائق أو حول الفصل فى احدى القضايا بشرط الا يجعل احد منهما رأيه معيارا للاسلام او عدم الاسلام أو يؤذن فى الناس أن الآخر قد خرج على الاسلام ومرق منه متخذا هذا الاختلاف فى وجهات النظر ركيزة لدعواه . و فىمقدور كلاهما ان يقدم الى الناس الادلة والاسانيد التى تدعم رأيه ان كان الامر يتعلق بهم ويترك لهم اتخاذ القرار ، او يرفعها الى مجلس القضاء الاعلى او الى الهيئة التشريعية فى المجتمع اذا كان الامر يتعلق بمسألة قانونية وعندئذ اما ان يدمغ أحد الرأيين الآخر وينتصر عليه واما أن يقبلا سويا جنبا الى جنب ولكن ما ينبغى التيقن منه هو انه لا يسمح ابدا بالاختلاف حول المبادىء الاساسية للاسلام او حول القضايا والامور التى قد تؤدى الى انبثاق جماعة جديدة منشقة . فمن الخطأ مثلا ان يتبنى احد العلماء او الفقهاء او المتصوفة او الزعماء رأيا فى امر لم يجعله الله ورسوله امرا اساسا ثم يزعم انه مبدأ اساسى فى الاسلام ويعلن ان من خالفوه الرأى ليسوا مسلمين انما هم مارقون فاسقون خلعوا ربقة الاسلام من اعناقهم وعلى هذا يشرع فى تكوين جماعة من شيعته مناديا « انها هى الجماعة الاسلامية

وحدها ومن يشذ عنها يستحق عذاب جهنم فان كنت مسلما فهلم وادخل والا فأنت لست بمسلم » .

هذا هو اختلاف الرأى الذى يمقته القرآن ويشجبه . وهناك امثلة كثيرة من النوع الاول الصحى حدثت خلال حياة الرسول نفسه وهو لم يسمح بوجودها فحسب بل مدحها واثنى عليها لانها كانت دليل صحة وبشائر خير بيئت ان عقلاء القوم كانوا مشغولين بالتفكير والبحث والتدبر مهتمين بالاسلام وتعاليمه محاولين ان يجدوا حلولا لمشاكل الحياة من خلال الاسلام لا من خارجه . كذلك كانت هذه الاختلافات محكا لمعدن الحكم الذهبى آنذاك والذى كان عليه — الى جانب ضرورة بقاء الجميع ملتفين حول مبادىء واحدة — ان يمنح مفكريه حرية البحث والاجتهاد واعمال الرأى فى حدود مفروضة كى تبقى الابواب مفتوحة من اجل التقدم والتطور .

مقترحات حول الدراسة :

وفى ختام القول اورد بعض الاقتراحات بشأن دراسة القرآن :

لما كان القرآن يتناوله اناس يختلفون فى نوعياتهم واهدافهم واغراضهم فليس فى وسعى ان اقدم ارشادا عاما حول اسلوب دراسته يفى باحتياجاتهم جميعا على اختلافهم واختلافها ولهذا ارى ان اقصر قولى على من يريدون فهمه حقيقة ويبحثون فيه عن هدى يحلون به مشاكل الانسانية فأتقدم اليهم ببعض الاقتراحات التى قد تساعدهم على اجابة مطالبهم وتذلل ما يلقونه من عقبات مانعات .

والشرط الاساسى لفهم القرآن ان يتناوله الدارس بعقل متفتح مستقل غير متحيز اليه او عليه . وسواء كان المرء يؤمن به كتابا منزلا من الله ام لا فعليه ان يحرر ذهنه بأقصى ما يمكنه ويبعد عنه التحيز ويتخلص من كافة الآراء التى كونها واكتسبها مسبقا ثم يقرأه بالرغبة المجردة فى فهمه اما الذين يدرسونه فى ضوء مفاهيمهم الشخصية المسبقة فلن يجدوا فيه غير افكارهم فحسب ولهذا لا يستطيعون الوصول الى ما يبغى القرآن توصيله وتبليغه . واذا كانت طريقتهم هذه لا تجدى نفعا فى دراسة الكتب الاخرى فكيف تنفعهم فى دراسة القرآن وهو الكتاب الفريد كما اسلفت ؟

وينبغى التنويه الى ان المرء اذا كان يريد ان يلم بمحتويات القرآن الماما سريعا فقد تكفيه قراءته مرة أما ان أراد أن يعرف القرآن معرفة عميقة فلابد له من قراءته مرارا ومن وجهات نظر متعددة . ومن ارادوا دراسته بامعان فعليهم ان يقرأوه على الاقل مرتين بهدف مجرد فهم نظام الحياة الذى يقدمه ككل متكامل وعليهم ان يستخرجوا اساسياته واسلوب الحياة التى يرمى الى اقامتها على هذه الأسس .

وإذا عنت للمرء أسئلة أثناء هذه الدراسة التمهيدية فعليه أن يدونها ويواصل دراسته فى صبر فقد يجد لأسئلته اجابات فى موضع آخر من القرآن فان وجدها فعليه ان يدونها امام الاسئلة وان لم يجد رد سؤال من اسئلته فى القراءة الاولى فعليه ان يقرأ المرة الثانية بصبر وتأن . وفى ضوء تجربتى الشخصية استطيع ان اقول ان القراءة الثانية نادرا ما يبقى معها سؤال لا جواب له .

تلك كانت ارشادات عامة لدراسة القرآن وعلى المرء ان يبدأ دراسة القرآن دراسة تفصيلية بأن يكتب مذكرات وملاحظات حول تصورات تعاليمه المختلفة فمثلا ينبغى عليه ان يدون نمط الحياة الذى ينادى به القرآن ويقره وكذلك النمط الذى يرفضه ويكتب جنبا الى جنب صفات الانسان الصالح نفيس المعدن ومواصفات الانسان الطالح غث الأصل كى يتضح كلا النمطين امام ذهنه فى آن واحد . كذلك عليه أن يسجل اسباب نجاح الانسان ونجاته وفلاحه الى جانب مسببات فشله وبواره وترديه .

كما ينبغى عليه أن يدون – تحت عناوين مختلفة – كل تعاليم القرآن فى شأن العقيدة والاخلاق والحقوق والوجبات والحضارة والثقافة والاقتصاد والسياسة والقانون والنظام الاجتماعى والسلام والحرب وسائر المشكلات الاخرى . هذه الملاحظات التي يدونها الدارس لابد وأن تتحد أجزاؤها فيما بينها وتندمج لتكون خطة كاملة لكل جانب من جوانب تعاليم القرآن ثم تتشابك وتنسجم مع بعضها لتكون نموذجا كاملا لنظام الحياة القرآنى .

وإذا شاء الانسان ان يعرف حل القرآن لمشكلة من المشاكل فعليه أن يدرس المادة التى كتبت عنها قديما وحديثا ويحدد القضايا والنقاط الاساسية فى المشكلة ويقف مما كتب من أبحاث حول المشكلة على نهاية ما وصل اليه التفكير البشرى فى هذه المشكلة والقضايا التى لم يصل الانسان الى حل فيها ثم بعد ذلك يتحول الى القرآن ليدرسه بقصد أيجاد ردود على هذه القضايا .

ومما جربته شخصيا أن الانسان اذا درس القرآن بقصد ايجاد حل لمشكلة من المشاكل على النحو الذى ذكرته فانه يلقى جوابا لها حتى فى تلك الآيات التى يحذفها ويتخطاها دون أن يخطر بباله أبدا أن اجابة ما يبحث عنه كامنة بين ألفاظها ومعانيها .

ومهما توفر من وسائل لدراسة القرآن فالمرء لا يستطيع أن يسبر غوره ويصل الى لب روحه ما لم يبدأ فى تطبيق رسالته تطبيقا عمليا لأن القرآن ليس كتابا يضم أفكارا نظرية ونظريات مجردة يستطيع المرء أن يقرأه فى سريره أو مسترخيا على أريكته ولا هو بكتاب يحوى الغازا وأحجات لاهوتية يمكن حلها فى الأديرة ومعاهد العلم وانما هو كتاب مبعوث لدعوة الناس لأن يبدأوا حركة ايمانية ثورية وليقود أتباعه ويوجه نشاطاتهم الى انجاز رسالته ، ومن ثم فعلى الانسان ان أراد أن يفهم معناه الحقيقى أن ينزل الى ميدان معركة الحياة . وهذا هو السبب الذى حتم

على شخص هادىء دمث يعيش فى عزلة مثل محمد عليه الصلاة والسلام أن يخرج من قواقع عزلته ويشعل الحركة الاسلامية ويقاتل ضد العالم العاتى عن أمر ربه .

فالقرآن هو الذى حثه على أن يعلنها حربا ضروسا على كل أنواع الزيف والبطلان ويصارع زعماء الكفر وأئمته دون مبالاة بالنتائج . والقرآن هو الذى جذب الأرواح الطيبة الخيرة من كل دار ونجع وجمعهم تحت لواء زعيمهم ليقاتلوا قادة المجتمع القديم الذين أعدوا أنفسهم فى عصابات لمواجهتهم ومعارضتهم . واستمر القرآن فى قيادة الحركة الاسلامية فى كافة مراحل النضال المرير بين الحق والباطل والحقيقة والضلال على مدى ثلاثة وعشرين عاما حتى كتب لها النجاح فى اقامة طريق الحياة الاسلامى فى كماله وتمامه .

هكذا يتضح أن الانسان ليس فى مقدوره أن يدرك بسهولة الحقائق المتضمنة فى القرآن بمجرد تلاوة ألفاظه . ولكى يفهم المرء هذا الكتاب لا بد وأن يشارك بنصيب فعال فى الصراع بين الايمان والكفر بين الاسلام وغير الاسلام بين الحق والباطل فالانسان يستطيع أن يفهم القرآن فقط متى تبنى رسالته ودعا العالم لقبولها وتحرك فى كل شىء وفق هدايته هنا سيعايش المرء كل ما حدث أثناء نزوله ويفهمه وسوف يواجه نفس الظروف التى مر بها المسلمون الأوائل فى مكة والطائف والحبشة ويشق نفس النيران التى كان لابد من دخولها فى بدر وأحد وحنين وتبوك وغيرها ويقابل « أبا جهلين » كثيرين « وأبا لهبين » عديدين ويرى المنافقين ويلقى المرائين واليهود وكل نوع من البشر ذكره القرآن .

حقا انه اختبار للنوع البشرى جد طريف جدير بأن يخوضه الانسان ويجربه . وأثناء مرور الانسان بأى من أدوار هذه التجربة سيجد آيات وسورا فى القرآن تفصح بذاتها أنها أوحيت فى المرحلة الفلانية وأنها جاءت بالتعليمات كذا وكذا لهداية الحركة . وبهذا يكشف القرآن عن روحه حتى ولو كان الانسان عاجزا عن فهم كل ما تعنيه مفرداته أو غير قادر على أن يفك معضلات بيانه وقواعده اللغوية .

والأمر نفسه ينطبق على تعاليم القرآن ومبادئه فى الاخلاق والاقتصاد والثقافة وعلى قوانينه التى تخص مختلف أنماط الحياة الانسانية فهذه الأمور كلها هيهات أن تفهم ما لم توضع فى قالب عملى وبهذا يتضح أن الأفراد والجماعات الذين ينزعون القرآن من وسط الحياة ويقذفون به بعيدا لا يستطيعون فهم معانيه والتشبع بروحه عن طريق استخدامه الشفوى المجرد .

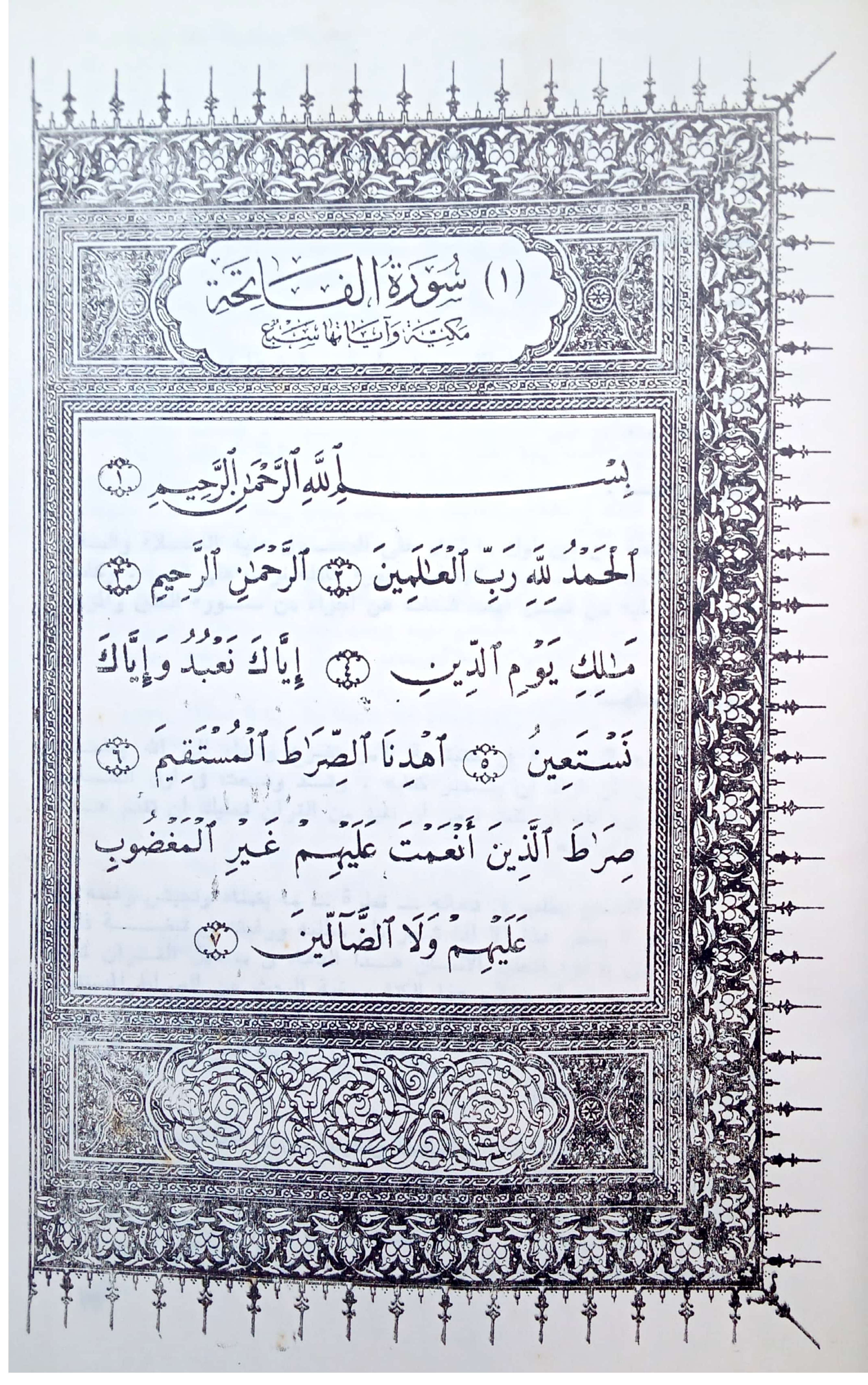
واختتم قولى بأنى لم أشأ أن أناقش فى هذه المقدمة كافة المشكلات التى قد تظهر أثناء دراسة القرآن ولذا تركت — عن قصد — الاسئلة التى قد تعرض أثناء بعض الآيات والسور كى أتناولها فى مواضعها على

حين تناولت المسائل التى تتعلق بدراسة القرآن ككل دراسة عامة فعلى القارىء اذن أن يؤجل حكمه النهائى على هذه الامور حتى يفرغ من قراءة « تفهيم القرآن » فان وجد بعد ذلك بعضا من الاسئلة بلا جواب أو وجد جوابها غير مستوفى الجوانب فليخبرنى كى أضعها فى الاعتبار مستقبلا .

وما توفيقى الا بالله .

أبو الاعلى المودودى

* * *



(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مكية وآياتها سبع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

الفاتحـــــــــة

تمهيـــــــد :

أســــــمها :

سميت الفاتحة بهذا الاسم على أساس غرضها ففاتحة الشىء أوله وفاتحة الكتاب تعنى بدايتـــه وبألفاظ أخر الفاتحـــة ضرب من التصدير والاستهلال .

فترة نزولهـــا :

الفاتحة من بين أول ما أنزل على الرســـول عليه الصـــلاة والسلام وتخبرنا الأحاديث الصحيحة أنها أول ســـورة كاملة نزلت على النبى . وكانت قد نزلت عليه من قبـــل آيات شتات هى أجزاء من ســـورة العلق والمزمل والمدثر .

موضوع بحثهـــا :

هـــذه الســـورة فى حقيقـــة الأمر تضرع ودعاء الى الله يعلمـــه رب العالمين لمن أراد أن يتـــدبر كتابه . وقـــد وضعت فى أول الكتاب لتقول للقارىء أنك ان كنت تبغى أن تفيد من القرآن فعليك أن تقدم هـــذا الدعاء بين يدى الله .

ان الانسان يطلب فى دعائه ــ فطرة ــ ما يتمناه وتجيش رغبته فى فؤاده وهو لا يفعل هذا الا اذا شعر بأن مطلبه ورغبته فى قبضـــة ذلك الوجود الذى يدعوه فتعليم الانسان هـــذا الدعاء فى مستهل القـــرآن كأنه ارشاد وتوجيه له أن يطالع هذا الكتاب بغية البحث عن الصراط المستقيم ويدرسه بعقلية الباحث عن الحقيقة وأن يعلم أن اله العالمين وحده هـــو مصدر كل علم ونبع كل معرفة . ولذا فهو يبدأ قراءته للقرآن بدعاء الى الله أن يهديه سواء السبيل .

واذا نظرنا الى موضوع الفاتحة وفكرتها بان لنا أنها ليست من القرآن بمنزلة المقدمة من الكتاب وانما همـــا دعاء الى الله واســـتجابة منـــه ، فالفاتحة ضراعة من العبد والقرآن استجابة من المولى لضراعة العبد ورد عليه . العبد يتوسل الى الله أن يهديه والرب يضع أمام عبده القرآن كله استجابة لدعائه وكأنه تعالى يقول له : « هذه هى الهداية التى سألتنى » .

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلم الثقافة الاسلامية الانسان أن يستفتح كل شيء باسم الله ، ولو تم هذا بوعي وادراك واخلاص فسوف يفضي الى ثلاث نتائج طيبة : الاولى أنه سيحفظه من كل شر لأن مجرد ذكر اسم الله سوف يدفعه الى أن يفكر وقت شروعه في عمل السوء فيما اذا كان محقا في اقران اسمه تعالى بهذا العمل أم لا . الثانية أن بدء الأعمال الصحيحة باسم الله سوف يخلق في ذهن الانسان الموقف العقلي الصحيح ويوجهه الى الوجهة القويمة منذ البداية . الثالثة أنه سيلقى عون الله وبركته ويبقى في صون من نزغات الشيطان ومغرياته لأن الله سبحانه يتوجه الى الانسان أن يمم الانسان وجهه شطره .

الحمد لله

قلنا في مقدمة الفاتحة أنها ضراعة . ولهذا فهي تستهل بحمد الله ــ وهو من اليه تتوجه الضراعة ــ كي تعلمنا الاسلوب الامثل للتوسل والدعاء . فعلينا ألا نقدم طلبنا مبتورا في فظاعة وجفاف وغلظة دون مقدمة مناسبة وانما أفضل طريقة للدعاء أن نعترف بمنن وفضائل المخاطب ذي المقام العلي . وهذا هو سبب استفتاح دعائنا بحمد الله لانه تعالى قمة الكمال في الفضل والفضائل وهو المن علينا والمحسن الينا فنحن نحمد الله ونثني عليه لنؤكد اعترافنا بنعمه علينا وفضله واقرارنا له بالجميل على ما وهبنا من عطاياه وأنعمه التي لا يحصيها عد ولا يبلغها مد .

وتجدر الاشارة الى أن الحمد لله وحده دون سواه وهو قصر وقيد هام لأنه يجتث عبادة أي من مخلوقاته تعالى . فلا أحد جدير بالحمد والعبادة مما خلقت قدرته من الانس والملائكة والجن والانبياء والنجوم والكواكب ، ولا حمد ولا عبادة لآلهة مزعومة أو أصنام وأوثان ، كما أن أحدا من خلقه لا يرث عن أسلافه حميد الصفات . ولو وجدت في أمرىء شميلة طيبة فهي من الله ، وعلى هذا فخالق هذه الصفات والشمائل وحده هو الجدير بالتقوى والعبادة والعرفان بالجميل وليس أحد من خلقه .

رب العالمين

كلمة « رب » في اللغة العربية تطلق على السيد والمالك والرئيس والكفيل والمربي والحارس والرقيب والحاكم والعاهل والمدير والمنشىء والمؤسس والله هو وحده رب العالمين بكل هذه المعاني جملة وتفصيلا .

الرحمن الرحيم

من خواص الانسان أنه اذا عظم في نظره شيء بينه في صيغ المبالغة ثم اذا به يشعر أنه لم يوفه حقه وقدره فيورد لفظ مبالغة آخر ليكتمل النقص الذي يراه فيما أورده من مبالغة . وعلى هذا فرغم أن الكلمة العربية

« رحمان » صيغة مبالغة وأنها تعبر عن صفات الاحسان والرحمة وتظهرها فى أرقى وأعلى مراتبها الا أنهـا تعجز عن التعبير عن كمـال صفات الله غير المحدود ولذا أضيفت كلمـة أخرى من نفس الأصـل « رحيم » لسد هذا النقص .

مالك يوم الدين

بعد القول بأن الله رحمن رحيم أضيف اليها على الفور أنه مالك يوم الدين كى لا يغتر أحد من الناس فى رحمته وشفقته وينسى أنه تعالى سوف يأتى ببنى آدم زمراً من أولهم الى آخرهم ويحاسب كلا منهم على ما اقترفت يداه . فعلى المسلم اذن أن يضع فى ذهنه ان الله ليس رحيما فحسب لكنه عادل أيضا وذو سلطان مطلق فى أن يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء لأن قوته اللا محدودة تعلو كل شىء ومن هنا ينبغى أن نؤمن تمام الايمان بأنه تعالى قادر باطلاق على أن يجعل نهايتنا سـعيدة أو تعيسة وأن يحسن ختامنا أو يسيئه .

اياك نعبـــد

العبادة فى اللغة العربية تطلق على معان ثلاثة :

١ ـ العبـادة .

٢ ـ الطاعة والتسليم .

٣ ـ الخضوع والعبودية .

وهى مستخدمة هنا فى معانيها الثلاثة مجتمعـة بمعنى أننـا يارب عابدوك ورعاياك وعبيدك وأننـا نعبدك ونطيعك ونخضع لك وحدك دون سواك ولا نخص أحدا الاك بعبادتنا فى معانيها الثلاثة .

واياك نستعين

يعنى أننا ننشد عونك ونطلب مساعدتك لأننا نعرف أنك رب العالم كله وفى يديك مفاتح كل شىء وقوى كل أمر وأنك سيد كل شىء ولهذا نتوجه اليك ونسألك أن تساعدنا على قضاء حاجاتنا وتنفيذ متطلباتنا .

اهدنا الصراط المستقيم

يعنى أرنا الطريق الذى يسوقنا الى الصواب والحق فى كل خطوة نخطوها فى حياتنا واحفظنا من الزلل وسوء العاقبة وخذ بيدنا وأت بنـا سعداء موفقين يوم يقوم الحساب .

هذا هو ما يطلبه العبد من الله عند بداية تدبره للقرآن فيسأله أن يهديه فى كل خطوة فى حياته وأن يحفظه من الانزلاق فى متاهات الظنون واللايقين الذى يصدر عن نقص المعرفة الحقيقية وقلتها ، ويطلب الى الله أن يريه الطريق المستقيم من بين الطرق الفرعية المتعرجة العديدة فى الحياة الدنيا .

صراط الذين أنعمت عليهم

يعنى أن الصراط المستقيم الذى نضرع اليك لترشدنا اليه وترينا اياه هو الطريق الذى دلف فيه من أنعمت عليهم وساروا وهو الطريق الذى يأتى علينا ببركاتك ويجلب الينا أنعمك .

غير المغضوب عليهم ولا الضالين

هذه العبارة تبين أن من أسبغت عليهم أنعمك ومننك ليسوا أولئك الذين ينحرفون عن صراطك المستقيم ويجلبون على أنفسهم نيران غضبك ولعنتك رغم أنهمقد يكونون فى نعيم دنيوى واسع عرضى ، وانما الذين أنعمت عليهم حقا هم أولئك الذين يلقون عطاياك وفضولك لأنهم يحيون معيشة سليمة لا اعوجاج فيها ولا انحراف .

كذلك يتضح من هذا أن المقصود بالنعم هى المكافآت الحقيقية والدائمة التى تحصل بالعيش فى مسلك صحيح وباستجلاب رضا الله واستبعاد غضبه وسخطه وليست المتع البراقة الموقوتة فى الحياة الدنيا التى كان يتمتع بها الطغاة وعبدة الثراء وخدام المال ولا يزال يستمتع بها اليوم كل مرتكبى الشرور ومقترفى المآثم والذنوب الذين تنكبوا الصراط السوى على اختلاف أنواعهم وفئاتهم وأجناسهم .

* * *

تفسير
سورة البقرة

مقدمة

اسمها :

سميت بالبقرة على أساس قصة البقرة التى وردت فيها (آيات ٦٧ — ٧٣) الا أن هذا الاسم لم يطلق كعنوان على موضوع السورة . ولهذا من الخطأ أن نترجم اسم « البقرة » الى اللغات الأخرى والعكس بالعكس . ونحن حين نترجم « البقرة » الى لغات أخرى فان ذلك يحوى ضمنا أن هذه السورة تعالج « البقرة » فى ذاتها كموضوع بحث . وقد سمى كثير من سور القرآن بما يشابه هذا لأن اللغة العربية رغم ثرائها ليس فيها من الكلمات ما يتسع للتعبير عن مدى الموضوع الواسع العريض الذى يناقش فى هذه السور . والواقع أن كل لغات الانسانية تعانى نفس الضيق فى دلالة كلماتها .

السياق :

على الرغم من أن هذه السورة نزلت فى المدينة الا أنها تلى سورة مكية هى سورة الفاتحة التى انتهت بالدعاء الى الله أن « اهدنا الصراط المستقيم » ولذا تبدأ سورة البقرة باستجابة هذا الدعاء معلنة « ...... ذلك الكتاب ...... هدى » .

والجزء الأكبر من سورة البقرة نزل خلال العامين الاولين من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فى يثرب أما الجزء الاصغر والذى نزل فى فترة أخرى فقد وضع فى هذه السورة لأن ما يحويه يتصل تماما بما قد عولج فيها . وعلى سبيل المثال : الآيات التى تحرم الربا نزلت فى الفترة المتأخرة من حياة الرسول لكنها أدرجت فى سياق هذه السورة . ولنفس السبب أيضا ضمت هذه السورة الآيات الأخيرة (٢٨٤ — ٢٨٦) رغم نزولها على النبى فى مكة قبل الهجرة .

الخلفية التاريخية :

لكى نفهم معانى هذه السورة علينا أن نقف — أولا — على خلفيتها التاريخية :

١ — كان القرآن الكريم فى مكة يخاطب مشركى قريش بشـــكل عام ، وهم من كانوا يجهلون الاسلام تماما ، أما فى المدينة فقد اهتـــم القرآن — الى جانب هذا — باليهـــود الذين لم يكونوا غـــرباء عن عقيـــدة التوحيد والنبوة والوحى والآخرة والمـــلائكة وكانوا يتظاهرون بالايمـــان بالقانون الذى أنزله الله على نبيهم موسى عليه السلام وكان طريقهم — من حيث المبدأ — نفس طريق محمد عليه الصلاة والسلام لكنهم حادوا عنـــه على كر قـــرون الانحطاط وابتـــدعوا لهم عقـــائد ومـــذاهب وعادات غير اسلامية لا سند لها ولا تصديق فى التوراة على الاطلاق وليس هذا فحسب بل انهم عبثـــوا بالتوراة فأدخلوا تفسيراتهم وتأويلهم الخاصة على نصها الاصلى وامتدت أيديهم الى كلام الله بالتحريف والوضع وطرحوا عنه روح الدين الحقيقى وتشبثوا — الى اليوم — بهيكل شكلى من الطقوس الفارغة التى لا حياة فيها فتبع ذلك أن انحطت معتقداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وغاصوا فى أعماق الاسفاف والهبوط .

ومما يؤسف له انهم لم يكتفوا بمجرد رضاهم بوضعهم هذا بـــل عشقوا التمسك به والثبات عليه . أضف الى هذا أن روحهم وعقولهم خلت من أى استعداد أو نية لادنى نوع من الاصلاح ، فأضحوا لذلك الد أعداء من جاءوا يعلمونهم الطريق الصحيح . فماكا ن منهم الا أن كدحوا فى ســـبيل احباط كل محاولة أو جهد من هذا النوع .

ورغم أنهم — فى الاصل — مسلمين الا أنهم انحرفوا عن الاســـلام الحقيقى وأحدثوا فيه تغييرات وابتدعوا ما راق لهم ووقعوا فرائس الجدل فى أمور تافهة صغيرة ، وغرقوا فى لجج الطائفية والعنصرية ، ونسوا الله ونبذوه ، وراحوا يعبدون المال والثراء . وبلغ الامر منهم مبلغا فخلعـــوا عن ذواتهم اسمهم الاصلى « المسلمين » وتسموا « باليهود » وجعلوا الدين حكرا لبنى اسرائيل من دون البشر .

هكذا كان حالهم الدينى حين شرف الرسول يثرب بقدومه اليها ودعا اليهود الى العقيدة الصحيحة والى هذا يرجع السبب فى أن أكثر من ثلث هذه السورة موجه الى بنى اسرائيل ، حيث سددت آياته النقـــد الى تاريخهم وانحطاطهم الخلقى وضـــلالهم وانحـــرافهم الدينى كمـــا عرضت الاخلاقيات الرفيعة العالية ومبادىء الدين النقى العميقة الجوهرية كى توضح فى جلاء كيف يسقط قوم نبى من أنبياء الله حين ينحرفون عن نهجه ولكى تفرق — بخطوط بينة واضحة — بين التقوى الصادقة الحقيقية وبين التمسك بالشكليات والرسوم وكذلك بين أسس الدين الحقيقيـــة وبين ما ليس كذلك .

٢ــ كان الاسلام فى مكة يولى اهتمامه وعنايته لنشر مبادئه الاساسية وتدريب اتباعه وتشكيلهم خلقيا اما بعد هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينــة ــ حيث نزح المسلمون من كل بقاع الجزيرة ليتخذوا لهم مقرا وحيث انشئت بمعاضدة الانصار دويلة اسلامية صغيرة ــ كان ولابد ــ بالطبع ــ من التفات القرآن الى المشاكل الاجتمــاعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والقانونية الى جوار ما سبق وهذا يفسر الفرق بين موضوعات السور المكية وموضوعات السور المدنية وعلى هذا فان ما يقارب نصف هذه السورة يعالج المبادىء والقواعد الاساسية الضرورية لتكامل وتضامن ودمج جماعة بشرية كما يتناول ايضا الاسس اللازمة لحل مشاكلها .

٣ ــ دخل الصراع بين الاسلام واللا اسلام بعد الهجرة الى المدينة دورا جديدا ، وقد كان على المؤمنين ــ الذين كانوا يدعون للاسلام بين قبائلهم فى الدور المكى ــ ان يجابهوا من عارضوه مخاطرين بأرواحهم فرادى لكن الحال قد تبدل فى المدينة حيث اتى المسلمو نمن كل حى فى الجزيرة ليتخذوا لهم فيها مستقرا دائما واسسوا دولة مستقلة داخل حدود المدينة عاشوا فيها كأعضاء فى جماعة واحدة . وهنا تحول النضال الى نضال من اجل الحفاظ على بقاء الجماعة ذاتها ككل لان كافة قبائل الجزيرة غير المسلمة وحدت امرها للقضاء على هذه الجماعة دفعة واحــدة . ومن ثم نزلت فى هذه السورة ارشادات وتعاليم لا يعتمد عليها نجاح الجماعة فحسب بل بقاؤها ودوامها ... هذه التعاليم هى : ــ

(أ) ان على الجماعة ان تعمل بأقصى طاقة وحماس لنشر افــكارها واستقطاب اكبر عدد ممكن الى صفوفها .

(ب) كما عليها ان تكشف معارضيها وتفضحهم بحيث تجعل كل من به مسكة من عقل على يقين من انهم على خطأ جسيم فاحش .

(جـ) على الجماعة ان تغرس فى اعضائها (وكانت غالبيتهم فقراء بلا زاد او متاع او مسكن تكتنفهم الاخطار والمهالك من كل ناحية) الشجاعة والجلد والصبر والعزم الذى لا غنى عنه ابدا فى معركة وجودهم وبقائهم فى مثل تلك الظروف التى كانوا يناضلون فيها . وان تعدهم وتهيئهم لمواجهة هذه الظروف فى اقدام وجرأة .

(د) عليها ان تجعلهم مستعدين فى اية لحظة لمواجهة اى خطر مسلح قد يأتى من هنا او هناك ليسحق فكرهم وصده بكل قواهم دون اعتبار لقوة اعدائهم العددية الضخمة ومواردهم المادية الهائلة .

(هـ) على الجماعة ان تخلق فى لبناتها الطــاقة والشجــاعة اللازمة لاستئصال طرق الباطل واقامة الطريق الاسلامى فى مكانها .

من اجل هذا انزل الله فى هذه السورة مثل هذه التعليمات كى تسهم فى تحقيق تلك الاهداف آنفة الذكر .

٤ — فى هذه الفترة بدأ صنف جديد من المسلمين يرفع رأسه هم المنافقون . ورغم ان بعضا من علامات النفاق قد لوحظ خلال الايام الاواخر فى مكة الا ان المنافقين لبسوا ثوبا مغايرا فى المدينة . ففى مكة كان هناك بعض المسلمين الذين اعترفوا بالاسلام لكنهم ما كانوا مستعدين لتحمل تبعات اعترافهم هذا والتضحية بمصالحهم وعلائقهم الدنيوية وتحمل المصائب والرزايا التى كان لابد من وقوعها بعد الاعتراف بهذه العقيدة . اما فى المدينة فقد ظهرت انواع من المنافقين عديدة فكان ثمة من دخلوا فى الاسلام كى ينالوا منه من داخله وآخرون حاصرهم المسلمون من كل جانب فأسلموا ليحافظوا على مصالحهم الدنيوية على حين أمسكوا بالعصاة من نصفها على حد تعبير المثل حتى اذا غلب المسلمون بقيت مصالحهم فى امان . كذلك كان لا يزال هناك من لم يؤمنوا بالحق ايمانا تاما ولكنهم دخلوا الاسلام فى زمرة قبائلهم ، كما كان هنالك من اقتنعوا بحقيقة الاسلام عقليا ولكن لم تكن لديهم الشجاعة الاخلاقية الكافية لان يتركوا سابق تقاليدهم وخرافاتهم ومطامحهم الشخصية ويرتفعوا الى مستوى الاخلاق الاسلامية ويضحوا فى سبيلها بالنفس والنفيس .

وحين نزلت سورة البقرة كانت كل تلك الانماط قد شرعت فى الظهور على مسرح الاحداث لذا اشار تعالى بايجاز فى هذه السورة الى ملامح شخصياتهم ثم لما اكتمل ظهورهم وبرزت سماتهم الشخصية السيئة واعمالهم المؤذية الاليمة ارسل الله الى الجماعة ارشادات مفصلة بشأنهم .

* * *

موجز السورة

بحثها الرئيسى : الهداية .

هذه السورة دعوة لقبول الهداية الالهية . وكل القصص والحوادث التى وردت بها تدور حول هذه الفكرة المركزية . وفيها ذكر اليهود على وجه الخصوص بحوادث تاريخية متعددة مستوحاة من سيرتهم الخاصة كى يذكرهم الله وينصحهم بأن صلاحهم وخيرهم يكمن فى قبول هذه الهداية المنزلة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذا فعليهم أن يكونوا اول من يؤمن بها لانها ـ فى اصلها واساسها ـ هى نفس الهداية التى انزلت على نبيهم موسى عليه السلام .

موضوعاتها :

من آية ١ الى آية ٢٠

هذه الآيات التمهيدية تعلن ان القرآن هو كتاب الهداية ، وتوضح بنود الايمان ومبادئه الاساسية وهى الايمان بالله والنبوة واليوم الآخر ، وتصنف البشرية ـ على اساس قبول او رفض ما اعلنته ـ الى ثلاث جماعات رئيسية : المؤمنين ـ الكافرين ـ المنافقين .

من ٢١ الى ٢٩

يدعو الله البشرية فى هذه الآيات لقبول هدايته طوعا لا قسرا ، والخضوع له وحده فهو رب العالم واله وخالقه كما يدعوها للايمان بالقرآن هداية منه وبالبعث والحياة بعد الموت .

من ٣٠ الى ٣٩

قصة تعيين آدم خليفة لله فى ارضه وقصة حياته فى الجنة وقصة سقوطه ضحية مغريات الشيطان ثم توبته وقبولها . كل هذا يرويه الله ليرى البشرية (نسل آدم) ان اصلح واقوم شئ لهم ان يؤمنوا بهدايته ويتبعوها . وكل ما ورد عن آدم يبين لنا ايضا ان هداية الاسلام هى نفسها التى اعطاها الله لآدم وانها دين البشرية الاصلى .

من ٤٠ الى ١٢٠

فى هذه الآيات امتدت الدعوة لقبول الهداية الى بنى اسرائيل خاصة

وانتقدت هذه الآيات موقفهم ماضيه وحاضره لتوضح ان انحرافهم عن الهداية كان سبب انحطاطهم وتنزلهم .

من ١٢١ الى ١٤١

امر اليهود فى هذا الجزء باتباع من جاء بنفس الهداية التى نزلت على نبيهم موسى عليه السلام وهو محمد صلى الله عليه وسلم سليل ابراهيم الخليل الذى يبجلونه باعتبارهم خلفاءه ويتظاهرون باتباعه كنبى من عند الله . وقد ذكرت فى هذا الجزء ايضا قصة بناء الكعبة لانها ستصبح فيما بعد قبلة الامة الاسلامية .

من ١٤٢ الى ١٥٢

هنا اعلن تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة كرمز يدل على انتقال الزعامة من بنى اسرائيل الى الامة المسلمة التى امرت مسبقا بالوقوف فى وجه تلك الانتهاكات التى استهدفت الهداية الالهية والتى ادت الى عزل اليهود عن زعامة الدنيا وامامتها .

من ١٥٣ الى ٢٥١

فى هذا الجزء فرضت الاجراءات العملية لتمكين المسلمين من النهوض بمسئوليات الزعامة التى اسندت اليهم لينشروا هداية الله . ففرضت الصلاة والصيام والزكاة والحج لتدريب الأمة تدريبا أخلاقيا . وصدرت الأوامر الى المسلمين أن يطيعوا السلطة القائمة عليهم وأن يكونوا عادلين مقسطين وان يوفوا بالعهد ويرقبوا المعاهدات والمواثيق ويحترموها وينفقوا أموالهم فى سبيل الله . وشرعت القوانين ووضعت القواعد واللوائح لتنشئتهم وتكوينهم وتماسكهم وتنظيم سلوك حياتهم يوما بيوم وحل مشاكل حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية . ومن جهة أخرى حرمت الخمر والميسر والربا وما اليه لحفظ الأمة وصيانتها من الانحلال والتفسخ .

من ٢٥٢ الى ٢٦٠

تعد هذه الآيات تمهيدا لتحريم الربا وفيها تم التأكيد على عدة تصورات حول الله والوحي والبعث والحساب وذلك لحفظ معنى الدينونة حيا فى القلوب والمشاعر . ولقد رويت قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام وقصة الرجل الذى اماته الله مائة عام ثم بعثه لتبين ان الله قوى بلا نهاية قادر بلا غاية على ان يحيى الموتى ويأتى بهم لتوفى كل نفس حسابها ومن ثم فعلى المؤمنين ان يدركوا هذه الحقيقة ويضعوها نصب اعينهم واذهانهم ويحجموا عن اكل الربا والتعامل به .

من ٢٦١ الى ٢٨٣

هنا استؤنف الموضوع الذى تناولته الآيات من ١٥٣ الى ٢٥١ وأمر

المؤمنون ان ينفقوا فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وحده ويقرضوه قرضا حسنا . وعلى النقيض من هذا حذروا آثام وشرور التعامل بالربا .

من ٢٨٤ الى ٢٨٦

هنا فى نهاية السورة لخصت مواد الايمان وبنوده الاساسية ، تماما كما ذكرت فى مستهلها ثم تنتهى السورة بالادعية والضراعات التى كانت الجماعة الاسلامية فى امس الحاجة اليها حين كانت تجابه فى سبيل تبليغ الهداية ونشرها ما لا يحتمله البشر من مصاعب وعائقات ومتاعب وشائكات .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾

هذه الحروف الهجائية التى نقرأها فى صدور بعض سور القرآن الكريم كانت شائعة الاستعمال فى الأدب العربى فى الحقبة التى نزل فيها القرآن وقد استخدمها الشعراء والكتاب على السواء وهناك نماذج لاستعمالها باقية من ادب العصر الجاهلى شعره ونثره .

ولان معناها كان مفهوما لدى كل من كانت تخاطبهم آنذاك لم يعترض عليها أحد قط أو حتى يستفهم عنها وعن استعمالها اذ ما كانت عندهم ألغازا وطلاسم يلزم حلها وتفسيرها . وحتى ألد اعداء القرآن الذين كانوا يتصيدون كل صغيرة وكبيرة لاثارة الشبهات وخلق المزاعم والافتراءات لم يتخذ احدهم هذه الحروف اساس مطاعن فيه او مآخذ عليه .

غير ان الناس حين تركوا استعمالها وهجروها على كر الزمان غدا عسيرا على شارحيها ان يحددوا معناها الحقيقى . ومع هذا فأى قارىء عادى لا يعرف معناها ، لا يعجز عن الوقوف على طريق الهداية المستقيم اذ ان التماس الهداية من القرآن لا يعتمد اعتمادا جوهريا على فهمها وتعقل معناها . لهذا فليس من الضرورى للقارىء العادى ان يشغل نفسه بالبحث فيها وفى تحقيقها .

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ

معناها البسيط المباشر : « لا شك ان هذا كتاب الله » . لكنها قد تعنى ايضا : « هذا هو الكتاب الذى لا شك فيه » . فهو لا يشابه الكتب العادية المصنفة عن ما وراء الطبيعة او الديانة والتى ترتكز على مجرد الحدس والتخمين ولا تخلو حتى أذهان مؤلفيها أنفسهم من الشك فيما أوردوه فيها من نظريات رغم اصرارهم وتأكيدهم على ثقتهم التامة فى

صدقها وصحتها ، وانما هو كتاب يعتمد على الحقيقة لأن مصنفه (الله) لا نهائى فى معرفته للحقيقة وعلمه بها ولهذا ليس هناك مجال للشك فى محتوياته ومادته فعلا .

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

الشرط الأساسى للاستفادة من القرآن أن يكون المرء « متقيا » يعنى ان يخشى الله ويميز بين الخير والشر وتكون لديه النية الصادقة فى ان يحيا حياة صحيحة قويمة .

ورغم انه ليس ثمة شك فى وجود شىء آخر سوى الهداية فى هذا الكتاب الا ان آياته توضح ان على الانسان ان يتناوله بفكر سليم ومعقولية صحيحة كى يفيد منه . واول ما ينبغى عليه فى هذا ان يكون تقيا يحب الحقيقة ويميز بين الحق والباطل ويسلك سبل الخير والفضيلة . وعلى عكس ذلك ليس فى القرآن هدى لمن لا يهمه الصواب والخطأ وما ينبغى ومالا ينبغى ان يكون ويتبع شهواته ويعيش عيش الانعام ويمضى فى رحلة الحياة دون هدف او غاية .

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ

هذا هو الشرط الثانى لنيل الهدى من القرآن . اعنى الايمان بالغيب . والغيب هو تلك الاشياء التى لا تدرك بالحواس ولا تدخل فى نطاق تجربة الانسان ومشاهدته . وبالطبع الله والملائكة والوحى والحياة بعد الموت والجنة والنار ونحوها كل هذه اشياء من المحال ان ترى او تذاق او تشم أو تقاس أو توزن وانما يؤمن بها المرء عن طريق الخبراء (الرسل) مثلما يفعل فى أمور وحالات كثيرة فى العالم الطبيعى . فمن يؤمن بالغيب يستطع الاستفادة من هدى القرآن دون غيره ومن لا يؤمن الا بما يدركه بالحس والتجربة فلا يمكن ان يلقى فى هذا الكتاب هدى ورشدا .

وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

الشرط الثالث ان يكون بالمرء رغبة واستعداد لتنفيذ تعاليم القرآن تنفيذا عمليا . ولان الصلاة هى اول دليل عملى دائم من دلائل الطاعة لذا فهى الدليل العملى ايضا على صدق الايمان ومحك اختبار معدنه وقوته فاذا ما اقر المرء باسلامه ثم سمع المؤذن يؤذن للصلاة بعد ذلك ولو

ببرهة وجيزة عليه ان يسعى ويلبى النداء وينضم الى جماعة المصلين لتأديتها لان ذلك ينبىء بصدقه او كذبه فى اقراره . اما ترك الصلاة فهو فى الحقيقة ترك للطاعة وهجران للخضوع والتسليم .

وعلينا ان نلتفت هنا الى ان « اقامة الصلاة » هى اصطلاح عام جامع . فليس المقصود به اداء الركعات لا غير وانما يعنى اقامة نظام الصلاة على المستوى الجماعى دائما . فلو أدى أهل بلد الصلاة فرادى فى حين خلت قريتهم من وجود نظام لتأديتها جماعة فلا يمكن ان يقال ان الصلاة قائمة فيها .

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

رابع شروط الاستفادة من القرآن ضرورة رضا المرء بتوزيع ماله وانفاقه له حسب تعاليم الكتاب فيؤدى حقوق الله والانسان على السواء . وهذا شرط اساسى لان البخيل الشحيح او عابد الدرهم والدينار الذى يؤثر المال على كل شىء لا تنتظر منه التضحية بماله من اجل الاسلام وفى سبيل قضيته

وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

الشرط الخامس هو الايمان بالتنزيل اما الذين لا يؤمنون بأن الهدى من الله فلا يستطيعون جنى اية فائدة من القرآن .

ان من اراد الحصول على هدى القرآن عليه ان يؤمن لا بالقرآن وحده بل بسائر الكتب التى نزلت على رسل الله على اختلاف عصورهم ومواطنهم كذلك لا يهتدى بالقرآن من يدعى الايمان بضرورة استمداد الهداية من الله لكنه لا يلتمسها فى التنزيلات وفى اسوة الرسل الكرام ويسمى زعمه هذا « نظرية الهية » . اضف الى هذا ان الهداية لا تقبل على من يؤمنون بما آمن به آباؤهم واجدادهم ويرفضون ما دونه من الكتب السماوية الاخرى .

ان هذا القرآن لا يهدى الا من يؤمن بأن هداية الله أمر ضرورى أساسى للحياة الصحيحة وانها ليست هداية منزلة من الله على الآدميين كل على حدة بل منزلة منه على رسله خاصة دون غيرهم وانها الهداية التى تؤخذ من الكتب التى انزلها هو عليهم .

وعلى هذا فمن ابتغى هدى الله فعليه الا يكون عبدا للاهواء والعنصرية والقومية وانما يلزم عليه أن يكون مستعدا لقبول الحقيقة راغبا فيها خاضعا لها ومذعنا ايا كانت وفى اى شكل يجدها عليه .

وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سادس الشروط الايمان بالآخرة والحياة بعد الممات بكل مشتملاته وضمنياته وهى كما يذكرها القرآن :

١ ــ الانسان مسئول ومحاسب امام الله عن كل اعماله وافعاله .

٢ ــ هذه الحياة الدنيا ليست خالدة ابدية وستنتهى ذات يوم .

٣ ــ الله وحده من يعلم وقت القيامة وايان يبعث البشر اجمعون ليوم الوقت المعلوم حيث توفى كل نفس ما كسبت خيرا او شرا .

٤ ــ من يقضى الله بصلاحه فالى جنات عدن يسير ومن يحكم بطلاحه ففى جهنم مدحور مخذول .

٥ ــ من اجل هذا فالفلاح او الخسران لا يقاس بسعة العيش او الديقوع والشظف فى الحياة الدنيا . وانما سيقرره الله بعد له يوم الفصل فمن ثبتت براءته امام المحكمة الالهية فهو على فلاح ورغد عن شمال ويمين ومن ثبت جرمه ففى خسران ابدى مبين حتى ولو كان اولهما يعيش فى دنياه طاويا خاويا بائسا تعسا وثانيهما يرفل فى ديباج وحرير ونعيم مقيم .

أما من لايؤمن بالآخرة وما تستلزمه وتقتضيه فليس فى مقدوره أن يحصل من القرآن على افادة او يستبين منه جادة . لان من به مجرد ريب قليل ــ وليس من يرفضه كلية ــ لا يقدر على سلوك الطريق الذى يأمر القرآن البشر بالسير فيه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

يعنى اولئك الذين يرفضون تنفيذ هذه الشروط الستة او ينكرونها جملة او يرفضون احدها .

سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

هذا لا يعنى ان رفضهم للحق سببه صدور قرارات تعسفية ضدهم من الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — دون ذنب اقترفوه فأعرضوا عن الحق لأن الله ختم على قلوبهم ولم يسمعوا للحق لان الله أصم آذانهم ولم يروا الحق لأن الله طمس على أعينهم . وانما الحقيقة ان طمس الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم كان حصاد رفضهم واعراضهم عن الحق فى اصرار وعناد وليس سببه وعلته .

ان القرآن يضع قانونا طبيعيا يقضى بأن لو اتخذ المرء فكرة غير موضوعية حول شيء ما وكون على اساسها مفاهيم حوله عمادها الهوى عمدا واصرارا . فهيهات ان يرى فيه فضيلة او محمدة او يستمع الى ثناء عليه او يفتح صدره لدراسته بغير تحيز وهوى . هذا قانون طبيعى وبما ان الله هو شارعه فان الختم على القلوب والآذان وطمس الأبصار ينسب اليه تعالى ويعزى .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾

يخدعون انفسهم بتوهمهم ان نفاقهم يحفظ مصالحهم ويحميها . ولقد اثبت القرآن فى وضوح ان مسلكهم هذا ضار فى الدنيا خاسر فى الآخر يقينا . فقد يحالف المنافق حظ من النجاح فى خداع بعض الناس حينا لكنه لا يستطيع ان يطلى خداعه على كافة البشر دوما . وحين يفتضح امره يفقد كل شرفه وحيائه دفعة واحدة الى الابد . هذا فى الدنيا أما الآخرة فلا ينفع لها مجرد نطق الشفاة بل الوزن ثمة للاعمال .

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾

يزيد الله مرض النفاق المستشرى فى قلوبهم لسوء طريقهم ومسلكهم فتراهم اذا بدا نفاقهم ناجحا الى حين يؤمنون به ويقتنعون بقوته وتأثيره فيما رسونه دائما وباصرار اكثر من ذى قبل .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا

كَمَا آمَنَ النَّاسُ

يعنى اذا كنتم قبلتم الاسلام واقررتم به فادخلوا فيه باخلاص ووفاء كما فعل الآخرون فصدقوا ما عاهدوا الله عليه وسلموا بمقتضياته ونتائجها .

قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

لقد اعتبروا من قبلوا الاسلام حقيقة وعرضوا انفسهم للمخاطر والمتاعب سفهاء حمقى . لانهم استعدوا على انفسهم كل بلدهم واهلها فقط من أجل خاطر الحق والصدق . أما الحكمة والاتزان — عندهم — فهى ألا يشغلوا بالهم بالحق والباطل والصواب والخطأ وحسبهم الاهتمام بمصالحهم ومنافعهم الذاتية الدنيوية .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾

شياطين جمع شيطان وهو يعنى فى اللغة العربية الشخص العاصى المتمرد المتغطرس الشرير وكذلك واحد الجان الاشرار . واللفظ يطلق على الجن والانس على السواء . ورغم أنه استخدم فى القرآن بوجه عام للدلالة على شياطين الجن الا ان معناه ينطبق فى بعض مواضعه على شياطين الانس . ويمكننا ان نحدد بسهولة معناه المقصود من خلال السياق . والمراد منه فى هذه الآية رؤساء العرب الذين كانوا اول من عارض الاسلام وقاومه وناصبه العداء .

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

هذا المثل يعنى انه حين نشر محمد عليه الصلاة والسلام نور الحقيقة الذى يفرق بين الحق والباطل والفضيلة والرذيلة بدأ من اعملوا عقولهم واذهانهم يفرقون بين هذه الاشياء ويميزونها اما المنافقون الذين اعمتهم المصالح الشخصية فلم يستطيعوا ابصار السبيل القويم حتى بمساعدة الضوء وعونه .

و ((**ذهب الله بنورهم**)) لا تعنى ان مسئولية عدم ابصارهم للحقيقة تقع على الله ولكنها تشير الى القانون الطبيعى الذى سلف تبيانه . فهم حين اختاروا بأنفسهم أن يسيروا فى الظلمات تركهم الله يتيهون ويضلون .

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

انهم صم عن سماع الحق بكم عن النطق به عمى عن رؤيته .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

يخدعون أنفسهم حينا قليلا بأن يضعوا أصابعهم فى آذانهم ويتوهموا أنهم قد فروا من الدمار هاربين لكنهم فى الحقيقة لا يستطيعون انقاذ أنفسهم لأن الله تعالى — بكل قواه — محيط بهم من كل جانب .

يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ

وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ

يصور المثل الأول المنافقين الذين لم يؤمنوا بالاسلام حقا ويقينا ولم يخالط الاسلام شغاف قلوبهم . وانما أسلموا حفاظا على مصالحهم وبدافع من ((نفعيتهم)) و ((انتهازيتهم)) . أما هذا المثل الثانى فيصف أولئك المنافقين الذين كانوا مرضى بالشك والريبة وقلة الايمان . ورغم أنهم ماكانوا كفارا تماما فقد أدوا مقتضيات الاسلام الى الحد الذى لا يسبب لهم رهقا ولا يحشرهم فى مشاكل واضطرابات .

والصيب (سيل الماء) فى هذا المثل يرمز الى الاسلام الذى جاء لسعادة الانسانية طرا . اما البرق والرعد والصواعق فتشير الى المصاعب

التى تهدد الناس بقرب وقوعها وكذا الأخطار والعوائق التى خيضت بسبب ما أبداه منكرو الاسلام ومعارضوه من مقاومة صلبة . فلما هدأت الأحوال قليلا راح هؤلاء المنافقون يتحركون صوب الاســـلام حتى اذا ما شرعت سحب المخاطر فى الظهور أو حــين اقتضى الاســلام منهم ما يتعارض مع مصالحهم وأهوائهم الشخصية ومعتقداتهم الخرافية البالية وقفوا مــرة أخرى تتخطفهم الحيرة من كل اتجاه .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وفى مقدوره تعالى ــ اذا أراد ــ أن يسلب هؤلاء المنافقين القــدرة على ابصار الحقيقة تماما كما سلبها المنافقين الذين جاء وصفهم فى المثــل الأول لكنه سبحانه لا يفعل ذلك لانه يريد أن يملى لهم ليروا الحق ويستمعوا له الى المدى الذى يريدون رؤيته وسماعه . لهذا فقد تركهم فى كامل قوتهم التى يستطيعون بها رؤية الحق وسماعه .

فى الآيات السابقة بين الله تعالى أن من يبغ الافادة من القرآن هــو وحده الذى يقدر على استمداد الهداية منه بفضل الله وعونه . ثم هوذا فى الآيات التالية يدعو البشرية كلها لتقبل الرسالة التى بعثها من أجلهــا ويخبرنا مسبقا بأن هناك نمطا معينا من البشر لا يستطيعون الاستفادة من هداه على الرغم من أنه يوسع دعوته ويمدها الى البشرية قاطبة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

معنى « لعلكم تتقون » أنكم ستكونون فى منجى من ارتكاب المآثــم والشرور فى الدنيا ومن العقاب والعذاب يوم القيامة .

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

يؤكد القرآن على هذا الامر تأكيدا كبيرا لانه يعتبــر اتخاذ الانسان شركاء مع الله وأندادا له هو أس بلاء العالم كله . فهــو لا يسمح بجعل صنم أو وثن أو أمة أو دولة أو نحو ذلك ندا لله فى العبادة والطاعة والخضوع والاخلاص ومن ثم يحض الناس على الخنوع والتسليم لله وحده ان كانوا يؤمنون بأن الله هو خالق وموجد كل شىء .

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

كثيرا ما تردد ذكر هذا التحدى فى القرآن سواء ما نزل منه فى مكة أم المدينة . وقد قصد منه اقناع معارضى الاسلام بأن القرآن الذى لا يضارع فى بيانه وموضوعه لا يمكن أن يكون من نتاج البشر بأى حال من الاحوال وعلى هذا فلا بد من كونه منزلا من الله سبحانه(١) .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

يعنى لن تكونوا وحدكم وقود جهنم وحصبها بل معكم أصنامكم وآلهتكم المزعومة لنريكم أنها كانت أحجارا لا تضر ولا تنفع .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا

سوف يدهش نزلاء الفردوس أن تكون لهم فاكهة كتلك التى كانوا يعرفونها أثناء مقامهم على الارض لكنها سوف تكون بالطبع أحلى طعما وأكثر لذة . فالمانجو والتفاح ونحوه مثلا لن يكون مختلفا فى شكله ولونه وسيعرفه أهل الجنة من فورهم لكنه سيكون ــ قطعا ــ أحلى مذاقا وطعما مما كان منه فى الدنيا .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ *

سيكون الزواج فى الفردوس على أساس التقى والطاعة . فلو

---

(١) انظر يونس ٣٨ ، ٣٩ ــ هود ١٣ ، ١٤ ــ الاسراء ٨٨ .

عاش رجل — مثلا — حياته الدنيا تقيا صالحا دون زوجته فسوف يفسخ زواجهما فى الآخرة . ويزوج بامرأة مؤمنة صالحة — غير زوجته — فسخ زواجها هى الاخرى وهكذا .

أما ان عاش الزوجان حياتهما الدنيا عفيفة طاهرة نقية فسوف تستمر حياتهما معا فى الجنة كما كانت فى الدنيا .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ

فى هذه الآية رد الله على اعتراض أثاره الرافضون مع عدم ذكر الاعتراض ذاته . ولقد ضربت الامثلة فى القرآن بالبعوض والعنكبوت والنمل والذباب وما اليه لتوضيح معناه ومقصوده فما كان من المخالفين الا أن قالوا كيف يكون مثل هذا الكلام الذى يستشهد بهذه الاشياء الحقيرة الضئيلة صادرا عن الله ؟ ولو كان من عند الله حقا لما جاء فيه هذا العبث .

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا

هؤلاء الذين لا يبغون فهم الحقيقة ولا يشغلون بالهم بالبحث عنها ملأت عقولهم ريبة فى هذه المسميات التى تحوى فى داخلها مجازات . ولم تمتد أبصارهم وبصائرهم الا الى حروفها وألفاظها الظاهرية فاستنتجوا منها نتائج خاطئة وانحرفوا عن بلوغ الحقيقة بسبب فسادهم الشخصى .

فهم حين ينظرون فيها لا يرون الا أنها مخلوقات صغيرة حقيرة ولا تصل بصائرهم الى الدروس والعظات التى من أجلها سيقت هذه التشبيهات .

أما الباحثون عن الحقيقة فيتفكرون فيما بداخلها من حكمة ظاهرة ويؤمنون بأن هذه الأشياء الصغيرة الدقيقة من صنع الله وخلقه سبحانه .

يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

فاسق تستخدم من الناحية اللغوية فى معنى الفاجر العاصى . وبذا تشير الى أولئك الذين يتعدون حدود الله التى أقرها وفرضها .

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ

الأوامر والقوانين واللوائح الصادرة من لدن الحاكم الى رعاياه وعماله يعبر عنها فى اللغة العربية « بالعهد » . وقد استعملت الكلمة هنا لتدل على نفس هذا المعنى . فعهد الله : أمره الدائم للبشر أن يذعنوا له ويفردوه بالطاعة والعبادة . و « ميثاقه » أى الموافقة عليه وتصديقه . يعود على العهد الذى وثقته وصدقته البشرية جمعاء حين خلق آدم عليه السلام . وهو عهد الخضوع لله وحده وطاعته وعبادته دون سواه .

(لمزيد من التفاصيل انظر الاعراف ١٧٢) .

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

هذه الآية المختصرة تتسع فى معناها لتظل العالم الاخلاقى بأكمله ابتداء مما بين شخصين اثنين من روابط وعلاقات والى الشئون الدولية الكبرى وعلاقاتها . وانتهاك وافساد العلاقات والروابط التى أمر الله الناس بانشائها والحفاظ عليها سليمة متينة يسبب — فى نظر هذه الآية — فسادا وفوضى .

وليس المقصود بقطع العلاقات هو قطع الروابط الانسانية بل ان كافة الصور والحالات التى تتخذ فيها العلاقات شكلا يخالف الاستقامة والمشروعية تندرج تحت هذا المعنى . لأن مصير العلاقات العرجة غير المشروعة هو نفس المصير الذى يسوق اليه قطع الروابط وهو فساد المعاملات الانسانية وخراب نظام الاخلاق والمجتمع والتحضر .

من أجل هذا فالقرآن لا يمقت انتهاك العلاقات وقطعها فحسب وانما يمقت حتى مجرد اساءة استخدامها أيضا لما فى ذلك من مسببات الفوضى والاضطراب والصراع والفساد فى العالم كله .

وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

هذه هى الصفة الثالثة التى حددت معنى الفاسق والفسق وأكملت تعريفهما (١) فالنتيجة الحتمية لقطع أو غساد ما بين العبد والرب من روابط وكذا ما بين الانسان والانسان من وشائج هى الفساد ومن نشر هذا الفساد وخلقه وبثه فهو فاسق .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

---

(١) الصفة الاولى أن الفاسقين « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » والثانية « ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » — المترجم .

من العسير تحديد معنى السماوات السبع . ولقد بنى الانسان فى كل عصر وزمان ــ بناء على مشاهداته وقياساته ــ تصورات ونظريات مختلفة تتعارض فيما بينها عن « السماء » أو بالفاظ أخرى « ما وراء الارض » . لهذا فتعيين معنى « السماوات السبع » على أساس اى من هذه الافكار والنظريات لن يكون تعيينا صحيحا . وما ينبغى أن يفهم اذن بشكل عام أن المقصود منها اما أن يكون الله قد قسم الكون ــ فيما وراء الأرض ــ الى سبع طبقات محكمات ، أو أن يكون الجزء الذى تقع فيه الارض من الكون يشتمل على سبع طبقات .

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

هنا تحذير للناس من عصيان الله لانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات أو فى الأرض أو فى الالباب أو فى القلوب . وليس فى مكنة أحد من خلقه أن يحجب عنه شيئا أو يدارى عن علمه أمرا .

كذلك تحوى هذه الآية حثا للناس على اتباع هدى الله والخضوع له لانه تعالى أعلم بما يناسب خلقه . ومن يحل وجهه عن هدايته ويعرض عن طريقه فسوف يضل الى الجهل لا محالة لانه عز وجل نبع المعرفة الحقيقة ومصدر العلم الأصيل . ولا خير يرجى اذا نأى الانسان عنه ، اذ ليس للانسان نبع آخر غير الله يستقى منه معرفة الحقيقة . ونوره سبحانه وحده هو الذى يأخذ بيد الانسان ويهديه فى الدياجير الحالكة التى تكتنفه من كل جانب .

أما الآيات التاليات فقد أمر الانسان فيها بالاذعان لأمر الله لانه سبحانه وتعالى هو الخالق البارىء ومن بيده الموت والحياة وهو مالك هذا الكون الذى يعيش فيه الانسان وهو ربه وحاكمه وليس الانسان سوى خليفة له فى الأرض ولذا فعليه أن يخضع لأمره ويمتثل لحكمه ويتبع هداه ولا يمضى فى سبل الشيطان عدوه الازلى الذى يقعد له صراط ربه المستقيم ليضله عن الهدى ويلفته عن الحق فان سلم نفسه له واستجاب لمغرياته وحيله فسوف يرتكب أبشع الجرائم ــ جريمة عصيان الله والتمرد عليه ــ حيث ينال سوء العاقبة وبوار المآل .

ويلقى القرآن فى هذه الآيات أيضا أضواء على ذلك الجزء السحيق من تاريخ البشر الذى خلق فيه الانسان وهى حقبة يستحيل علينا تلمس صدقها والوصول الى حقيقتها يقينا عن أى مصدر آخر .

وليس من شك فى أن هذه المعرفة المؤكدة اليقينية التى يعطينا القرآن أوثق وأهم من تلك المعرفة المزعومة التى لا تعدو الحدس والتخمين المقام على أساس العظام المستخرجة من جوف الارض .

كذلك فالمعرفة التى يخبرنا الله بها ترفع قدر الانسان وتعلى مكانته بجعله خليفة لله فى أرضه واسجاد الملائكة وكل شىء فى الكون له دون غيره . فى حين تجعله المعرفة الأخرى أحقر مخلوقات النشوء والارتقاء .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

الملك فى اللغة العربية رسول خاص من عند الله . والملائكة ليسوا قوى لا ذوات لهم بل هم مخلوقات لها شخصياتها المميزة بحيث يستطيعون التحدث الى خلفاء الله الذين يعينهم سبحانه لحكومة مملكته .

ويتضح من القرآن أن الماديين الذين ينكرون وجود الملائكة أصلا يخطئون كما يخطىء الجهلاء الذين يتخذون الملائكة اندادا لله ويعبدونهم على أنهم أقرباء له سبحانه وتعالى .

إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

الخليفة هو من يمارس سلطات مفوضة اليه نيابة عن سلطة أعلى . وعلى هذا فليس الانسان هو السيد والمالك وانما هو فى الحقيقة نائب المالك الأصلى وبالتالى لا يملك سلطات ذاتية الا ما فوض اليه من سيده الحقيقى ، وليس له الحق فى أن يعمل وفق ما يشاء بل ان مهمته تنفيذ مشيئة الله . فان اعتبر الانسان نفسه المالك والسيد وراح يستخدم السلطات المفوضة اليه حسب مزاجه أو سلم بأحد آخر غير المالك الحقيقى سيدا ومالكا ثم شرع ينفذ أحكامه ويتبع أوامره . فان صنيعه هذا ليس سوى غدر وخيانة وتمرد على سيده .

قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ

هذا السؤال لميبدر من الملائكة اعتراضا على كلام الله سبحانه وانما جاء منهم وكأنه طلب المزيد من المعلومات حول هذا الامر ذلك أن الملائكة لا يجرؤون على الاعتراض على أمر من الله أو قول فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وما حدث هو أنهم فهموا من لفظ « خليفة » أن هذا المخلوق سوف تفوض اليه بعض السلطات لكنهم ما استطاعوا أن يفهموا كيف يكون هذا المخلوق ذو الارادة والاستقلال الذاتى صالحا ملائما لنظام مملكة الكون الذى يقوم على حكم وتدبير اله واحد لا شريك له . كذلك لم يفهموا كيف يخلو جزء من الكون — منح فيه

« كائن ما » استقلالا ذاتيا وارادة حرة — من الشرور والمفاسد . فكانوا بسؤالهم هذا يريدون فهم ومعرفة هذه الامور .

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

لم يقصد الملائكة بهذا القول اثبات أحقيتهم بالخلافة وانما قصدوا به أن يقولوا : يا رب اننا نمتثل لاوامرك ونطيعها مؤمنين ونحفظ الكون كله — وفق مشيئتك — نظيفا طاهرا متسقا ونتغنى بحمدك وتقديسك فأى شيء يستلزم وجود « خليفة » ؟

وأحب أن أشير الى أن كلمة « تسبيح » ذات معنيين : بيان الطهر والنقاء وكذا العمل والسعى فى جد وانهماك . وكلمة « تقديس » أيضا تعنى اظهار القدسية وكذا التطهير والتنزيه .

قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾

هذا رد الله على الشق الثانى من « الشك » الذى اعترى الملائكة ومعناه أنكم أيها الملائكة لا تعرفون حكمة تعيينى خليفة فى الأرض فقدراتكم وصلاحياتكم لا تكفى لما أريده وأبغيه وهو أكثر وأجل مما ذكرتموه ولهذا سأخلق كائنا على الارض وأفوض اليه بعض السلطات .

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا

الاسماء هى الوسائل التى يميز الانسان بها الاشياء ويتعرف عليها والحق أن كافة معلومات الانسان عن الأشياء تعتمد أصلا على قدرة تخصيص الأسماء لها ومن ثم فتعليم آدم أسماء كل الاشياء عنى به نقل معرفتها اليه .

ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ
إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

هذا يوضح لنا أن علم « الملك » محدود مقصور على مجاله الخاص : الهواء والماء والسحب ونحوه وعلى عكس ذلك علم الانسان ومعرفته فهو شمولى واسع .

وقد لا يعرف الانسان ما هو موجود فى مجال « الملك » بنفس درجة معرفة « الملك » ذاته له الا أن الانسان يعرف شيئا عن كل ما هو موجود فى مجال الملائكة فى حين لا تعرف الملائكة شيئا عما هو خارج مجالها .

قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

هذا اثبات واظهار لعلم آدم وهو رد من الله على الشق الاول من الشك الذى اعترى الملائكة . فكأن الله سبحانه يجيبهم « اننى لم أهب آدم السلطة بل منحته العلم والمعرفة أيضا » وبذا يكون لتعيينه فى هذا المنصب وجهان . وجهه المظلم وهو أنه قد ينشر الفساد والشرور بسوء استخدامه للسلطة المفوضة اليه . ووجهه المضىء وهو أنه قد يستعين بالعلم فى فعل الخيرات أكثر من الشرور . والحكيم لا يرفض شيئا فيه خير كبير لمجرد احتمال صدور الشر عنه بدرجة أقل .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

هذا السجود رمز خضوع الملائكة للانسان وهم الذين يتولون ادارة الارض والجزء المتصل بها من الكون بطريقة أو بأخرى . ولان الانسان عين خليفـــة لله بأمره تعـــالى كان طبيعيا أن يلتزم الملائكة الذين يعملون فى هذا الجزء بالتعاون معه — بقدر ما يشاء الله — فى مجالاتهم سواء أراد الانسان أن يحسن أو يسىء استخدام السلطات الممنوحة له . وهذا يعنى : « أن عليكم مساعدته فيما أراد فعله بصرف النظر عما اذا كان صوابا أم خطأ خيرا أم شرا طالما اننى تركته يمارس سلطاته بهذا الشكل اما أن جردته من هذه السلطات فأوقفوا عونكم له » .

ولتوضيح هذا القول أقول ان مثل الانسان فى هذا مثل الضابط الكبير فهو مطاع من كل موظف فى نطاق سلطته طالما بقى فى منصبه ولكن ما أن تعزله الحكومة من منصبه حتى يحجم عن طاعته حتى أصغر الموظفين الذين كانوا ينفذون أوامره حتى أمس . بل انهم قد يوثقونه ويلقون به فى السجن اذا أمرتهم الحكومة بذلك . فالأمر الذى صدر الى الملائكة بالسجود لآدم يماثل فى نوعه هذه العلاقة التى ذكرتها لكم . ومع هذا فقد يكون الملائكة قد أمروا بالسجود الذى نعرفه جميعا تعبيرا عن خضوعهم واذعانهم .

إِلَّآ إِبۡلِيسَ

ابليس تعنى فى معاجم اللغة اليائس الى أقصى درجة وهذا هـو الاسم الذى سمى به « الجنى » الذى عصى أمر الله ورفض أن يسجد لآدم دليلا على خضوعه له ولذريته وسأل الله أن ينظره الى يوم يبعثون كى يغوى الانس أجمعين ويقعد لهم صراط ربهم المستقيم .

ويسمى أيضا « الشيطان » وهو ليس قوة شريرة غيبية وانما لـه شخصيته الخاصة به مثل الانسان . ولم يكن ابليس ملكا كما هو شائع عنه بل كان واحدا من الجن الذين يكونون جنسا خاصا بهم مثلما يكون الملائكة جنسا مستقلا بهم(١) .

أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

يتضح من هذا أن ابليس لم يرفض وحده السجود لآدم وانما كانت هناك مجموعة أخرى من الجن جنحت الى العصيان وذكر منهـا اسم ابليس خاصة لانه هو الذى تزعم العصاة .

وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

يظهر من هذا أن الله أبقى على آدم وحواء فى الجنة بادىء الامر لاختبار رغباتهما ونزواتهما قبل أن يبعثهما الى الارض وهى المكان الذى عينهما فيه خلفاء له . ولاجراء هذا الاختبار أختيرت شجرة من الاشجار وحذرهما سبحانه وتعالى حتى من مجرد الاقتراب منها فان فعلا ذلك فقد أخطآ فى حق الله وعصيا أمره ونالا مصير الظالمين .

ولقد كانت الجنة أنسب مكان لاجراء هذا الاختبار اذ قصد بها أن يتضح للانسان أن الجنة هى المكان الذى يليق بخليفة الله . أما ان أسلم نفسه للشيطان ونزواته فسوف يحرم نفسه من الفوز بها . وليس من سبيل

---

(١) أنظر الآية « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » الكهف ٥٠ .

لاستردادها والرجوع اليها سوى مواجهة « العدو » — الذى يقعد له كل مرصد ليضله عن سبيل ربه — مواجهة حازمة ناجحة .

أما الشجرة التى وردت هنا فليس من ذكر لاسمها أو نوعها لان الشجرة فى ذاتها لا يكمن فيها شر أو اثم وانما اختيرت لاجراء الامتحان لا غير .

فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

كلمة « ظالم » كلمة جد واسعة فى مدلولها . والظلم هو انتهاك الحق والظالم من يفعل ذلك . فمن يعص أمر الله ينتهك ثلاثة حقوق أساسية : الاول حق الله الجدير بالطاعة والاذعان والثانى حقوق كافة الموجودات التى استخدمها فى تنفيذ هذا العصيان كأعضاء بدنه وقدراته وأبناء مجتمعه والملائكة الذين ساعدوه فى تنفيذ ارادته وغير ذلك مما استعان به فى تحقيق عصيانه لان سائر هذه الاشياء والموجودات لها الحق فى أن تستخدم طبقا لمرضاة المالك الحقيقى ووفق ارادته ومن الظلم أن يسىء الانسان استخدام السلطات التى له عليهم .

والحق الثالث الذى يجور عليه الانسان اذا ما عصى ربه هو حق نفسه ذاتها لان لنفسه عليه حقا أن يجتهد لحمايتها من الدمار والتحطيم فان عصى ربه استجلب عليها غضب الله وسخطه وبذا يكون قد ارتكب ظلما ضدها . هذه هى الاسباب التى من أجلها يصطلح القرآن على تسمية الذنب « ظلما » والمذنب « ظالما » فى مواضع عديدة منه .

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

يعنى أن الشيطان سيكون للانسان عدوا ويكون الانسان له عدوا . وحقيقة أن الشيطان يحاول جهده ليلفت الانسان عن سبيل ربه الى سبيل البوار والخسران المبين ان هى الا دليل واضح على أنه عدو الانسان الازلى الرئيسى . ومن ثم تقتضى طبيعة الانسان البشرية ضرورة قتاله للشيطان باعتباره عدوه .

بيد ان الانسان — بكل أسف — حرفته مغريات الشيطان وأغرته شراكه والاعيبه حتى أنه راح يتخذه خليلا ووليا . ومع ذلك فلا يعنى هذا أن عداوتهما المتبادلة انقلبت فعلا الى صداقة وانما يعنى فقط أن خصم الانسان قد أفلح فى تضليله فوقع فى الشراك التى نصبها له .

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

حين أحس آدم بالندم على ذنبه وأراد أن يتوب الى خالقه لم يجد من الكلمات المناسبة ما يسأل به الله عفوه وغفرانه فمن الله عليه وأشفق لما كان فيه من حزن وأسى ولقنه كلمات مناسبة .

و « التوبة » تعنى التقهقر وتعنى الرجوع الى كذا . فان استخدم اللفظ فى جانب الانسان فمعناه أنه قد رجع عن عصيانه الى الماضي حيث الطاعة والتسليم وان استخدم فى حق الله فمعناه أنه تعالى عاد مرة أخرى برحمته الى التائب .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

هنا يرفض القرآن تلك النظرية التى تزعم أن نتائج الخطيئة حتمية لازمة لا يمكن الرجوع فيها وانها ستدين الانسان وتذيقه وبال أمره بطريقة أو بأخرى .

وهذه واحدة من النظريات الباطلة الضالة التى ابتدعها الانسان بنفسه وجنت على البشرية ضررا بالغا ووبالا شنيعا . اذ أنها تفقد الانسان كل أمل فى الاستقامة الى أبد الدهر ان انزلقت قدمه — ولو مرة واحدة — فى وحل الخطيئة . وحتى اذا شعر الانسان فى قرارة نفسه بالاسف والندم على سالف ذنبه وأراد أن يكفر عنه ويتجه بحياته الى الاصلح والافضل وقفت هذه النظرية فى وجهه ولاقته باليأس وصاحت فيه ألا أمل لك فى أن تعود الى سابق طهرك لانك أدنت الى الابد وعليك أن تتحمل عواقب ما ارتكبته فى ماضيك .

أما القرآن فيقول — عكس ذلك — ان الله تعالى قادر تماما على أن يثيب المحسن ويعاقب المذنب . وأنه اذا أثابك على خير فعلته فهذا ليس نتيجة حتمية لفعلك بل هو من فضل الله ونعمته لان لديه السلطة المطلقة فى أن يجزيك عليه خيرا أو لايجزيك . ونفس الحال اذا عوقبت على شر ارتكبته فالعقوبة ليست نتيجة خطئك الحتمية التى لا فكاك منها وانما فى مقدور الله سبحانه وتعالى أن يعاقبك عليه أو يغفر لك اذا شاء .

ولان الله تعالى حكيم بلا نهاية فهو لا يستخدم سلطاته اعتباطا — جل شأنه وتعالى — بل يراعى — وهو العليم الخبير — ما انعقدت عليه النية فعلا فان أثاب عبده على خير فهو يثيبه حين يراه يفعله ابتغاء مرضاته تعالى وان لم يثبه على خير ظاهر بارز فلانه يعلم أن عبده قد صنع هذا دون اخلاص أو ظهورا ورياء . وكذا الحال فى الذنوب والخطايا فهو يعاقب

العبد على ذنب يرتكبه فى غمرة من العصيان والتمرد دون أن يصحبه أو يتبعه تأنيب نفس أو عذاب ضمير بل يتبعه رغبة فى اقتراف ذنوب وجرائم اكثر وأكثر . فسبحانه يسبغ رحمته وفضله على عباده فيغفر ما يشعر العبد عليه بالاسف والندم ويقرر بينه وبين نفسه أن يتحول الى الاصلح والاحسن .

من هنا يتضح أن رفض النظرية التى تقول بحتمية العقوبة على الذنب يجدد أمل الاستقامة فى نفوس المذنبين . وعلى أسوأ المجرمين وأعتى العصاة والكافرين ألا يقنطوا من رحمة الله وغفرانه شريطة أن يعترفوا بذنوبهم لله — لا أمام الكاهن — ويحسوا الندم على عصيانهم ويكفروا عن تمردهم ويقبلوا على التسليم والخضوع والاذعان .

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا

تكرار هذا « الامر » الصادر من الله بالهبوط له مغزى كبير . فالآية السابقة تقول أن آدم تاب الى الله فقبل توبته وعلى هذا لم يغفر الله لآدم وحده بل أنه سبحانه وضع عن أنسال وأصلاب آدم التالين تأثير ما اقترفه من ذنب ومن ثم فليس من حاجة بالله لان يصلب « ابنه الوحيد »(1) تكفيرا عن خطيئة آدم وذريته . بل انه تعالى لم يقبل توبة آدم فحسب وانما عينه — فوق ذلك — خليفة له فى أرضه ليرى أبناءه هدى الله ونوره .

فتكرار الامر (اهبطوا منها) من جانب الله اذن يوضح أن الهدف الأصلى من خلق آدم هو تنصيبه خليفة لله فى الارض التى صدر الامر من الله بالهبوط اليها . ولذا لم يبق عليه فى الجنة بعد قبول توبته بل أرسله الى الارض كأمر طبيعى وليس عقابا واقتصاصا .

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ

آيات جمع آية والآية فى اللغة العلامة أو الاشارة . وقد ورد استعمال هذه الكلمة فى القرآن فى أربعة معان مختلفة . فهى تعنى فى بعض المواضع مجرد العلامة . وسميت الظواهر الطبيعية المختلفة فى مواضع أخرى « آيات » لان كل ظاهرة منها تشير الى الحقيقة المستترة وراءها كذلك سميت المعجزات التى جاء بها الانبياء « آيات » لانها كانت العلامة التى تثبت انهم نواب الحاكم الاعلى . وآيات الكتاب أيضا سميت « آيات » لانها لا تشير الى الحق والصواب فحسب بل الى « مؤلف القرآن » رفيع

---

(1) تقول المسيحية ان الله صلب ابنه المسيح تكفيرا عن خطيئة آدم — المترجم .

الدرجات ذى المقام الأعلى . فليس موضوع القرآن وحده الذى يشير الى مؤلفه وانما كلماته وبيانه وأسلوبه أيضا . فمعنى لفظ « الآيات » اذن يتضح من السياق الذى ترد فيه الكلمة .

أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

القانون الالهى الخاص بالهداية والذى سلفت الاشارة اليه جعله الله نافذا منذ الازل والى الابد . . منذ خلق الله الانسان والى يوم يبعث الانسان وقد سمى هذا القانون « عهدا » فى الآية ٢٧ من سورة البقرة وقصد به تحذيرا للانسان من ربه وأمرا صادرا اليه من سيده بألا يبتدع سبيلا من وحى عقله يسير فيه كيف شاء بل عليه اتباع هداية الله وحده بصفته عبده وخليفته ووسيلة معرفة هذه الهداية أمران : اما أن يتلقى الانسان وحيا مباشرا من الله واما أن يتعلمه ممن نزلت عليه هداية الله . وليس ثم طريق ثالث يعرف الانسان منه مرضاة ربه ورغبته . لذا فكل طريق غير هذين ليس خطأ فحسب بل هو سبيل عصيان وتمرد يقود — يقينا — الى الجحيم المقيم السرمدى .

وقصة خلق الانسان وصفت فى ستة مواضع فى القرآن الكريم فى سورة الاعراف ١١ : ٢٥ وسورة الحجر ٢٦ : ٤٨ والاسراء ٦٠ : ٦٥ والكهف ٥٠ وطه ١١٦ : ١٢٣ والزمر ٧١ : ٨٥ .

والافضل مطالعة قصة الخلق كما وردت فى العهد القديم فى سفر التكوين الاصحاح ١ — ٣ ومقارنتها بما يرويه القرآن . ومما لا شك فيه أن المقارنة بين الروايتين تسفر عن القطع بأن القرآن بقى سليما فى نقائه وشكله الاصلى وبنفس الصورة التى أوحاه عليها رب العالمين وأن الكتاب المقدس قد امتدت اليه الأيدى وتلاعبت بنصوصه الاقلام .

كما انه من الطريف أيضا أن نقابل بين حوار الله مع الملائكة كما جاء فى كل من القرآن والتلمود لنرى أن حديث التلمود يخلو تماما من القيم الروحية . ليس هذا فحسب بل انه مثير للضحك والسخرية .

فحين سأل الملائكة رب العالمين — هكذا يقول التلمود — عن السبب الذى من أجله سيخلق الانسان أجابهم بأن الصالحين لا بد وأن يخلقوا على الارض ولم يذكر شيئا أمام الملائكة عن خلق الاشرار على الارض كيلا يمتنع الملائكة عن التصريح له بخلق الانسان .

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

اسرائيل تعنى خادم الله وعبده . وهو اللقب الذى سمى به الله يعقوب بن اسحق وحفيد ابراهيم . وتسمى نسله بنى اسرائيل . ولو

سرحنا النظر فى الآيات السابقات لرأينا أن الآيات الاولى حتى الآية ٣٩ كانت حديثا تمهيديا موجها للبشرية جمعاء . أما الايات من ٤٠ الى ١٢١ فهى حديث وجه الى بنى اسرائيل خاصة رغم مخاطبته المسيحيين ومشركى الجزيرة والمسلمين فى بعض آياته .

ولكى نفهم هذا الخطاب فهما تاما علينا أن نضع فى أذهاننا عدة نقاط هامة:

أ ــ أن هذا الحديث يهدف الى دعوة أتباع الانبياء السابقين (اليهود والنصارى) ــ الذين كانوا لا يزالون فى عجز عن اصلاح أنفسهم ــ الى فهم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وقبولها ولهذا فقد أخبرهم الله فيه بأن رسالة القرآن هى عين رسالة الكتب التى نزلت على الانبياء السابقين وأن مهمة محمد عليه الصلاة والسلام هى نفس مهمة من سبق من الأنبياء . فكأن هذا الخطاب يقصد أن يقول لهم :ــ

(لقد أسندت اليكم هذه المهمة أول الامر لكى تنفذوها وتدعوا العالم لقبولها والايمان بها لكنكم طرحتم هداية الله وتدليتم الى أعماق الانحطاط وما تاريخ أمتكم الماضى وانحطاطها الخلقى والدينى الراهن سوى خير شاهد عليكم وها هو عبد آخر من عباد الله أرسله بنفس الرسالة ولتنفيذ نفس المهمة أيضا وليس فى هذا شىء غريب أوجديد عليكم فينبغى أذن الا تعارضوا الحق وانتم تعلمونه وخير لكم أن تؤمنوا به وتتعاونوا مع من يؤمنون بنفس ما ارسل اليكم من قبل .

ب ــ كذلك يرمى هذا الخطاب الى مناقشة اليهود والبرهنة على فسادهم وكشف أنحاطهم الدينى والخلقى . لذا نرى آياته تثبت أثباتا قاطعا خطأ موقفهم من الاسلام حين كانوا يعارضونه مع أنهم كانوا يعترفون فى نفس الوقت بان مبادئه واسسه هى بالفعل عين مبادىء دينهم وأن القرآن ليس فيه مايخالف التوراة أو يعارض تعاليمها من حيث المبدا .

كما أن هذا الخطاب يبين أيضا أن اليهود فشلوا تماما فى اتباع ما أعطاهم الله من هداية واخفقوا كل الاخفاق فى القيام بمسئوليات وواجبات الزعامة التى أسندت اليهم . ولاثبات هذا سيقت حوادث من تاريخهم وقصصهم لايستطيعون لها أنكارا او رفضا .

وفوق هذا فالخطاب يفضح المؤمرات التى كانوا يحيكونها والريب والمزاعم التى كانوا ينسجونها ويرددونها والحجج والبراهين التى كانوا يقدمونها والمكائد التى كانوا يدبرونها ويلفقونها لينالوا من مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوهوا رسالته رغم تيقنهم من أنها رسالة منزلة من عند الله .

وقد فضح هذا الخطاب أيضا (تقواهم وايمانهم) المزعوم ودلل على أنه ايمان يعوزه الاخلاص وتنقصه الاستقامة وأن الدافع وراءه عنادهم وعبادتهم لانفسهم . وأثبت بما لا يدع أدنى مجال لنشك أنهم لا يريدون الخير أن يزدهر ويعم حقـا .

كل هذا ادى دوره المطلوب وأثر تأثيره المرغوب أذ فتح أعين العناصر الطيبة من اليهود وقضى على الكبرياء الروحية التى كانتتستحوذ على عقول زعماء اليهود الدينيين فى المدينة وما حولها . الى جانب أن استولى الخوف والفزع على قلوبهم لافتصاح أمرهم فلم يتجاسروا على معارضة الاسلام فى صراحة وشجاعة .

جـ ـ فى الآيات التى سبقت هذا الخطاب دعيت البشرية قاطبة للايمان بالهداية الالهية ثم اختير بنو اسرائيل بعد ذلك كمثال لايضاح النتائج المترتبة على نبذ هذه الهداية بعيدا .

وسبب اختيار بنى أسرائيل نموذجا هو أنهم الامة الوحيدة التى يعتبر تاريخها خلال الأربعة آلاف سنة الاخيرة درسا وعبرة حية لكل أمم العالم اذ تبدو فى روايته كافة الارتفاعات والانخفاضات والارتقاءات والتنزلات التى تنجم عن السير وفق هداية الله أو نبذها والتنكر لها .

د ـ رغم أن هذا الخطاب موجه الى اليهود بذاتهم الا أنه قصد به كذلك تحذير المسلمين من السقوط فيما سقط فيه أتباع الانبياء السابقين . وهذا هو سبب أشارة القرآن فيه الى انحطاطات اليهود الخلقية وايراد تصوراتهم المستغربة وافكارهم الخاطئة عن الدين وذكر طرقهم الضالة فى التفكير واساليبهم الساقطة فى العيش والحياة واحدة بواحدة . الى جانب تقرير مطالب الدين الحق ومقتضياته كى يتمكن المسلمون من رؤية الصراط المستقيم فى جلاء ويبتعدوا عن الطرق العرجة الاخرى .

وينبغى على المسلمين حين يقراون ما ورد فى هذا الخطاب من مثالب وانحرافات الا يغفلوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أذ يقول :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة (احدى ريش السهم) حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟

ولم يكن هذا الحديث من باب التوبيخ بل كان عليه الصلاة والسلام يعلم ببصيرته المعطاة من رب العالمين أى السبل يتطرق منها الانحراف الى أمم الانبياء وفى أى الاشكال يظهر . وكان يعلم أيضا أن المسلمين سيتبعون نفس الخطى التى أشير اليها فى هذا الخطاب شيئا فشيئا فحذرهم من ذلك لكنهم لم يلقوا بالا الى تحذيره وها أنت تراهم قد سلكوا فى أنحطاطهم نفس الدروب التى سلكها اليهود والنصارى .

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

يشير القرآن فى تعبيره « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » الى المكاسب الدنيوية التى لاجلها أعرض هؤلاء الناس عن قانون الله . وبالطبع لايعنى هذا التعبير الا تاخذوا لقاء هدايتى مكاسب ومنافع قليلة بل خذوها كثيرة . والحق أن ثروات العالم كله مجتمعة لا قيمة لها اذا نالها الانسان لقاء بيعه لهدى الله ورشده .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

لكى نفهم هذه الاية علينا أن ناخذ فى الاعتبار أن العرب وقتذاك كانوا أميين غير متعلمين فى معظمهم على حين كان التعليم منتشرا بين اليهود الذين كان منهم علماء كبار يعيشون بين العرب ووصلت شهرتهم الى ما وراء الجزيرة العربية فكان ذلك سببا فى أنبهار مشركى العرب بثقافة اليهود لان علماءهم واحبارهم كانوا يستعرضون عليهم عضلاتهم فى ميدان التعليم والثقافة والتقوى والتدين مدعمين ذلك باستخدامهم السحر والتعاويذ والتمائم . وكان أهل المدينة خاصة مبهورين بثقافة اليهود وتعليمهم نظرا لتوشج العلاقات بينهم ليل نهار فنتج عن هذا أن تأثروا بهم كثيرا كما يتأثر الشعب الجاهل المتخلف عادة بجيرانه الذين يفوقونه ثقافة وتحضرا وتدينا.

هكذا كانت حال العرب الدينية حين أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه رسول من عند الله وأن عليهم اتباعه . فلما سمع العرب الجهلاء منه هذا توجهوا بالطبع الى اليهود يتلمسون عندهم نصحا ويبتغون ارشادا قائلين لهم انكم أتباع نبى وأهل كتاب فما ظنكم بهذا الذى يزعم أنه رسول من عند الله . ؟

غير أن علماء اليهود لم يجيبوا سؤلهم اجابة شافية صحيحة لعدة أمور : فهم لم يجدوا فى دعوته صلى الله عليه وسلم خطأ أو خلطا ، وما كان لهم أن يتولوا بآلهة كثيرة وينكروا دعوته الى التوحيد ، ولم يستطيعوا الطعن فيما جاء به عن الأنبياء السابقين والكتب المقدسة المنزلة والملائكة المكرمين ويوم الفصل والدين ، وما استطاعوا أن يفندوا المبادىء الخلقية التى كان يلقنها سيد المرسلين ، والى جانب هذا لم يكونوا مستعدين لتصديق الرسول

صراحة ، ولم تكن لديهم الشجاعة الكافية لمعارضة تعاليمه علانية ، ولم تكن بهم رغبة فى اشهار ايمانهم بالحق على مـلا عيان ومن أجـل هـذا كله جنحوا فى مواجهة الرسول الى خطة خبيثة ومكر بارع اذ أسرعوا يختلقون الشبهة تلو الشبهة حول الرسول وصحابته الاطهـار ورسـالته الزكيـة وراحوا يلفقون المزاعم ويملاون الأجواء بالاقاويل والاكاذيب ، ويتصيدون الفرص لاثارة الاعتراضات التافهـة ، ويستدرجون المؤمنين الى شباك الجـدل العقيم الذى لا طائل من ورائه ... ولهـذه الأسباب صدر الامر اليهم من الله الا يكتموا الحق باخفائه فى ثوب الباطل ونشر الشكوك والريب حوله واثارة الاعتراضات السخيفة ضده وخلطه بالضلال والبهتان .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

شكلت الصلاة والزكاة الاركان الاساسية لدين الاسلام الموحى من عند الله فى سائر الحقب ولقد فرضت على بنى اسرائيل — عن طريق أنبيائهم مثلما فرضت على الأقوام الآخرين غير أن اليهود أهملوها تدرجا ففسد نظام صلاة الجماعة عندهم بل وتخلى أكثرهم عن أدائها ولو بشكل فردى الى أن صارت الغالبية العظمى منهم لاتؤديها . أما الزكاة فراحوا يأكلون الربا بدلا من أدائها ودفعها .

* أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ

يعنى لو شعرتم بالمصاعب تعترض طريقكم الى الخير فعليكم بالصبر والصلاة فهما الدواء الناجع الذى يخلق فيكم القدرة والطاقة التى تجعل أجتيازكم لهذا الطريق سهلا يسيرا .

والصبر فى اللغة يعنى الحبس والضبط لكنه فى الاستخدام يعنى الحلم والاناة والثبات والجلد ، والقرآن يستخدم هذا اللفظ ليعبر به عن ضبط الارادة وقوة العزم وحبس رغبات النفس والمثابرة والاحتمال والتصميم والالتزام الخلقى الذى يمكن المرء من مواجهة الآلام والمصاعب والحرمان والعوز والفاقة والمغريات التى يتعرض لها فى أجتيازه للطريق الذى يختاره بما يمليه عليه ضميره فى شجاعة واقدام وثبات .

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

انها لجهد شاق مضن على من يعصى الله ولا يؤمن بالآخرة وفرض مفرح وواجب مبهج لمن يطيع ربه ويخضع له برضا واختيار منه ويؤمن بانه سيرجع اليه ذات يوم ليقف أمامه . مثل هذا الشخص ما أشق عليه من ترك الصلاة وما أضنى على نفسه من أهمالها .

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

أشارة الى الفترة التى كان بنو أسرائيل فيها هم الامة الوحيدة من بين أمم العالم التى تملك هداية وحقيقة من عند الله . وعلى هذا الاساس جعلهم الله أئمة البشرية وكلفهم بدعوة الامم الاخرى لاسلام الوجه لله وقيادتهم جميعا الى الطريق الصحيح .. طريق هداية الله .

وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

فى هذه الاية أمر الله بنى أسرائيل أن يقوا أنفسهم شر تصورهم الغلط عن «الاخرة» لانه كان السبب الاساسى فى أنحطاطهم أذ توهموا أنهم وحدهم الناجون يوم القيامة لانهم سلالة الانبياء العظام ولهم علاقات وصلات دم بكبار الاولياء والصالحين والزهاد مما دفعهم الى أهمال الدين الحقيقى والسقوط فى المعاصى والموبقات .

ففى هذه الاية يقتلع الله عن أذهانهم هذا الوهم ويخبرهم أن صلات القربى التى بينهم وبين أى من الشخصيات الدينية المقدسة أو شفاعة أيها لهم لن تنجيهم من عواقب أعمالهم السيئة . وهذا هو السبب فى أن الله سبحانه وتعالى ذكرها بما أنعم عليهم ثم اتبع هذا التذكير على الفور محو ما بنوه من أفكار وتصورات خاطئة .

أما الحوادث التى سيرد ذكرها فى الايات التالية فقد كان اليهود يعرفونها تماما ولذ جاءت الاشارة اليها موجزة لتبين فقط أنهم لم يحمدوا لله فضله ولم يقروا له بجميل صنعه معهم وانهم أستمروا فى ارتكاب المعاصى وفعل السيئات رغم سيول النعم التى أنزلها عليهم .

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ

آل فرعون : أسرة فرعون نفسه وكذا من كانوا ينتمون الى الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك .

وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

لقد كان ذلك امتحانا يبين ما اذا كانت شخصيتهم من تبر خالص أم من معدن خسيس وهل سيعترفون لله بجميل صنعه ويحمدونه على عظيم نعمائه بعد خروجهم الذى تم باعجاز خارق أم لا .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

حين دخل بنو أسرائيل سيناء بعد خروجهم من مصر نادى الله موسى عند جبل الطور أربعين ليلة كى يعطيه القوانين والتعاليم والاوامر والوصايا لهداية من كانوا قد تحرروا لتوهم من العبودية والاسترقاق (لمزيد من التقصيل أنظر سفر الخروج أصحاح ٢٤ — ٣١)

وينبغى التنوية الى أن (الطور) المشار اليه فى القرآن ليس هو ميناء الطور الجديد الذى يقع على الساحل الشرقى لخليج السويس .

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

كانت عبادة العجل تشيع فى كنعان ومصر والاقطار المجاورة ولمامات يوسف عليه السلام وانحط بنو أسرائيل واستعبدهم الاقباط أخذوا هذه العادة السيئة عن ساداتهم وحكامهم وواقعة عبادتهم العجل مذكورة بتفصيل اكثر فى سفر الخروج اصحاح ٣٢

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

الفرقان هو ما يفرق به بين الحق والباطل . والمراد به فى هذه الاية معرفة الدين وفهمه الذى يمكن المرء من التفريق بين الهدى والضلال والحق والباطل .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

« فاقتلوا أنفسكم » أى أقتلوا الاشرار منكم الذين أتخذوا العجل الها يعبدونه من دون الله .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً

حين صعد موسى جبل الطور اربعين ليلة أمره الله أن ياتى بسبعين من أكابر بنى أسرائيل ورؤسائهم ثم حباه الفرقان واعطاه الالواح وفى نسختها هدى للناس فقدمها موسى الى رؤساء بنى أسرائيل .

ثم يقول القرآن أن البعض من بنى أسرائيل ممن خبثت طويتهم وفسدت قلوبهم راحوا فى تلك الاثناء يقولون لموسى عليه السلام كيف نؤمن بان الله قد كلمك وليس عندنا دليل سوى روايتك ؟ فغضب الله عليهم بصلفهم وعنادهم وأنزل عليهم عقابه .

أما التوراة فتقول :

وراوا اله اسرائيل رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى أسرائيل فراوا الله واكلوا وشربوا .

الخروج ٢٣ — ١٠ : ١١

وعلى ما فى هذا القول من غرابة نرى أن التوراة ذاتها تخبرنا أن موسى قال لله « أرنى مجدك » فاجابه (لاتقدر أن ترى وجهى لان الانسان لايرانى ويعيش)

الخروج ٣٣ — ١٨ : ٢٠

فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ

يعنى لقد سيرنا الغمام لحمايتكم من لهيب الشمس فى صحراء سيناء حيث لم يكن ثم لكم ملجأ يقيكم قيظه ولفحه . فلقد خرجت مئات الالاف من بنى اسرائيل من مصر الى صحراء سيناء المكشوفة التى لم يكن فيها مكان يلجاون اليه من حر الشمس ولم تكن معهم خيام ولا ما يماثلها ليحموا أنفسهم بها . ولولا أن غطى الله بقدرته صفحة السماء بالغمام لما أحتجبت الشمس ولهلك بنو أسرائيل من قيظها .

وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ

المن والسلوى من الاطعمة الطبيعية التى وجدها بنو أسرائيل اربعين سنة متصلة فى مهجرهم . أما المن فكان مثل بذور دهنية تسقط على الأرض وأما السلوى فكان نوعا من الطيور يشبه السمان ومن فضل الله أن كانت هذه الأغذية بكميات ضخمة حتى أن عاش عليها شعب بأكمله أربعين سنة دون أن يواجه قحطا أو مجاعة .

ونشير هنا الى أن أكثر الدول تحضرا فى أيامنا هذه يصعب عليها تزويد بعض مئات الملايين من المهاجرين بالمؤن والطعام وما اليه مهما أوتيت من وسائل النقل ومهما وضعت تحت أمرتها كافة سبل المواصلات فى العالم أجمع .

(لمزيد من التفاصيل ارجع الى سفر الخروج ١٦ وسفر العدد ١١ ـ ٧ : ٩ ، ٣١ ، ٣٢ وسفر يشوع ٥ : ١٢)

كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ

لم تحدد هذه القرية ولاموقعها . ولان هذه الواقعة حدثت حين كان بنو أسرائيل يتيهون فى سيناء وشمال الجزيرة العربية فهناك أحتمال كبير أن تكون هذه القرية واحدة من قرى هذه المنطقة آنذاك . كما أن هناك احتمالا أن تكون هى قرية « شطيم » على الضفة الغربية لنهر الأردن والتى تقع فى مقابل مدينة جيرتشو JERCHO . ولقد فتح بنو أسرائيل هذه المدينة ـ حسب قول التوراة ـ خلال السنوات الاخيرة من حياة موسى عليه السلام ثم افترقوا فيها الفواحش والزنا وغرقوا فى لجج الملذات الحسية فانزل الله بهم عقابا شديدا فى صورة وباء فتك باربعة وعشرين الفا منهم .

(انظر العدد ٢٥ ـ ١ : ٩)

فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ

هنا أمر الله بنى اسرائيل الا يدخلوا هذه المدينة كما يدخل الطغاة المتغطرسون الذين خلت قلوبهم من الرحمة وانما يدخلونها خانعين متواضعين كما يدخل المتقون المؤمنون الذين يخشون ربهم مثلما دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة يوم الفتح .

وكلمة « حطة » لها معنيان الاول : أن أدخلوا هذه القرية طالبين من الله أن يغفر لكم خطاياكم ويحط عنكم سيئاتكم والثانى أن ادخلوها محجمين عن النهب والسلب والقتل عافين عن أهلها .

نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ

لايزال هذا الحجر موجودا الى الان قرب جبل سيناء ويمكن رؤيته وفيه الفتحات الاثنتا عشرة أما عن تفجير اثنتى عشرة عينا لبنى اسرائيل فكان لتجنب نشوب النزاع على الماء بين عشائر أسباطهم الاثنى عشر .

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ

ليس معنى ((**أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير**)) انكم لم

تقنعوا بالمن والسلوى الذى وجدتموه دون تعب او نصب وتطلبون الغذاء الذى يستلزم الحصول عليه حرثا وكدحا وعرقا . وانما معناها انكم تتركون الهدف السامى (تطهير قلوبكم واعدادكم لزعامة العالم) الذى لاجله اخرجتم من مصر واجتزتم الصحراء وها انتم تجدون لاشباع غرائزكم وتلهثون وراء شهوة بطونكم ولا تستطيعون نسيان هذه الامور ولو الى حين (للمقارنة انظر سفر العدد ١١ : ٤ — ٩)

اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

لقد كانوا يكفرون بآيات الله من وجوه عدة : —

(أ) فقد رفضوا كل تنزيل وجدوه يعارض أفكارهم وأهواءهم .

(ب) وكانوا يعصون أوامر الله صلفا وعنادا وهم يعلمون أنهم يلقون بها وراء ظهورهم .

(ج) وحرفوا معانى الآيات وبدلوها كى توافق أمزجتهم .

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

ان تاريخ بنى اسرائيل يزخر بأمثلة وفيرة من قتلهم انبياءهم نورد فى هذا المقام بعضا منها من واقع التوراة ذاتها :

١ — انقسمت مملكة اسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام الى مملكتين الاولى مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم والثانية مملكة اسرائيل وحاضرتها « السامرة » ولما كانتا فى حروب وتطاحن فيما بينهما فى اغلب الاحيان ارسل الملك آسا ملك يهوذا رسالة وهدايا نفيسة الى بن حداد ملك سوريا ليقف فى وجه بعشا ملك اسرائيل الذى كان يهاجم مملكة يهوذا فقام النبى حنانى وعنف الملك آسا لاعتماده على ملك سوريا لا على « الهه الخالد » فغضب عليه آسا وقبض عليه وزج به فى السجن . (اخبار الايام الثانى ١٦ : ١ — ١٠)

٢ — عندما اعترض النبى ايليا على سلوك الاسرائيليين ووبخهم حينما عبدوا « بعلا » ودعاهم ان يعبدوا الله وحده ناصبوه اشد العداء وهدده آخاب ملك السامرة بالقتل بتحريض من زوجته الوثنية . ففر ايليا بحياته خائفا الى جبال سيناء . وقال ايليا فى محنته هذه « قد غرت غيرة للرب اله الجنود لان بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا

انبياءك بالسيف فبقيت انا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها » (الملوك الاول ١٩ : ١ — ١٠) .

٣ — زج الملك آخاب بنبى آخر يدعى « ميخا » لانه رفع صوته بالحق : فقال ملك اسرائيل خذ ميخا ورده الى آمون رئيس المدينة والى يواس ابن الملك وقل هكذا قال الملك ضعوا هذا فى السجن واطعموه خبز الضيق وماء الضيق حتى آتى بسلام » (الملوك الاول ٢٢ : ٢٦ — ٢٧) .

٤ — عندما شرع اهل يهوذا يعبدون الاوثان علانية ويعملون السوء ويرتكبون كل منكر اعترض على مسلكهم هذا النبى « زكريا » وقال لهم : « هكذا يقول الله لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون لانكم تركتم الرب قد ترككم ففتنوا عليه ورجموه بحجارة بأمر من الملك فى دار بيت الرب » (اخبار الايام الثانى ٢٤ : ٢٠ — ٢١)

٥ — لما حطم الآشوريون مملكة السامرة الاسرائيلية وهددت الدولة اليهودية فى اورشليم بخطر وشيك بدأ النبى « أرميا » يصرخ فى قومه محذرا اياهم من الانحطاط وعواقبه الوخيمة وصاح فيهم مولولا ان صححوا طرقكم واصلحوا اموركم والا لقيتم اسوأ مما لقيتم فى السامرة فما كان من اليهود الا ان ردوا عليه بالسباب والضرب والقوا به فى لسجن واتهموه بالعمالة والخيانة وقالوا له « انك تقع للكلدانيين » وقبضوا عليه وجلدوه ورموه فى زنزانة ضيقة ثم فى جب تحت الارض انزلوه فيه بالحبال كى يغرق فى الوحل ويموت على الفور من شدة الجوع (لتفصيلات اخرى انظر سفر ارميا ١٥ : ١٠ ، ١٨ : ٢٠ — ٢٣ ، ٢٠ : ١ — ١٨ والاصحاحات من ٣٦ الى ٤٠)

٦ — « يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليهـا » (انجيل متى ٢٣ : ٣٧)

٧ — لما اعترض يوحنا المعمدان على المنكرات التى كانت ترتكب علانية فى بلاط هيرودوس ملك يهوذ القى القبض عليه ووضع فى السجن وارسل هيرودوس اليه سيافا ليأتى برأسه نزولا على رغبة زوجته هيروديا التى كانت تحنق على يوحنا فمضى السياف وقطع رأسه فى السجن وأتى بها على طبق وقدمها اليها . (انجيل مرقص ٦ : ١٧ — ٢٩)

٨ — وآخر ضحايا كهان اليهود وزعمائهم ومخططـاتهم العدوانية يسوع المسيح الذى ندد بهم وبخطاياهم ونصحهم ان يعيشوا حيـاة صادقة طاهرة . ولارتكابه هذه « الجريمة » دبروا القبض عليه خداعا ثم قتلوه وذلك بأن رشوا يهوذا احد حوارييه الاثنى عشر وارسلوا الى المسيـح حشدا من البشر كثيرا يحملون سيوفا وهراوات ليقبضوا عليه ويقتادوه الى منزل الكاهن الاعظم فشدوا وثاقة واسلموه الى بيلاطس الحاكم الرومانى ولفقوا ضده تهمة كى تحكم السلطات عليه بالموت واشتدت قسوتهم حتى انهم طلبوا الى بيلاطس ان يصلبه ويطلق سراح باراباس — احد القتلة

المجرمين ــ كهدية لهم فى العيد وكان بيلاطس قد اعتاد ان يطلق لهم سجينا واحدا كل عيد (١) .

وفى هذه الآية يشير القرآن الى اخزى جزء من تاريخ بنى اسرائيل ويعلن انهم استحقوا لعنة الله وغضبه لانهم تخيروا اكابر مجرميهم ممن لا يرقبون شرعة ولا خلقا ونصبوهم عليهم وجعلوهم سادتهم ورؤساءهم فى حين بعثوا بأطهر رجالهم الى السجون والمشانق .

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

وردت هذه الآية هنا لتبعد عن ذهن اليهود ما توهموه وخدعوا به انفسهم حين ظنوا ان النجاة فى الآخرة وقف عليهم وحدهم بقطع النظر عن عقائدهم وأعمالهم . فعلاقتهم الخاصة بالله سوف تدفعهم الى الجنة دون اعتبار لما كانوا به يؤمنون او ما كانوا يعملون . فكفى انهم « اسرائيليون » اما بقية الامم الاخرى فالى الجحيم المقيم .

ففى هذه الآية يفضح الله تعالى توهمهم هذا ويعلن للبشر كافة أن النجاة فى الآخرة لا ترتبط بنسب الانسان ولا تعتمد على صلته بشعب او نبى او امام وانما عمادها ايمان المرء الصحيح وعقائده السليمة القويمة وان حكم الله لن يصدر الا بناء على مدى صلاحية المرء وقيمته الحقيقية ومن هنا عليكم ايها الناس ان تؤمنوا بهدى الله وتتبعوا صراطه المستقيم .

وواضح من سياق الآية أن القرآن لم يذكر أى تفاصيل عن عقيدة النجاة يوم الحساب او مبادئها الاساسية التى على الانسان ان يعتنقها وينفذها لكن هذا كله مذكور فى مواضعه الخاصة تفصيلا .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

هذه الواقعة مسطورة فى التلمود اذ يقول « وقد رفع الله جبل

---

(١) ينبغى أن اشير الى أن استاذنا المودودى يذكر هذه الحادثة كما وردت فى الانجيل اما رأى الاسلام فى ذلك فسيأتى فى موضعه وهذه الحادثة مذكورة فى انجيل متى ٢٧ : ١٥ — ٢٥ ، مرقص ١٥ : ١ — ١٥ ، لوقا ٢٣ : ١٣ — ٢٥ ، يوحنا ١٨ : ٢٨ — ٤٠ المترجم .

سيناء فوقهم مثل مركب كبير ضخم وقال لهم آمنوا بالتوراة والا فسيكون هنا قبركم »

ومع ان وصف هذه الوقعة فى التوراة يختلف قليلا عن وصف التلمود لها الا ان التوراة تصور المعنى تصويرا حيا فتقول :

« وكان جبل سيناء كله يدخن من جل ان الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الاتون وارتجف كل الجبل جدا (الخروج ١٩ : ١٨)

« كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى تكلم انت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت »

(الخروج ٢٠ : ١٨ – ١٩)

خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ

أمر الله بنى اسرائيل ان يحفظوا يوم السبت « لانه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم من أجل عهد أبدى ستة أيام يصنع عمل وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب كل من صنع عملا فى يوم السبت يقتل قتلا ، (انظر الخروج ٣١ : ١٢ – ١٧) . غير ان اليهود لما انحطوا وغاصوا فى اعماق الفوضى انتهكوا لسبت ونقضوا عهد ربهم .

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

هذه الواقعة مفصلة فى سورة الاعراف آيات ١٦٣ – ١٦٦ (١) وثمة خلاف حول ما حدث بالضبط فيذهب البعض الى ان المسخ وقع عليهم بالفعل فصاروا قردة ويذهب البعض الآخر الى انهم من ذلك الحين طفقوا يتصرفون كما تتصرف القردة دون أن تمسخ أبدانهم فعلا الى هياكل وابدان قرود .

غير ان الفاظ القرآن تدل على انهم مسخوا فعلا فصاروا قردة . وانى ارى ان ابدانهم قد مسخت الى اجساد قرود على حين بقيت عقولهم عقول البشر ليساموا اسوأ العذاب ويذوقوا أشد النكال .

فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا
مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ
فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى
ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

حين اخذ اليهود يسيرون نحو الايمان بالله وحده ويذرون عبادة الابقار التى اخذوها عن جيرانهم امرهم الله ان يذبحوا بقرة فكان هذا اختبارا مرا قاسيا لايمانهم فان كانوا آمنوا بالله حقا لزم عليهم ان يحطموا أوثان عبادتهم القديمة بأيديهم .

الا ان اجتياز هذا الامتحان كان عسيرا عليهم فحاولوا التملص والمراوغة ليتفادوا ذبح البقرة التى كانوا يعبدونها فيما مضى اذ لم يكن ايمانهم بالله الواحد آنذاك قد بلغ من قلوبهم مبلغا بعيدا . فما كان منهم الا ان راحوا يستفسرون عن تفاصيل كثيرة ليجدوا لهم ثغرة ينفذون منها ويروغون فكانت الحلبة تضيق عليهم كلما ازداد تساؤلهم واستفسارهم حتى امروا فى النهاية بذبح تلك البقرة الصفراء ذات اللون الفاقع والاوصاف كذا وكذا والتى كانت مختارة للعبادة وقتذاك .

والتوراة تذكر لنا هذه الحادثة لكنها لا تحكى لنا كيف حاول اليهود التملص والمراوغة وتحاشى ذبح البقرة عن طريق اثارة الاسئلة التافهة غير الضرورية (انظر سفر العدد ١٩ : ١ — ١٠) .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

تعبير القرآن هنا يوضح ان القتيل عادت اليه الحياة برهة صغيرة ذكر فيها اسم قاتله . ومع هذا ثمة بعض الغموض حول ما اتبع للتعرف على الجانى وهو ضرب جثة القتيل بقطعة من البقرة المذبوحة . وقد ورد فى سفر التثنية ٢١ : ١ – ٩ ما يماثل هذا مما يؤكد ما ذهب اليه قدامى المفسرين من انهم ضربوا جثة القتيل بقطعة من لحم البقرة فعادت اليها الحياة . وكان ذلك آية من الله كما انه عنى ضمنا ان معبودهم (البقرة) لا حول له ولا طول حتى ان ذبحه لم يلحق بهم ضرا بل على العكس كانت فيه فائدة كبرى (هى الكشف عن القاتل) .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ * أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ

المخاطبون فى الآية « افتطمعون ان يؤمنوا لكم » هم المؤمنون الجدد فى يثرب والذين لم يكن قد تصرم على اعتناقهم الاسلام غير وقت قليل . وكانوا صدقوا الرسول وآمنوا به لانهم سمعوا من جيرانهم اليهود احاديث عن الوحى والنبوة والملائكة والشريعة ونحوه وعرفوا منهم انهم يرتقبون ظهور نبى جديد سوف يظهر أتباعه على العالم كله . وهذا ما دفع أهل المدينة الى تصديق محمد عليه الصلاة والسلام والدخول فى دين الله أفواجا

ولقد كان اهل المدينة ينتظرون من اليهود – وهم اهل كتاب وكانوا يتحدثون بالسنتهم عن مبعث نبى جديد – أن يكونوا أول من يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ويمد له يد العون ويؤازره ولما لم يفعلوا ذلك مشى أهل يثرب اليهم ودعوهم الى الاسلام لكنهم اخفقوا فى اقناعهم وحثهم على ذلك . فما كان من المنافقين والمعارضين الا ان رأوها فرصة واتتهم فاتخذوا

رفض اليهود دليلا ضد الاسلام وقالوا لو كان محمد (عليه الصلاة والسلام) رسولا من الله حقا لما أنكره هؤلاء المتدينون المتعلمون (يعنى اليهود) .

ولدفع الاذى الذى نجم عن هذه المغالطة اورد القرآن تاريخهم السابق ليوضح للناس ان لا خير يرجى من مثل هؤلاء . فكان ذلك منه تحذيرا للمسلمين الاوائل من ان يأملوا فى ترحيب يهود مدينتهم جميعا بظهور محمد عليه الصلاة والسلام على انه النبى الذى جاءت النبوءات عنه فى كتبهم التى فيها يدرسون . ومن ان يتوقعوا هذا من قوم كان تاريخهم كذا وكذا .

ولقد كان ذلك ضروريا لأن المؤمنين الجدد كانوا عرضة للتراخى وفتور الهمة بسبب رفض اليهود لدعوة الاسلام . اما اليهود فكانوا قد غدوا وقتئذ على انحطاط ووحشية وقسوة لدرجة ان تلك الآيات التى صهرت أغلظ القلوب — قلوب المشركين الوثنيين الذين اعتادوا وأد بناتهم وقتلهن أحياء — لم تؤثر فى قلوبهم أدنى تأثير بل انهم سخروا منها واستهزأوا بها . لذا أخبر الله المسلمين المتحمسين وقتذاك ان عليهم ان يفهموا وضع اليهود وهم الذين أفسدوا الحقيقة لتناسب أهواءهم ثم حرفوا الدين وجعلوه ميدانا تسقط فيه انعكاسات أحلامهم وأمانيهم .. فكان من الخطأ أن يأمل المسلمون ولو أدنى أمل فى اذعان مثل هؤلاء للحق بمجرد تقديمه لهم وعرضه عليهم .

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

« الفريق » المعنى هنا هم علماء اليهود وأحبارهم وأئمتهم . و « كلام الله » يعنى التوراة والكتب الاخرى التى تلقوها عن انبيائهم . فعلماء اليهود لم يكتفوا بتأويل وتحريف وافساد تفسير الكتب المقدسة التى أرسلت اليهم ولم يقنعوا بقراءة ما يريدون قراءته فيها وانما امتدت أيديهم الى النص الاصلى وألفاظه فعبثت بها وعملت فيها بالتغيير والتبديل .

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

كانوا اذا التقوا همس بعضهم لبعض وحذروا بعضهم بعضا ان يفصحوا للمسلمين عما هو مسطور فى كتابهم عن النبى عليه الصلاة والسلام ونبه كل منهم الآخر الى خطورة تعريف المسلمين بآيات التوراة التى يخشون

ان تفضح حقيقة موقفهم ، بل انهم كانوا يخافون ان يستخدم المسلمون هذه الحجج ضدهم عند الله يوم الدين . وهذا دليل على تصورهم لعلم الله . فقد كانوا يظنون ان لو نجحوا فى اخفاء الحقيقة فى هذه الدنيا فلن يقام عليهم دليل فى الآخرة .

وهذا هو السبب فى أن الله وجه سؤالا تقريريا فى شكل آية اعتراضية تلت ذلك مباشرة فقال تعالى : ((**أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**)) .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

يشير القرآن الى ما كان عليه عامة اليهود من جهل تام بتعاليم كتابهم فما كانوا يعرفون أساسيات دينهم ولا قواعده الاخلاقية او الاسس التى رسمها للحياة اليومية كذلك كانوا لا يعرفون اى السبل تؤدى الى النجاح والفلاح وايها يقود الى الخسران والضلال . ومن أسف انهم كونوا — فى جهلهم هذا — أفكارهم وتصوراتهم عن الدين وعاشوا حياتهم على مزاعم زائفة وآمال مكذوبة وامانى مغلوطة .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

هذه الآية تشير الى ما كان يفعله علماء اليهود فهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم المقدس ليلائم امزجتهم واهواءهم بل خلطوا متنه الاصلى بتفاسيرهم الخاصة وتاريخهم القومى وخرافاتهم وفلسفاتهم وقوانينهم ونظرياتهم التى صاغوها بأنفسهم ثم قدموا هذا المزيج كله فى الشكل الحالى للكتاب المقدس على أنه من عند الله بحيث ان كل قصة تاريخية وكل أسطورة وكل تفسير وكل عقيدة مبتدعة وكل قانون محلى دون فى الكتاب المقدس وحشر فيه حشرا اصبح عندهم من صلب كلام الله فرض على كل يهودى ان يؤمن به كذلك والا رموه بالردة او الهرطقة والخروج .

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً

كانوا يؤمنون بأنهم لن يدخلوا النار رغم فساد عقائدهم وسوء

أعمالهم لا لشيء سوى أنهم « يهود » وكانوا يخدعون أنفسهم بأنهم لن يعاقبوا يوم القيامة وان عوقبوا فلايام قليلة ثم يبعث الله بهم بعدها الى الجنة .

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ
بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ
تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ

هنا يمكننا أن نروى بعضا من فعال القبائل اليهودية التى كانت تقطن اطراف المدينة كشاهد حى على ما جاء فى الآية الاخيرة :

كان اليهود قبل هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينة تربطهم بجيرانهم من القبائل العربية (الاوس والخزرج) أحلاف ومعاهدات فلما اقتتلت هذه القبائل نزل اليهود المحالفون لكل منها ميدان الحرب ضد بعضهم فى حين تنهاهم تعاليم التوراة عن ذلك فانتهكوها وهم يعلمون . فلما سقط بعضهم فى يد بعض أسارى أطلق كلا الطرفين سراح ما عنده لقاء فدية . وحينما سئلوا عن هذه التجارة غير الآدمية فى اخوتهم عللوا ذلك بأن كتابهم اجاز لهم ذلك .

والعجيب انهم نسوا هذا الكتاب حين اقتتلوا ثم اتخذوا تعاليمه مبررا لمسلكهم الآخر . فقبلوا من الكتاب ما أباح لهم اخذ الفدية عن اسرى الحرب وردوا منه ما يحرم عليهم قتال اخوتهم فى الدين .

فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ

قد تعنى « روح القدس » الوحى والتنزيل أو جبريل عليه السلام الذى كان يهبط على الانبياء او روح عيسى عليه السلام التى خلقها الله طاهرة زكيـة .

و « البينات » ترمز الى معجزاته وصفاته الشخصية العجيبة وميلاده الاعجازى وكلها كانت فى عين كل منصف محب للحقيقة دليلا واضحا على انه نبى من عند الله .

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ

عنوا بذلك اننا على ايمان قوى متين يحمينا من الوقوع تحت نفوذ اى شىء يتعارض معه او يناقضه .

وأمثال هؤلاء هكذا يخدعون انفسهم — لانهم اسارى الاهـــواء والاغراض — فيؤمنون بأن هذا الموقف العنيد المتغطرس الذى يتشبثون به علامة ايمانهم المتين الحصين وبالتالى خيرهم وصلاحهم . والحق ان ليس ثم رذيلة اكبر من تشبث المرء بعقائده الموروثة وحماسه لأفكاره المتواترة مهما كانت هناك حجج دامغة وادلة مفحمة ناطقة بفسادها وتحللها .

بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

كان اليهود — قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام — ينتظرون فى لهفة ظهور النبى الذى تنبأ به كتابهم . وكانوا يدعون فى صلواتهم « ليأت (النبى) سريعا فننتصر على الكافرين ونستعيد مجدنا السليب » . وقد شهد اهل يثرب انهم كانوا يعيشون فى هذا التوقع والانتظار حتى اصبح قولهم « ليستبد بنا الوثنيون كيف شاءوا فسنحاسبهم حين يأتى النبى » قولا مشهورا . وعلى هذا حين علم اهل المدينة بأمر محمد عليه الصلاة والسلام تذكروا كل ذلك وتوقعوا ان يكون هو النبى الذى سمعوا عنه من اليهود فسارعوا الى الايمان به وتصديقه كى لا يكون لليهود قصب السبق فى هذا . وكان ذلك سبب ان استعصى على اذهان اهل يثرب فهم موقف اليهود الذين تحولوا — وهم الذين كانوا ينتظرونه فى لهفة وشوق — الى اشد معارضيه بدلا من ان يكونوا أول مؤازريه .

اما عن حقيقة انهم عرفوا النبى عليه الصلاة والسلام فقد وردت فى ذلك ادلة كثيرة واوثق دليل قول السيدة صفية احدى زوجات النبى وابنة حيى بن اخطب وعمها ابو ياسر بن اخطب وكانا من علماء اليهود اذ تقول :

« لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء غدا عليه ابى حيى بن اخطب وعمى ابو ياسر بن اخطب فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينـــا فهششت اليهما فوالله ما التفت الى واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمى ابا ياسر وهو يقول لابى :

س

— اهو هو ؟ ج

— اتعرفه وتثبته ؟ — نعم والله .

— فما فى نفسك منه ؟ — نعـم

— عداوته والله ما بقيت .

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ

قد تعنى هذه الآية ايضا ما اتعس وابأس ما باعوا من اجله حياتهم الآتية وخلاصهم فى الآخرة .

لقد جعلهم تكبرهم وتعصبهم العنصرى نافرين من الحق كارهين له لمجرد انه جاءهم على يد محمد عليه الصلاة والسلام وهو من ولد اسماعيل لا من نسل اسحق اذ هم كانوا يودون ان يكون هذا النبى من صلبهم وعنصرهم . فلما جاءهم من عرق هو فى نظرهم اقل رتبة من عنصرهم رفضوا تصديقه . ومعنى هذا ان الله جل شأنه كان عليه ان يستشيرهم قبل ان يصطفى رسوله . اما وقد اختار بنفسه رسولا فقد اخطأ .

أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ

وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟

مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ

بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن

كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

الآية الاخيرة جاءت من الله ردا مفحما لهم ومعناها ان لو كنتم مؤمنين بالآخرة حقا فلا تخشوا الموت بل فضلوه على هذه الحياة الدنيا . ومع هذا فقد تعلقوا — ويتعلقون — بالدنيا وامورها اكثر من الآخرة حتى ان مجرد التفكير فى الموت والقيامة والحساب يفزعهم ويلقى فى قلوبهم رعبا وهلعا .

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ

كلمة « حياة » المستخدمة هنا تنكيرا تعنى انهم يعشقون الحياة دون اكتراث بنوعها . فلا يعنيهم ان كانت تقوم على الفضل والشرف ام على الخزى والعــار .

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ

واليهود لم يتطاولوا بالسباب على محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين فحسب بل امتدت السنتهم الى جبريل عليه الســلام وهو رسول الله المختار فقالوا انه عدو لنا وانه ليس ملك السلام والبركة بل ملك المصائب والنقم .

فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

ولأن جبريل أنزل القرآن على النبى صلى الله عليــه وسلم بأمر الله فهم بسبهم اياه يسبون الله عز وجل .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

يعنى ان عداوتكم ايها اليهود لجبريل عليه السلام وسبكم اياه بقبيح الالفاظ ليس وراءه سبب آخر غير انه نزل بالقرآن . وحيث ان هذا

القرآن يؤكد تعاليم التوراة وما جاء فيها اذن فأنتم بالتالى تسبون كتابكم المقدس .

وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

فى الآيات السابقة حذر الله اليهود عواقب موقفهم من القرآن ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وفى هذا الجزء من الآية يطالب الله اليهود أن يدرسوا الأمر من وجهة صحيحة . وبما أن القرآن يرسم طريق الهداية القويمة ويبشر المؤمنين بالفوز والنجاح فما معارضته ورفضه اذن سوى حماقة كبرى . وعلى هذا فهم لا يضرون غير انفسهم بحرمانها من الفوز الحقيقى الذى يستتبع الايمان به .

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ

فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ

الشياطين جمع شيطان ويطلق على الانس والجن واللفظ هنا يشير الى كلا المعنيين . فحين تردى اليهود فى قيعان التنزل ماديا وخلقيا وفقدوا كل شميلة نتيجة استعبادهم وأسرهم وجهلهم وفقرهم وتيههم وتشردهم تولوا الى السحر والشعبذة والعرافة والدجل وغيره وراحوا يخادعون انفسهم بأنهم سيستطيعون التنبؤ بمضائرهم ومعرفة نهاياتهم دون القيام باى عمل . ومن هنا بدأت الجن تضلهم وتغويهم فنسبوا السحر والطلسمات الى سيدنا سليمان عليه السلام وزعموا أنه كان مدينا بملكه العريض وقواه الخارقة للسحر والشعوذة التى كانوا يعلمونها للناس فما كان من اليهود الا أن أسلموا أنفسهم لهم وفرحوا بهذا وكأنهم نالوا صيدا سمينا أو وقعوا على مغنم كبير فشرع أحبارهم يزاولون السحر وفنونه مما أسفر عن اهمالهم التوراة وصموا آذانهم عمن كانوا يدعونهم لهدى الله .

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ

هنــا ينفى القرآن التهمة التى الصقوها بسليمان عليـه السلام من اشتغال بالسحر وما اليه كما يبرئه من التهم الأخرى التى نسبت اليـه فى التوراة .

تقول التوراة « وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون .... فالتصق سـليمان بهؤلاء بالمحبـة .... فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى .... وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماما » (الملوك الأول ١١)

فالقرآن ينفى عنه كل هاتيك التهم والتلفيقات وكأنه يقول ان سليمان لم يكن كافرا أبدا لأن الكافر وحده هو الذى يعشق النسوة ويعبد الاصنام والآلهة الاخرى ويرتكب ما هو عند الله فاحشة ومنكر .

يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ

الواقعة التى تشير اليها هذه الآية فسرت تفاسير مختلفة غير أن ما أفهمه أنا منها أن بنى اسرائيل حين كانوا فى بابل يبدو أن الله بعث اليهم بملكين فى صورة أناسى لاختبارهم ويجوز أن يكون هذان الملكان أقاما معهدا ــ مثلا ــ لتعليم الناس فنون السحر الا أنهما كانا يحذران كل من جاءهما ليتعلم السحر ويقولان له ان ما نفعله ليس الا فتنة نبلوكم بها فلا تدمر أولاك وأخراك باستمدادك العـون منه . ورغم هذا التحذير أقبل اليهود عليهما زمرا ابتغاء السحر وطلبا للطلاسم والرقى والتمائم وغـير ذلك من ألوان الخرافات .

وليس من استغراب فى قدوم ملائكة فى سمت البشر كمندوبين من عند الله لأنهم مزودون بقوى خارقة غير عادية . أما لمـاذا كان الملكان يعلمان الناس السحر فسبيلنا الى فهمه التمثيل والاستشهاد :

ان مثل هـذا كمثل « البوليس » الذى يتخذ عدته ليعطى الموظفين المرتشين أوراق عملة مميزة لديه كى يقبض عليهم متلبسين . وكما لا يوجد فى مسلك « البوليس » هذا خطأ أو استغراب كذلك ليس من استغراب أو خطأ فيما فعلته الملائكة لاختبار اليهود المنحطين المنحرفين .

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ

كان أكثر ما ابتغاه اليهود من السحر حصولهم على تميمة أو سحر يساعد على بث الفرقة والنفور بين الزوجة ورجلها ليسهل عليهم غوايتها فيما بعد . وهذا يوضح لنا مدى التحلل والفساد الذى وصلت اليه أخلاقهم فقد كانت متعتهم القصوى أن يعشقوا زوجات الآخرين تمهيدا لفصلهن عن أزواجهن .

والحق أن هذا المسلك كان أسوأ أشكال الفساد والانحلال الخلقى لأنه يضرب بفأسه فى جذور الحياة الاسرية التى تشكل أساس المجتمع فأن صحت العلاقة بين المرء وزوجه أضحى المجتمع سليما متينا وان فسدت فسد المجتمع وتفسخ .

يقول الحديث النبوى :

« ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته فيدنيه منه ويقول نعم أنت » .

وفى نور هذا الحديث نستطيع أن نفهم لماذا أمر الملائكة الذين ارسلوا الى بنى اسرائيل لامتحانهم أن يقدموا لهم « السحر » الذى يفرق بين المرء وزوجه . والحقيقة أن هذا المسلك كان المعيار الذى يقيس انحطاط أخلاقهم ويزنها وزنا عادلا .

وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

فى الجزء التالى أمر الله المؤمنين أن يأخذوا حذرهم من كافة الوان الشرور التى كان اليهود يثيرونها ضد الاسلام والجماعة الاسلامية والى

جانب هـذا أزيلت الريب والمظان التى كانوا ينثرونها فى قلوب المسلمين وعقولهم وعولجت المشاكل الخاصة التى ظهرت فى ساحة النقاش بين المسلمين واليهود .

ونشير هنا الى أن اليهود ـ حين قدم الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة وبدأ ينشر الاسلام فيما حولها ـ حاولوا توريط المسلمين فى ألوان مختلفة من الجدل والنقاش اللاهوتى وسعوا لنقل هذا المرض المستشرى فى عقولهم ونفوسهم الى المسلمين الأوائل المخلصين . ولذا كانوا يحضرون مجالس الرسول وينزعون الى أخبث الاحاديث وأمكرها مما أثبت فساد عقليتهم .

لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟

كان اليهود اذا حضروا للقاء الرسول عليه الصلاة والسلام اظهروا له احتراما جما بينما اجتهدوا فى سرائرهم لاهانته والاستخفاف به فكانوا يستخدمون ألفاظا أو يلوون نطق كلمات معينة فتصبح شتائم واهانات . فكانوا اذا أرادوا مثلا لفت انتباهه قالوا له « راعنا » وهى كلمة تعنى انتبه الينا كما أن هناك كلمة تماثلها فى النطق فى اللغة العبرية تعنى « أتسمع أم أنت أصم » كذلك فهى تعنى فى العربية الاحمق الجاهل (١) وتعنى فى العامية « ان سمعت لنا فسنسمع لك » ثم بحركة خفيفة فى النطق تصبح « راعينا » (أى من يرعى لنا الغنم) .

لذا أمر المسلمون بدل استخدام هذا اللفظ ـ أن يقولوا « انظرنا » وهى كلمة تؤدى نفس الغرض دون أن يكون لها أى معنى آخـر . كذلك نصحوا بأن ينصتوا حين استماعهم للرسول عليـه الصلاة والسلام كى لا يلزمهم لفت انتباهه .

وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن
رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ
أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

(١) الراعن والأرعن من الرعونة ـ المترجم .

الآية الأخيرة رد من الله على الاعتراض الذى أثاره اليهود ليبثوا الشك فى عقول المسلمين اذ قالوا ان القرآن يؤكد أن التوراة كتاب من عند الله وأن الله أنزل القرآن أيضا فلو كان هذا صحيحا فكيف يأمر بأشياء تختلف عما جاء فى الكتب السابقة من قبل ؟ وكيف يوصى نفس الاله وصايا مختلفة ويصدر تعليمات متباينة فى أوقات مختلفة ؟ كذلك قالوا أن القرآن يدعى أن اليهود والنصارى نسوا جزءا من التعاليم والآيات التى بعثت اليهم فكيف يمكن أن تمحى تعاليم الله وآياته من الذاكرة والأذهان ؟.

والواضح تماما أن اليهود ما أثاروا هذه الاعتراضات بغية الوصول الى الحقيقة بل لاثارة الشبهات وخلق الارتباكات . فجاء رد الله على اعتراضاتهم بقوله اننى أنا الحاكم المطلق لا شئ يحد قواى وفى وسعى أن ألغى أى أمر أصدرته أو أسمح بنسيانه لكننى آتى ببديل عنه يؤدى نفس الغرض على نحو أفضل أو على الأقل على نحو مماثل .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ

كان مرض الجدل والسفسطة مرضا مزمنا فى نفوس اليهود وقد راحوا يوجهون الى المسلمين أسئلة تافهة ويحثونهم على الاستفسار عنهامن رسول الله عليه الصلاة والسلام . ولما كان اليهود لايريدون بهذا الا بث الفتنة والشقاق أمر الله المسلمين ألا ينحوا نحوهم وأمرهم الرسول ألا يشغلوا فراغهم بخلق المفارقات واقتفاء الجدل والقيل والقال لان هذا السبيل قضى على الامم التى خلت من قبل فقال فى حديثه :

« ذرونى وماتركتكم فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا ».

وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

يعنى أن عداوتهم وخصومتهم وحنقهم وحسدهم يجب الا يجعلكم تفقدون صوابكم وتوازنكم فلا تضيعوا أوقاتكم الثمينة وجلالكم ووقاركم فى نقاشات ومجادلات معهم بل انتظروا أمر الله وحكمه فى صبر وتماسك واصرفوا أوقاتكم فى فعل الخير وذكر الله فذلك ما فيه نفعكم عند الله .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن
كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ

يعنى أن هذه ليست الا أمانيهم لكنهم يؤكدونها كما لو كانت حقائق ستقع فعلا .

قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ
عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

المقصود «بالذين لايعلمون» هنا مشركو الجزيرة الوثنيون الذين كانوا لا يعلمون عن التوراة شيئا .

فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ
فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ

يعنى أن المساجد وأماكن العبادة ينبغى الا تكون فى أيدى الظالمين الباغين أمثال أولئك بل فى يد المؤمنين المتقين كى يحذر الاشرار ارتكاب الأذى والسوء فيها لئلا ينالهم العقاب والجزاء .

كذلك تعنى الآية أن كفار مكة كانوا يمنعون اخوتهم الذين اعتنقوا الاسلام من دخول الكعبة دون وجه حق فى حين أن الكفار أنفسهم كانوا يسمون الكعبة « بيت الله » .

لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ

يعنى أن الله تعالى ليس محصورا فى ناحية بعينها شرقا أو غربا بل هو مالك الاتجاهات كلها وصاحب الامكنة جميعا لا يحده مكان أو اتجاه ، وأن حددت جهة خاصة للعبادة فليس معنى هذا أن الله أتخذ فيها مقاما ومسكنا ولهذا ليس من حاجة بنا الى الدخول فى مناقشات عن سبب تحديد مكان خاص لاداء العبادة دون سواه أو عن سبب تحولكم من الجهة التى كنتم تتعبدون تجاهها من قبل الى ناحية أخرى تغايرها

إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

تعالى الله أن يحده مكان أو زمان أو يحصره أين ولا كيف وحاشاه أن يكون ــ كما زعموا ــ ذا أفق ضيق وبصيرة قصيرة أو يلحق به فقر و عوز وهو الغنى بلا مثال . بل العكس صحيح فسبحانه واسع لا حدود لملكه وملكته ولا نهاية لبصيرته وحكمته وجوده وفضله وعليم يعلم من يذكره من عباده ومتى وأين وبأى نية يذكره .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ

كان مطلبهم أحد أمرين أما أن يأتى الله أمامهم فيرونه رأى العين وأما

أن يريهم آية كبرى تثبت أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) رسول من الله حقا وأن مايتلوه وحى من الله فعلا .

كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ

يعنى أن مطالب واعتراضات من يعارضون الحق اليوم ليست جديدة بل هى نفس الاعتراضات والمطالب التى اوردها اولئـــك الذين حادوا عن جادة الصواب من قبل لأن أهل الشر فى كل العصور يفكرون بمنهج متماثل ويتبعون فى مناقشاتهم أسلوبا واحدا بعينه .

قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

أما مطلبهم الأول ـــ رؤية الله بأعينهم ليكلمهم بنفسه ـــ فكان سقيما لايقبله العقل السليم أو المنطق القويم ومن ثم لم يلزم له رد من الله . وأما المطلب الثانى ـــ أن يريهم الله آية من عنده ـــ فيرد الله عليه هنا بأنه تعالى قد بين آيات جليات عديدة لا يراها من لا يريدون التسليم والايمان .

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

أن شخصية محمد عليه الصلاة والسلام نفسها هى أبرز وأجلى آية ـــ بصرف النظر عن الآيات الأخريات ـــ فلقد كانوا يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن حياته الشريفة قبل أن تأتيه النبوة ، وكانوا عارفين ملمين بظروف بيئته وقومه ، وكيف نشأ وتربى ، وكيف أمضى من عمره أربعين حولا قبـــل أن يبعث رسولا ، وكانوا على يقين من أن كل هذا ليس فيه ما يؤدى الى تلك الاعمال الخارقة المدهشة التى قام بها ومن ثم فلابد من كونه رسولا من الله حقا . ولعمر الحق أن ذلك لهو أوضح آية لايلزم الاتيان بعدها بآية أخرى.

وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

يعنى أن السبب فى عدم رضا هؤلاء عنك ليس هو شـغفهم وحبهم واخلاصهم للحقيقة التى أخفقت فى ايضاحها لهم على خير وجه كما يزعمون وانما مرد ذلك الى أنك قد بينت الحقيقة لهم تمام التبيين ، ولم ترض باختيار سبيل النفاق والرياء ، وتمسكت بعبادة الله بدل عبادة النفس ، ولم تجعل الدين ومبادئه مسايرا لرغبات النفس ونزعات الهوى وهو السبيل التى أعتادوها وسلكوها فدعهم وشأنهم فمن المستحيل أن يرضوا عنك طالمانك لن تفهم الدين بفهمهم ولن تجعله ذريعة لعبادة وتاليه الذات وتفعل كل ما يفعلون .

قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

هنا يشـير الله الى المتقين الصادقين من أهـل الكتاب الذين يقرأون كتاب الله بأمانة وصدق واخلاص ويؤمنون به لا لشىء الا لأنهم يرونه (الحق) حسب ما قال عنه الله .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

من هنا يبدا خطاب آخر موجه الى اليهود . ولكى نفهمه علينـا أن نضع فى اعتبارنا عدة مسائل هى :

١ ــ كان أبراهيم عليه السلام أول نبى ــ بعد نوح ــ أختـاره الله لينشر رسالة الاسلام العالمية الشاملة فبدأ عمله فى وطنه العراق ودعا الناس للاسلام (الاذعان والتسليم لله) ثم زار سوريا وفلسـطين ومصر والجزيرة العربية فى اطار دعوته ومهمته . ثم أختار له نوابا فى مواطن عدة فوكل الى لوط ابن أخيـه أمر ما وراء الأردن والى اسحق ابنه أمر سوريا وفلسطين والى اسماعيل ابنه الأكبر أمر الجزيرة العربية (عليهم أجمعين السلام) ثم أمره الله ببناء بيت للعبادة فى مكة هو الكعبة واوصاه أن يتخذه مركزا لمهمته ودعوته .

٢ ــ تفرعت من ابنى ابراهيم عليه السلام أمتان الأولى بنو اسماعيل وهم سلائل اسماعيل بن ابراهيم الذى اتخذ الجزيرة العربية له مستقرا ،

وكانت قريش وقبائل عربية أخـــرى من أصلابه أما القبائل العربيـــة التى لم تكن من نسله فقـــد ادعت نسبها الى بنى اسرائيل لأنهم كانوا متأثرين برسالته فى كثير أو قليل .

والثانية بنو اسرائيل وهم أنسال يعقوب بن اسحق ومنهم ظهر يوسف وموسى وداود وسليمان ويحيى وعيسى وغيرهم كثير (عليهم أجمعين السلام) وقد سموا ببنى اسرائيل بعد أن سمى يعقوب باسرائيل . ودخل فيهم من اعتنقوا دينهم من الأقوام الآخرين . ولقد جاء كل أنبياء بنى اسرائيل بما فيهم عيسى عليه السلام بالاسلام أى الخضوع والتسليم لله الا أن بنى اسرائيل حين تدلوا الى الانحطاط وفقدوا دينهم (الاســـلام) ابتدعوا اليهودية كما ابتدع الآخرون المسيحية .

٣ ــ عين الله ابراهيم ليدعو العالم لأن يسلم لله وليقوم الناس وفق الهداية الالهية وقد أسلم هو نفسه لله وعمل وفق ماتلقاه من المعرفة الالهية وبذل ما فى وسعه لتبليغ هذه المعرفة وحض الناس على الاسلام لحـــاكم العالم ولذا فقد جعله الله امام العالم ثم نقلت هذه الزعامة من بعـــد بكل مسئولياتها ومقتضياتها الى بنى اسرائيل أنسال اسحق ويعقوب وكانت هذه هى النعمة والتفضيل الخاص الذى طالما ســـئل بنو اسرائيل أن يذكروه . وعلى هذا فقد أصبح الهيكل فى بيت المقدس أثناء عهد سليمان قبلةمن يعبدون الله ما بقى بنو اسرائيل زعماء هذه الرسالة .

٤ ــ وجه الله سبحانه وتعالى فى خطاب سابق (من الاية ٤٠ الى الاية ١٢١) اتهامه لبنى اسرائيل بارتكابهم جرائم الاهمـــال واللامبـــالاة والتهاون اثناء زعامتهم ولهذا يشير القرآن الى حالتهم الاخلاقية ويخبـرهم صراحة أنكم قد أثبتم عدم جدارتكم بما أسبغ عليكم من فضل ونعمـــة فلم تكتفوا باهمال القيام بواجبات الزعامة ومسئولياتها بل طرحتم هداية الله خارج حياتكم وانتهى الأمر بكم الى أن أصبحتم الآن أمـــة لا تصلح لتولى الزعامة على الاطلاق .

٥ ــ أخبرهم القرآن صراحة أن الزعامة ليست امتيازا يمنح لنسل ابراهيم دائما وأبدا لأن أحدا لا يستطيع الادعاء بأنها مقصورة عليه وحده لمجرد صدفة الميـــلاد انما هى معطاة لمن أسلموا لله فحسب واتبعوا هداه مثـــل ابراهيم عليه السلام ولأن بنى اسرائيل قد انحرفوا عن هذا الطريق واثبتوا أنهم غير جديرين بالزعامة مطلقا فقد أقصوا عنها وحـــرموا هذا المنصب الشريف .

٦ ــ هذا الخطاب يشير الى أن اليهـــود من غير بنى اسرائيل وكذا المسيحيين الذين كانوا يفخرون بنسبهم الى ابراهيم عليه السلام قد انحرفوا أيضا كما انحرف بنو اسرائيل عن طريق ابراهيم وحذا حذوهم وثنيو الجزيرة العربية الذين كانوا يتعالون بانتسابهم الى ابراهيم عن طريق اسماعيل . وقد أخبر الجميع أنهم غير أكفاء على الاطلاق لحمـــل لواء الزعامة لانهـــم جميعا نكصوا عن طريق ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

٧ — الآن وقد طرد بنو اسرائيل من منصب الزعامة تستمر المناقشة لتبين لماذا بعث محمد عليه الصلاة والسلام نبيا من بين بنى اسماعيل استجابة لضراعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وذلك لأنه سلك نفس الطريق الذى سلكته الانبياء من قبل وآمن وأتباعه بالانبياء جميعهم ودعوا العالم أن يسلك نفس الطريق الذى أوضحه الانبياء السابقون ومن ثم فاتباع هذا النبى هم أجدر بتلك الزعامة وأحق وأكفأ من غيرهم .

٨ — وبنقل الزعامة كان ضروريا أن ينقل مركزها أيضا . ولقد ظل بيت المقدس قبلة أتباع الحقيقة ومركزهم ما دام بنو اسرائيل فى منصب الزعامة . وهذا هو السبب فى أن النبى وأتباعه كانوا يولون وجوههم شطره فى الصلاة أول أمرهم ولكن حين عزل بنو اسرائيل عن الصدارة تعطل بيت المقدس عن أن يكون قبلة ومركزا . ثم أعلن الله أن الكعبة — فى مكة حيث بدأ محمد عليه الصلاة والسلام دعوته — هى قبلة المؤمنين فما استطاع بنو اسرائيل ولا العرب أن يعترضوا على ذلك لأن كليهما يؤمن بابراهيم عليه السلام نبيا وجدا . وبهذا لم يترك لهم أى سبب يثيرون من أجله الاعتراضات حول جعل الكعبة مركزا للرسالة الالهية لكن الحقيقة أن أولئك المعاندين المكابرين سوف يواصلون النقاش والجدال ضد الحقيقة — كما سنرى — حتى بعد معرفتها والتأكد من أنها هى الحقيقة القاطعة .

٩ — بعد أعلان زعامة المسلمين وأن الكعبة مركزهم يصدر الله اليهم تعليماته (من الاية ١٥٣ الى ١٨٦) كى تهديهم وتمكنهم من الوفاء بمسئولياتهم كزعماء للعالم كله .

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ *

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

يصف القرآن فى مواطن عدة تفاصيل الاختبار الصعب التى وضع فيه ابراهيم قبل أن يجعله الله اماما للبشرية كلها . ولما اجتاز ابراهيم كافة الامتحانات بنجاح واثبت انه كفء وقادر على الاضطلاع بالمسئولية العظمى رفعه الله مكانا عليا وأنعم عليه بهذا المنصب الرفيع

ومنذ أن أوحى اليه الحق من ربه وحياته كلها الى نهايتها سلسلة من

التضحيات فى سبيل الحق فقد ضحى ابراهيم عليه السلام بكل نفيس فى الحياة وواجه كل نوع من المخاطر فى سبيل الحقيقة .

بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يعنى أن هذا الوعد لا ينطبق الا على من كان من ذريتك صالحا كفءا وليس على أولئك العادين الظالمين . وبالطبع لم يكن بنو اسرائيل الضالون ولا بنو اسماعيل الوثنيون أهلا لأن ينالهم هذا العهد الذى عاهد الله ابراهيم عليه .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

تطهير بيت الله لايعنى تنظيفه من الاوساخ والقمامة فحسب بل كذلك من سائر أنواع العبادة الباطلة حتى لا يدعى ولا يعظم فيه غير اسم الله . والتطهير الحقيقى لبيت الله هو عدم ذكر غيره فيه لان عبادة أحد سواه أو استحضار اسم غير اسمه ومناجاته طلبا للمدد والعون يدنس بيت الله حقا .

كذلك تتهم هذه الآية قريشا — بطريق غير مباشر — بجريمة حفظ الاصنام داخل الكعبة وعبادتهم لها من دون الله . وتشير الى أن أولئك الوثنيين الذين كانوا يفخرون بأنهم ورثة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لم يقوموا بواجبات هذا الميراث ومن ثم فقدوا كما فقد بنو اسرائيل كل حق فى أن ينالهم العهد الذى عاهد الله عليه ابراهيم عليه السلام .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

حين دعا ابراهيم ربه أن يرزق أهله وذريته من الثمرات ويمـدهم بما يلزمهم فى الحياة الدنيا استثنى من دعائه الظالمين لأن الله قد استثناهم من وعده بالزعامة . غـير أن الله أزال فى هـذه الآية ما التبس على ابراهيم وكأنه يقول له : هناك فرق كبير بين الامرين فرغم أن الزعامة الحقيقية لن تعطى الا للمؤمنين حقا الا أن أسباب العيش سوف تعطى لكل من الكافرين والمؤمنين على السواء .

وتعنى هـذه الآية أيضا أن الثراء ليس علامة رضا الله عن الانسان كما أن الفقر ليس دليل غضبه وسخطه . فان أصاب المرء قناطير مقنطرة من الذهب والفضة فلا يعنى هذا أن الله راض عنه وأنه فى نظر الله حقيق بالامامة جدير بالزعامة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً
لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ

يزكيهم أى يطهرهم وتطهير الحياة يعنى تطهير العقائد والأفكار والسلوك والأعمال والعـادات والتقاليد والثقافة والاقتصاد والسياسة . باختصار تطهير كافة جوانب الحياة واقسامها .

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ولان الله عزيز ذو قوى مطلقة له عنان السماوات والارض حكيم بلا نهاية فقد استجاب لدعاء ابراهيم عليه السلام وبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رسولا .

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

أسلم يعنى كن مسلما أو اتخذ موقف الاسلام وعلى هذا فالمسلم هو من يسلم نفسه لله تماما ويطيعه ويذعن له ويعترف ويؤمن به وحده مالكه وسيده وربه وحاكمة وسلطانه ومشرعه والهه المعبود ويسلك سبيل الحياة الذى أثره له وأمره به . هذه العقيدة وهذا المنهج هو الاسلام وهو دين الانبياء جميعا الذين بعثوا منذ بدء الخليقة فى مختلف الامم والبلدان .

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

ورد هنا ذكر يعقوب عليه السلام خاصة لأن بنى اسرائيل هم نسله المباشر .

يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

كلمة «دين» فى العربية كلمة ذات معنى واسع كبير لا يفى بالتعبير عنه لفظ RELIGION فى الانجليزية أو ما يرادفه فى اللغات الاخرى . ومعناه فى العربية يغطى الحياة باكملها ولايشذ عن مجاله منحى من مناحى حياة الفرد أو الجماعة (١) .

---

(١) لتوضيح اكثر انظر شرح أستاذنا المودودى لمعنى « الدين » فى كتابه المصطلحات الاربعة فى القرآن — المترجم .

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

رغم أن التوراة تفصل موت يعقوب تفصيلا الا أنها تلتزم الصمت حول وصيته الأخيرة هذه .ومع هذا فقد وردت هذه الوصية فى التلمود ولااختلاف بين مضمونها ومضمون ما جاء فى القرآن يقول التلمود :

« فلما أوشك يعقوب أن يغادر الدنيا جمع أبناءه وقال لهم اعبدوا الله الهكم ينقذكم من كل ضيق كما أنقذ آباءكم .... علموا أبناءكم حب الله وحفظ وصاياه لانه سيحفظ من يعدلون ويستقيمون على طرقه كلها ... فاجاب بنو يعقوب سنفعل كل ما أوصيتنا به يا أبانا وليكن الله معنا فأجاب يعقـــوب سيكون معكم ما لم تحيدوا عن طريقه يمينا أو شمالا » .

وقد اورد RODWELL نفس الشيء عن وصية يعقوب فى المدراش (١) اذ قال يعقوب لبنيه :

« أفى قلوبكم شك حول الواحد القدوس تبارك وتقدس قالوا : اسمع يا اسرائيل أبانا كما لا يوجد فى قلبك شك لا يوجد فى قلوبنا كذلك لأن الرب الهنا واحد » .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

يعنى رغم أنكم من صلبهم الا أنه لاتربطكم بهم صلة حقيقية وليس لكم الحق فى ادعاء الارتباط بهم والانتساب اليهم لانكم أنحــرفتم عن صراطهم وطريقهم ولن يسألكم الله عما فعل أجدادكم بل سيســألكم عما كسـبت أيديكم .

ان أعمالنا وأفعالنا ليست فى عين القرآن الا كسب أيدينا لأن كل فعل وعمل ــ سواء أسفر عن نتيجة خير ام عاقبة سوء ــ ان خيرا فسيجزينا ربنا عنه خيرا وان شرا فسيعاقبنا به الله شرا . والقرآن انما يشير الى الأعمال والأفعال كمكتسبات لكى ينبهنا الى النتائج الخطيرة التى تسوق اليها .

---

(١) تفسير التوراة التقليدى وهو يماثل التلمود ويضم الحكم والقصص والأحكام التى جمعها أو اختلقها الحاخامات بعد اتمام التلمود ودونوها فى هذا الكتاب « المدراش » خوف الضياع ــ المترجم .

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

لكى يتضح المعنى الحقيقى لرد الله على قولهم ينبغى أن نضع فى أذهاننا أمرين :

١ ـ أن اليهودية والنصرانية قد ولدتا بعد موت ابراهيم عليه السلام بردح طويل فظهرت اليهودية بطقوسها وشعائرها ولوائحها وقوانينها وتعاليمها الخاصة وتسمت بهذا الاسم قبل الميلاد بقرابة اربعة قرون أما المسيحية فتسمت بهذا الاسم وتبنت عقيدتها الخاصة وشكلها المميز بعد المسيح عليه السلام .

وبذا يتضح أن ادعاءهم ضرورة أن يكون المرء يهوديا أو نصرانيا لينال هداية الله ادعاء يتعذر الدفاع عنه تاريخيا لأنه يعنى أن ابراهيم وعيسى وموسى وسائر الأنبياء الآخرين الذين مضتوا منذ أزمان سحيقة قبل ابتداع اليهودية والنصرانية لا يمكن أعتبارهم من زمرة المهتدين لسبب بسيط هو أن هذه الاديان المزعومة (اليهودية والنصرانية) لم يكن لها وجود حين كان هؤلاء الأنبياء يعيشون فى بقاع هذا العالم . ولهذا اتضح أن اهتداء الانسان لا يعتمد فى أساسه على الخصائص الدينية التى بسببها انقسم اليهود والنصارى وغيرهم الى فرق مختلفة وانما يعتمد على اختياره ذلك الصراط المستقيم الشامل الذى يستمد الانسان منه الهداية فى كل حين .

٢ ـ أن هذا الرد يعنى كذلك تعريف اليهود والنصارى بان كليهما مشرك بالله وبذا فقد حادوا عن سبيل أبراهيم عليه السلام الذىلم يشرك مع الله أحدا فى العبادة أو التبجيل والتقديس أو التسليم والخضوع والطاعةولم يستطع أحد منهم أنكار هذا لان كتابهم نفسه يشهد به .

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

يعنى أننا نؤمن بالانبياء ولاننكر أحدا منهم ولانفرق بينهم فنقول هذا كان على الحق وذاك لم يكن لان كافة الانبياء الذين بعثهم الله الى البشر جاءوا بحقيقة واحدة ودعوا الناس الى هداية واحدة . وعلى هذا فمن أتبع هدى الله فعليه أن يؤمن بأنبياء الله جميعا أما من يؤمنون بنبى ويكفرون بآخر فهم فى حقيقة الأمر يكفرون حتى بمن آمنوا به لانهم فى الاصل ما تبعوا هداية الله الامية التى علمها لهم موسى وعيسى وسائر الانبياء الآخرين عليهم السلام بل انهم آمنوا بنبى توارثوا الايمان به عن آبائهم وأجدادهم فدينهم اذن هو التعصب لنسلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم وليس اتباع نبى من الأنبياء والسير على طريقه القويم

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

قد تعنى الآية الأخيرة « اننا اخترنا صبغة الله » وقد تعنى أيضا « اصطبغوا بلون الله وصبغته » .

وقبل ظهور المسيحية كانت تروج بين اليهود عادة تعميد من كانوا يعتنقون اليهودية وكان ذلك رمزا يشير الى غسل ذنوب المعمد وخطاياه واكتسائه بلون حياة جديد . ثم أخذ المسيحيون هذه العادة أيضا وسميت «الاصطباغ» أو «التعميد» وهى تغطيس من تهود أو تنصر تغطيسا طقسيا فى الماء أو صب الماء عليه كشعيرة أساسية أو سر مقدس من أسرار الكنيسة . وليس هذا التعميد خاصا بمن اعتنقوا دينهم حديثا فحسب بل بكل طفل يولد لهم .

والقرآن هنا يقول أن ليس فى هذا «الاصطباغ» ماينجى بل سبيل النجاة هو الاصطباغ بصبغة الله وذلك بالسير على نهجه والخضوع لقانونه وشرعته .

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

يعنى أننا لانقول سوى أن الله ربنا وربكم وأن علينا أن نخضع له جميعا فهل فى قولنا هذا ماتجاد لوننا وتنازعوننا فيه ؟ ولو أن ثمة مجال للمحاججة

والخصومة فحرى بنا نحن أن نفعل ذلك لا أنتم لان الذين يشركون بالله أشياء أخرى هم أنتم لانحن .

كذلك قد يعنى نص الآية أيضا : أتحاجوننا لأجل الله ؟ ولو أن خصومتكم ونزاعكم لنا لاجل الله وفى سبيله وليس لاجل الهوى والمنفعة الدنيوية ففى الامكان تصفية ذلك فى ود وتفهم

وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

يعنى أنكم مسئولون عن أعمالكم ونحن عن أعمالنا مسئولون . فان جعلتم مع الله شركاء فى الوهيته وأطعتموهم وعبدتموهم فانتم احرار فى هذا وستتحملون نتائجه . أما نحن فقد أفردنا الله وحده بالطاعة وأخلصنا له الخضوع والاذعان فان قبلتم اعطاءنا الحرية فى أن نفعل هذا انقضى كل نزاع وانتهت كل خصومة بيننا مهما كانت .

أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ

هذا السؤال موجه الى العامة من اليهود والنصارى الذين آمنوا فى جهالتهم ايمانا شديدا بأن هؤلاء الأنبياء العظام كانوا جميعا يهودا أو نصارى .

وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

وجه القرآن هذا السؤال الى علمائهم الذين كانوا بجهلون أن اليهودية والنصرانية بخصائصهما الحالية كانتا من نتاج عصر تال وكانوا يخدعون أنفسهم بظنهم أن الحقيقة مقصورة على شيعتهم الى جانب أنهم جعلوا عامتهم يعتقدون خطأ أن النجاة تتوقف فى أصلها على الايمان بتلك العقائد والطرق والاجتهادات التى وضعها فقهاؤهم وصوفيتهم ومتكلموهم بعد الأنبياء بحقب ودهور . وكانوا اذا سئلوا عن ابراهيم واسحق ويعقوب وغيرهم من الانبياء الى أى فريق منكم ينتمون هربوا من الاجابة الصريحة لانهم ما كانوا يستطيعون الزعم بانتمائهم الى هؤلاء أو أولئك وذلك لعلمهم بأن التاريخ يبطل زعمهم . ورغم الحقيقة الساطعة لم يفحصوا عن أن سائر

الأنبياء ما كانوا هودا ولا نصارى لما فى اقصاحهم من تفنيد لزعمهم وتفتيت لدعواهم .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا

يشير الى تحويل القبلة من بيت المقدس الى المسجد الحرام بعد أن ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يتجه فى صلاته بادىء الامر الى بيت المقدس الى أن جاءه أمر من الله أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام بعد هجرته الى المدينة بستة عشر وسبعة عشر شهرا . كما سيأتى تفصيله بعد ذلك .

قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

حين تحولت القبلة الى المسجد الحرام راح السفهاء ــ الذين لم تكن لديهم البصيرة التى يفهمون بها المعنى الحقيقى لهذا التحويل ــ يثيرون اعتراضات ومزاعم يبلبلون بها فكر المؤمنين وظنوا ــ لحمقهم وغبائهم ــ أن الله قد تحدد مكانه فى تجاه معين (هو بيت المقدس) وأن تغيير القبلة الى الكعبة لا يعنى سوى التحول عن ذات الله . فأبطل الله زعمهم هذا باعلانه للناس أن المشارق والمغارب والجهات جميعا لله رب العالمين .

والحق أن جعل القبلة فى مكان ما لايعنى أن الله جل شأنه وتعالى قد اتخذها له مقاما ولايذهب الى مثل هذه الافكار الضيقة والنظريات القاصرة من أنعم الله عليهم بهداه ورشده .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

هذا هو اعلان زعامة الأمة الاسلامية وكلمة « كذلك » تشير الى كل من الهداية الالهية التى ارسلت على يد محمد عليه الصلاة والسلام والى تغيير القبلة فبالسير على طريق هذه الهداية انجز المسلمون كل تلك التفوقات

والنجاحات التى أدت الى جعلهم «أمة وسطا» وبتغيير القبلة من المسجد الأقصى الى الكعبة الشريفة انتقلت الزعامة من بنى اسرائيل الذين أقصوا عنها الى المسلمين وهم الزعماء الجدد . فتغيير القبلة اذن لم يكن مجرد تبديل مكان أو اتجاه كما فهمه السفهاء بل كان فى حقيقة الاعلان الرسمى لسحب الزعامة من بنى اسرائيل وتسليمها الى أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

« وأمة وسطا » تعبير واسع فى معناه شامل فى مداه حتى انه لا يمكن ترجمته الى ألفاظ فى اللغات الأخرى تفى بمعناه العميق الممتد . فالامة الوسط هى تلك الأمة المستقيمة الشريفة التى لا تشذ عن الحدود اللائقة بل تتبع الطريق الوسط وتتعامل مع أمم العالم على أساس العدل والانصاف وتكون منهم كالقاضى النزيه وتقيم علاقاتها مع غيرها من أمم العالم الأخرى على دعائم الحق والشرعية

ثم من جعلكم « أمة وسطا » انما جعلكم هكذا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا فسبحانه وتعالى يعنى أن الرسول بوصفه نائبنا المسئول سيشهد عليكم — يوم نأتى بكم جميعا لتنالوا حسابكم — انه أبلغكم بشكل تام غير منقوص كل ما علمناه من فكر سليم وعمل صالح ونظام عادل وانه طبقه أمام أعينكم وأراكم اياه . ثم انكم ستشهدون على البشر أجمعين — بوصفكم نوابا عن الرسول عليه الصلاة والسلام — انكم لم تقصروا أدنى تقصير فى تبليغهم ما أبلغكم الرسول اياه وتوضيحه وتفسيره لهم .

أن من يصدر اليه أمر من الله كى يكون شاهدا من قبله على البشرية — فردا كان أم جماعة — لهو فى الحقيقة عالى الدرجة رفيع المقام سامى القدر فى امامة هذه الدنيا وزعامتها وحيث توجد الأفضلية ويعلو الشأن يتعاظم عبء المسئولية ويجسم .

ومعنى هذا أن على الامة الاسلامية أن تصبح شاهدا حيا أمام العالم كله فى التقوى والحق والعدل تماما كما كان الرسول شاهدا أمامها . وأن تكون أقوالها وأعمالها مظهرة للعالم معنى الحقيقة اظهارا تاما . كذلك تعنى هذه الاية أن على الامة الاسلامية مسئولية كبرى سوف تحاسب عليها يوم الدين فكما كان الرسول صلوات الله عليه مسئولا عن تبليغ الهداية الالهية فان المسلمين مسئولون عن تبليغها وتوصليها الى البشرية جمعاء فان فشلوا فى اقامة الدليل العملى على انهم ادوا هذا الواجب ووفوا بمقتضيات هذه المسئولية بكل ما فى جهدهم ومقدورهم فسوف يعاقبهم الله ويعمهم وكافة شركائهم وقرنائهم الاشرار بعذاب عظيم على ما انتشر من الشرور والمآثم والفجور خلال فترة توليهم الزعامة وسيحشرون فى زمرة شياطين الانس والجن حيث يسألهم ربهم اين كنتم غافلين عن شيوع المفاسد وماذا قدمتم لوقف سيول الرذيلة والخطيئة والاستبداد والفسق والطغيان والعقوق التى كانت تجتاح العالم ؟

وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ج

يعنى ان المقصود من هذا معرفة من يدركون الحقائق ادراكا سليما ممن يقدسون العصبيات الجاهلية ويعبدون أواصر الدم والأرض . ففى ناحية كان هناك العرب الذين كان يسيطر عليهم الفخر بوطنهم وجنسهم ولم يكونوا على استعداد لترك قبلة العرب واتخاذ قبلة بيت المقدس وهو الأمر الذى يحطم صنم قوميتهم . وفى ناحية أخرى كان هناك بنو اسرائيل الذين كان يتملكهم الغرور والفخر بنسلهم وسلالتهم وكان من المستحيل عليهم قبول قبلة اخرى غير قبلة آبائهم واجدادهم . وطبيعى ان هذا الصنم — صنم العصبية القومية الذى كان يعربد فى قلوبهم وعقولهم — لم يكن فى مقدوره ان يتجه بهم الى حيث يدعوهم رسول الله . لهذا جعل الله بيت المقدس قبلة اول الامر ليفرق بين المؤمنين الصادقين وبين من يعبدون صنم العصبية والقومة العربية ثم جعل الكعبة بعد ذلك قبلة ليفرق بين المؤمنين ايضا وبين من يقدسون وثن القومية الاسرائيلية . وهكذا لم يبق مع الرسول سوى من كفروا بالاصنام على اختلاف انواعها وآمنوا بالله وحده .

وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ

هذا هو الامر الصادر بتغيير القبلة وقد نزل فى رجب او شعبان من العام الثانى للهجرة حين كان الرسول عليه الصلاة والسلام — حسب رواية ابن سعد — يؤم من كانوا فى بيت بشر بن معرور فى صلاة الظهر وكان قد ذهب يزوره تلبية لدعوته فنزلت هذه الآية وهو فى منتصف الصلاة فأدار وجهه على الفور شطر الكعبة اثناء الصلاة واستدار معه من كانوا خلفه أيضا . ثم أذن فى المدينة وما حولها بعد ذلك أن القبلة قد تغيرت . ويقول البراء بن عازب ان بعض القوم سمعوا بهذا حين كانوا فى صلاتهم راكعين فاستداروا كما هم شطر المسجد الحرم . ويقول انس بن مالك ان

رجلا من بنى سلمة مر بهم وهم ركوع فى صلاة فجر اليوم التالى وقد صلوا منها ركعة فصاح ان قد حولت القبلة فمالوا نحو الكعبة كما هم .

ونحن نعرف ان بيت المقدس يقع من المدينة المنورة فى شمالها وتقع الكعبة منها فى الجنوب ولابد لاتمام حركة الاستدارة صوب الكعبة ان يتحرك الامام الى مؤخرة الجماعة ويستدير المصلون خلفه ثم يتحركوا قليلا ليساووا صفوفهم وهذا كله مروى فى كتب الحديث تفصيلا .

والآية ((**قد نرى تقلب وجهك فى السماء**)) و ((**فلنولينك قبلة ترضاها**)) يظهر منها ان النبى صلى الله عليه وسلم ظل يدعو ربه ان يحدث هذا التحويل وكان ينتظر تحقيقه لأنه كان يشعر بانتهاء فترة زعامة بنى اسرائيل وبالتالى توقف بيت المقدس عن مهمته فى ان يكون مركزا للهداية وقبلة للمؤمنين وضرورة أن تصبح الكعبة التى رفع قوائمها ابراهيم عليه السلام قبلة ومركزا .

و ((المسجد الحرام)) يعنى ((المسجد ذا الحرمة والعزة)) والمقصود به ذلك المكان الذى تتوسطه الكعبة فى مكة .

ولا يعنى الامر ((**فول وجهك شطر المسجد الحرام**)) ان يولى الانسان وجهه جهة الكعبة تماما حيثما كان لان هذا بالطبع صعب على الانسان أن يفعله فى كل وقت وفى كل مكان . ولهذا يأمرنا القرآن أن نولى وجوهنا شطره وليس اليه مباشرة . وعلى المرء ان يجتهد فى تحديد الاتجاه الصحيح نحو الكعبة فاذا رأى ان هذا الاتجاه او ذلك هو اكثر الاتجاهات رجحانا نحو الكعبة يمم وجهه شطره اما اذا غم عليه تحديد الاتجاه كأن يكون فى مركب أو قطار مثلا فعليه استقبال الاتجاه الذى يراه ارجح فان بان له الاتجاه وهو يصلى فعليه أن يحول وجهه شطره على الفور .

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

يعنى ان النقاش والجدل حول الحكمة فى تحويل القبلة لا يمكن أن ينتهى عن طريق تقديم الدليل والبرهان لان هؤلاء الناس يعميهم التعصب والغرور ولن يتركوا قبلتهم مهما جاءهم من الادلة والبراهين . كما انه لا يمكن حله وتصفيته باتباعك قبلتهم لانهم لا يتبعون قبلة واحدة بل قبلات متفرقات فان اتبعت احداها رضى عنك اصحابها وظل الباقون — كما هم — ينازعونك ويجادلونك . ولانك رسول من عند الله فلا تستطيع ان ترضيهم عن طريق سلوك سبيل المساومات لذا فمهمتك ان تعرض عنهم جميعا وتستقيم على ما أمرناك به فان حدت عنه ارضاء لغيرنا ظلمت منصب النبوة الذى حبيناكه وجحدت النعمة التى انعمناها عليك بجعلك اماما للعالم .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ

هذا التعبير يعنى فى اللغة العربية « ان الانسان ليس به شك فى تحديد هوية شىء ما » ففلان يعرف كذا كما يعرف ابناءه يعنى انه يعرفه تمام المعرفة . وهو تعبير مشتق من حقيقة ثابتة وهى ان احدا لا يخطىء فى التعرف على ابنائه . وقد استخدم هنا لاثبات ان اليهود والنصارى كانوا يعرفون حقيقة ان الكعبة قد بناها ابراهيم عليه السلام وان بيت المقدس قد بناه سليمان عليه السلام بعد ألف وثلاثمائة عام من بناء الكعبة وانه جعل قبلة فى زمانه تماما كما يعرفون ابناءهم وعلى هذا فالكعبة أعرق واسمى من بيت المقدس ومن ثم لم يكن باليهود قدر ذرة من شك فى الاعتراف بها قبلة فى ضوء هذه الحقائق التاريخية .

وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ

بين الآيتين « ولكل وجهة وهو موليها » و « فاستبقوا الخيرات » ثغرة تركت ليسدها القارىء من تلقاء نفسه . فمن أراد الصلاة فليول وجهه شطر الوجهة التى يرضاها اما صلب الحقيقة فهو الخيرات التى تحصل بأداء الصلاة وليس اتجاه الوجوه الى هنا أو هناك . لذا فاجتهدوا فى فعل الخيرات وتحصيلها بدلا من البحث والتحقيق من المكان والوجهة والمقام .

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن

رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ

شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ

لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

يعنى أننا نكرر تأكيدنا على الا يتجه احدكم فى صلاته صوب وجهة غير التى قررناها فيجد اعداؤكم فى ذلك فرصة ليقولوا هاهم افراد « الامة الوسط » يزعمون انهم مؤمنون بالله شهداء للحق على حين يكذب سلوكهم دعواهم . فبينما يدعون ان الامر بتغيير القبلة صدر اليهم من لدن الله اذا بهم لا ينصاعون له ولا يعملون به .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ

المراد بالنعمة هنا الزعامة التى نحى الله بنى اسرائيل عنها واسندها الى المسلمين وهى الجائزة الكبرى التى تمنح لأى أمة تنتهج الطريق القويم وتسير على الصراط المستقيم وتوكل اليها امامة البشرية وقيادتها الى سبيل الخير والفلاح .

وفى هذه الآية يخبر الله المسلمين بأن تحويل القبلة وتغييرها ليس الا رمز تغيير الزعامة والامامة فعليكم اتباع امرى والحرص على ما اوصيتكم به والا سلبتكم اياها لعصيانكم وجحودكم وكفرانكم . ولسوف اسبغ عليكم هذه النعمة طالما اتبعتمونى واطعتم امرى .

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

يعنى ان اتبعتم امرى فأملوا فى نعمتى . وهذا اسلوب تعبير ملكى فالسلطان اذا قال لخادمه وعبده انتظر منا النعمة الفلانية والاحسان الفلانى فان هذا الوعد كاف لان يجعل العبد يخلص فى طاعة امر سيده وتنفيذه من صميم جوارحه .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ
أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

بعد ان عين الله المؤمنين أئمة وزعماء بدأ سبحانه وتعالى يخاطبهم ويسدى اليهم النصائح والتعاليم والتوجيهات الهامة اللازمة لتدريبهم وتمكينهم من القيام بما يفرضه عليهم المنصب الجديد . واول امر نبههم الله اليه هو ان الامامة والزعامة ليست مقام نعيم قد فرش سندسا ونثر ورودا بل هى منصب يحفه الشوك وتملؤه المصاعب والمخاطر وسوف تظهر لكم فى هذا الطريق أقسى أنواع العوائق والصعوبات وأكدر الوان الفتن والمثبطات حيث تتجرعون المعاناة وتذوقون الآلام والخسائر الكبرى فان تحملتم كل هاتيك المحن بصبر وثبات وواصلتم السير فى طريق الله فسوف يمطركم الله نعمات وبركاتو مننا وعطاءات لا تعد ولا تحصى .

ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

يعنى ان الصبر والصلاة سوف يخلق فيكم الطاقة المطلوبة لتحمل اعباء المسئولية التى اسندت اليكم . فأما الصبر فسيمنحكم الجلد والعزم والثبات فى وجوه المكاره والوان المصائب والحرمان والفاقات والمغريات التى لا محيص من لقائها ومواجهتها ويعطيكم القوة الاخلاقية التى تلزمكم فى طريق الله المحفوف بالمخاطر والمهلكات . واما الصلاة فسوف تدربكم على ضبط النفس والتهذب وتكسبكم الاخلاق اللازمة لنمط الزعماء ونماذج الزعامة السليمة

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

حرام علينا ان نقول لمن رزقوا الشهادة فى سبيل الله « أموات » لان لفظ « الموت » وتصوره يثبط الهمة ويجتث الشجاعة ويقتل روح التضحية والفداء قتلا . ويقضى على حماس القتال فى سبيل الله . وقد طلب الله الى المسلمين ان يؤمنوا بأن الشهداء يحيون حياة ابدية خالدة وهذه حقيقة تحيى فى النفوس روح الشجاعة وتبعث فيها حرارة الاقدام .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم
مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

.. لايعنى هذا نطق هذه الكلمات مشافهة بل يعنى ان نؤمن ايمانا تاما راسخا بأننا لله وحده وعلى هذا فان ضحينا بشىء فى سبيل الله فقد صرفناه فى وجهه السليم لانه راح فى سبيل من ينتمى اليه حقا .

ومعنى ((**وانا اليه راجعون**)) اننا لن نخلد ها هنا ابدا بل سنترك هذه الدنيا ذات يوم لا محالة اذ لا مفر من الموت والرجوع الى الخالق آجلا او عاجلا . ولذا فأفضل لنا كثيرا ان نقاتل فى سبيله تعالى ونضع ارواحنا على اكفنا من أجله من أن نعيش لنرعى مصالح ذواتنا ثم نموت فى مرض او حادث حتف الأنوف .

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ

الحج ما كان فى الأيام المعروفة من ذى الحجة أما العمرة فهى زيارة تطوعية للكعبة فى أى وقت آخر .

وقد اشير هنا الى الحج والعمرة لان الكعبة كانت قد جعلت قبلة للمسلمين منذ عهد وشيك وبالطبع ظهر ما يتعلق بها من مشاكل واسئلة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ

كان السعى بين الصفا والمروة من بين شعائر الحج التى علمها الله لابراهيم عليه السلام . لكن الناس حين بداوا يشركون بالله آلهة باطلة بنوا على الصفا والمروة معابد ووثنوها على اثنين من اصنامهم هما

« آساف » و « نائلة » وكانوا يطوفون بهما تقديسا واجلالا . فلما اعتنق العرب الاسلام تساءلوا هل كان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج اصلا ام انه من بدع الوثنيين ؟ وهل هذا السعى شرك بالله ام لا ؟

ويظهر من رواية للسيدة عائشة رضي الله عنها أن أهل المدينة كانوا يكرهون السعى بين الصفا والمروة قبل اسلامهم . أما وقد جعلت الكعبة قبلة المسلمين فقد أذهب الله عن أذهانهم ما أساءوا فهمه حول السعى بين الصفا والمروة وانبأهم ان هذه الشعيرة هى من شعائر الحج منذ عهد ابراهيم عليه السلام وليست من ابتداع الجاهلين من بعده .

وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

يعنى خير لكم أن تسعوا بين الصفا والمروة بقلوب راضية ابتغاء مرضاة الله من ان تفعلوه كمجرد تنفيذ لامر من اوامره .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ

ان افظع جرائم علماء اليهود انهم قصروا تعاليم كتابهم على احبارهم وكتابهم المحترفين وليتهم حجبوها عن غير اليهود فحسب بل اخفوها عن عامة اليهود ايضا فشرع اليهود يفعلون ما يعد زندقة ومروقا بسبب ما قبعوا فيه من جهل ، وحتى فى هذه الحالة لم يقم احبارهم بأدنى جهد لاصلاحهم وتعليمهم بل استمروا — بطريق مباشر او غير مباشر — فى الاعتراف بشرعية كل مروق للاحتفاظ بشعبيتهم وسط اليهود . وفى هذه الآية امر المسلمون بضرورة نشر ما منحوا من الهداية والدعوة لها بصفتهم زعماء العالم ، وعدم اخفائها عن العامة كما فعل احبار اليهود وكتابهم .

أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

الكفر فى اللغة العربيــة الاخفــاء والجحود ثم ما لبثت الكلمة أن استخدمت للتعبير عن اخفاء الحق وجحوده ثم بعد ذلك للدلالة على رفضه كنقيض للايمان به فالايمان يعنى الاعتقاد والتصديق والقبول والخضوع والكفر يعنى عدم الاعتقاد والتصديق والرفض والمعارضة . والمرء كافر فى نظر القرآن فى عدة احوال :

١ ــ اذا لم يؤمن بالله او رفض الايمان به سلطانا اعلى ومالكا وربا له وللكون كله او رفض الايمان به الها معبودا واحدا .

٢ ــ اذا آمن بالله ورفض قبول اوامره وهداه مصــدرا وحيدا للقانون والمعرفة .

٣ ــ اذا سلم بضرورة السير وفق هدى الله لكنه رفض الرســل الذين جعلهم الله وسيلة تبليغ اوامره وهداه الى الناس .

٤ ــ اذا فرق بين رسل الله فآمن ببعض وكفر ببعض وفق ما يقضى به هواه وتعصبه .

٥ ــ اذا نبذ العقائد والاخلاق والتعاليم الخاصة بنظام الحياة ــ كلها او بعضها ــ والتى بينها لنا الرسل من قبل الله .

٦ ــ اذا سلم بكل هذا نظريا لكنه طرح اوامر الله ووصاياه فى الواقع العملى عمدا واستمر فى مسلكه هذا وعاش حياته على اساس العصيان والتمرد لا على الطاعة والخضوع والامتثال .

الى جانب هذا نرى ان لفظ الكفر مستخدم فى عدة مواضع فى القرآن فى معنى كفر النعمة وهو ضد الشكر . ومعنى الشكر أن يكون المرء معترفا بجميل من انعم عليه مدينا له وان يقدره حق قدره ولا يستخدم النعمة التى انعمها عليه الا وفق ما يشاء وحسب ما يرضى ، وان يمتلىء قلبه بالوفاء لمن احسن اليه وانعم عليه . اما الكفر او كفران النعمة فهو اما ان يرى المرء احسان المنعم ليس الا نتيجة للزمن او لقدراته الشخصية او لرعــاية او توصية احد غير المحسن واما الا يرعى قدر النعمة المسداة اليــه فيضيعها ويبددها واما ان يستخدم هذه النعمة ضد رغبة المنعم ومرضاته واما أن يغدر بالمنعم ويخونه ويبغى عليه رغم انعامه وهذا النوع من الكفر يعبر عنه فى لغتنا بألفاظ مثل نكران الجميل والغدر وما اليه .

وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ

وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ

ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ

ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

ان من لا ينظر حوله كما تنظر الانعام بل يتفحص ذهنه نظام الكون البديع الذى يراه رأى العين ليل نهار ، ولا تجثم على بصره وبصيرته غشاوات الأهواء أو الصلف والكبرياء فى وسعه أن يرى آيات عدة تشير الى الحقيقة فيؤمن أن هذا الكون يحكمه ويدبره حاكم لا متناهى القوة والحكمة ويدرك ان الله وحده هو اله الكون ولا مجال لاشتراك احد معه سبحانه وتعالى وان ليس لاحد غيره من الصفات والقدرات والسلطات ما يجعله اهلا للربوبية والالوهية .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ

يعنى انهم ينسبون الى البعض بعضا من صفات الله التى لا يتصف بها سواه ويخولون آلهة باطلة كل حقوقه تعالى أو بعضها . مثال ذلك ان الله وحده — ولا ريب — له الحكم فوق كل قوى الطبيعة وله الخلق

والامر وله القدرة على تلبية حوائج خلقه اجمعين وسماع دعائهم وسؤالهم ويعلم الجهر وما يخفى ورغم هذا يطلبون « المدد » من الآخرين وينسبون كل او بعض هذه الصفات والقدرات الى آخرين غير الله وبهذا يتخذونهم اندادا لله يسوونهم برب العالمين .

ان حق الله الخاص على رعاياه ان يعترفوا به سلطانا اعلى ويحنوا رؤوسهم له خضوعا وخشوعا ويخافوه وحده سرا وعلانية اما ان خولوا غيره حقوقه كلها او بعضها فقد جعلوا له اندادا وشركاء . ثم ان الله وحده اهل لتقرير ما هو مشروع وما هو غير مشروع وما هو حلال وما هو حرام . وفي يده وحده سلطة تعيين حقوق رعاياه وواجباتهم واقرار ما يلزم من الاوامر والاحكام والتحريمات ونحوها فمن ادعى لنفسه ايا من هذه الحقوق فهو مشرك . كذلك هو وحده من يستحق الاعتراف به حاكما وسلطانا ، وعلى الناس — بصفتهم رعاياه — ان يعتبروا اوامره واحكامه قاطعة نهائية ويتوجهوا اليه طلبا للهداية والرشاد فمن اعطى ايا من هذه الحقوق الى غير الله فقد اشرك به اندادا آخرين . كذا الحال في شأن المؤسسات المجتمعية أو الأشخاص الذين يدعون لانفسهم احدى هذه الخواص أو المراتب ويطالبون الآخرين بأن يبوئوهم هذه المناصب ويخولوهم هذه الحقوق انما يجعلون من انفسهم اندادا لله سواء ادعوا الالوهية رسميا أم لا .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ

يقتضي الايمان حتمية تفضيل المرء رغبة الله ومراده على مراد ذاته ورغبة نفسه ورغبات الآخرين وان يتعلق بالله حبا وايثارا حتى يكون على استعداد للتضحية من اجله تعالى بكل عواطفه ومشاعره الاخرى .

وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ
ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا

هذه نهاية بائسة تعيسة لرؤوس الفتنة وزعماء الضلال والمضلين اجمعين وقد ورد ذكر اتباعهم على وجه الخصوص كتحذير من الله للمسلمين لكى يحسنوا انتخاب زعمائهم واختيار قادتهم . فلقد ضلت الامم الخوالى لاتباعهم قادة مضلين وزعماء فاسدين . وعلى المسلمين ان يستفيدوا درسا وعبرة من مصير من خلوا ، ويفرقوا بين الزعماء والقادة الصادقين وبين المضلين المزعومين ، ولا يتبعوا امر شرار الائمة المفسدين .

كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

امر المسلمون فى هذه الآية ان يكسروا كافة الاغلال التى وضعتها الخرافة وفرضها الجهل على أصناف الطعام والشراب .

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

يعنى ان الشيطان يدفع الناس الى الايمان بأن تلك العادات والقيود الخرافية التى وضعت، على الطعام والشراب دون سلطان من الله جزء من الدين فرضها الله ، رغم عدم وجود برهان يثبت هذا ويؤيده .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ان ما عندهم من سلطان لما يؤمنون به ويتبعونه من خرافات هو ان آباءهم واجدادهم كانوا كذلك يفعلون . وهذا دليل قوى فى اعين الحمقى وجهلاء الناس اجمعين .

ع

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

هذا المثل له وجهان : —

١ — ان هؤلاء الناس يشبهون قطعان الماشية التى تسمع نداء سائقها وتتحرك تجاه الصوت، دون أن تعى معنى ما يقول .

٢ — ان وعظ هؤلاء الناس كمن يخاطب ويعظ المواشى والانعام التى تسمع الاصوات فحسب ولا تدرك لما يقال لها معنى ولا مضمونا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

هنا أمر المؤمنون بالاطاحة بكل صنوف القيود غير المشروعة وكافة انواع التحريمات التى لا وجه لها ولا ضرورة والتى فرضها العلماء والشيوخ والاحبار والصوفية ، والقساوسة والاجداد ومن اليهم :

وان كانوا يؤمنون بالله حقا كما يظهرون ، فعليهم ان يمتنعوا عن تناول ما حرمه الله وان يطعموا ما احله لهم دون تردد .

يقول الحديث النبوى « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فهو مسلم » ومن ثم فمن تردد فى اكل ما احله الله لا يكون قد اسلم بعد اسلاما حقيقيا حتى ولو كان يصلى صلاة المسلمين ويستقبل قبلتهم . وعليه ان يتخلى عن نوازع الجهل وخرافاته ان كان اسلم لله حقيقة . لان مجرد « تقيده » بالتقاليد والعادات القديمة دليل وبرهان على انه لا يزال متشبعا بسموم الجهل والجاهلية .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ

ينطبق هذا على لحم الحيوان او الطير الذى يذبح على اسم احد او شىء غير الله وكذا على الطعام الذى ينذر لغير الله . والحق ان كل

شيء من الله والى الله وممنوح من فضله ويده . ولذا ينبغى ان ينذر له وحده علامة على الاقرار بفضله ونعمته فان نذر الانسان شيئا لأحد غير الله فهذا يعنى انه قد اعترف بمن نذر له سلطانا اغنى ومانحا للنعم وواهبا للخير والفضل او على الاقل شريكا لله فى هذه الامور .

فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

فى هذه الآية رخص للمسلمين ان يطعموا ويشربوا ما حرمه الله تحت شروط ثلاثة :

١ ــ ان تكون الحالة حالة اضطرار فعلا كأن تكون الروح على وشك الهلاك جوعا او عطشا او يتهددها شبح الموت وليس هناك طعام او شراب ميسور غير ما هو « حرام » .

٢ ــ الا تكون فى قلب المضطر رغبة فى معصية اوامر الله والخروج على قانونه .

٣ ــ الا يتجاوز المضطر حدود الضرورة . فان كان بضع كسرات او قطرات او قضمات من الطعام او الشراب الحرام تكفى لانقاذ روحه فعليه الا يزيد عن ادنى حد يحفظ بقاءه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ

اولئك هم علماؤهم واحبارهم الذين حجبوا عن العوام ما كان عندهم من علم بالكتاب وزكوا شيوع الخرافات والعادات الباطلة والقيود التى لا اساس لها والتى تمخضت عن ميلاد دساتير جديدة وشرائع مستحدثة فارتكبوا بذلك جريمة الصمت عن فشو السنن الخبيثة بين العوام والسكوت عما كانوا يقترفونه ويتخذونه من مسالك ما انزل الله بها من سلطان . ليس هذا فحسب بل ان الاحبار رأوا فى هذا نفعا لهم ومصلحة فتركوا شريعة الله خافية محجوبة عن اعين الناس مجهولة على عقولهم .

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

هنا تفنيد للدعاوى الزائفة التى طنطن بها الزعاء والائمة المزعومون وحرصوا على نشرها بين العامة . فهم يحاولون ان يقروا فى اذهان الناس طهر اصلهم وكرم محتدهم وبراعة سرهم وقوة تأثيرهم ونفوذهم وورعهم وصلاحهم . والناس يعتقدون بضرورة التمسك بهم واتباع طرقهم كى يتوسطوا لهم عند الله ليغفر لهم . فالله يرد على ذلك فى هذه الآية قائلا اننا لن نلتفت اليهم او نقر بطهرهم وصلاحهم .

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ
فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ
بَعِيدٍ (١٧٦) * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ

هنا ضرب الله مثلا بالتوجه الى المشرق والمغرب ليوضح عدم جدوى التمسك بظاهر الشعائر والطقوس الدينية حيث لا خير فى مجرد استقبال الشرق او الغرب فى الصلوات ، قاصدا بذلك أن يفهم الناس ان مجرد أداء الشعائر والعبادات الشكلية أو اظهار التقوى والورع ليس بالخير الحقيقى عند الله ولا وزن لذلك فى عينه تعالى .

وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى

لفظ « القصاص » يرمز الى تساوى الحيوات فى حالات القتل ومع هذا فهو لا يعنى وجوب قتل القاتل بنفس الطريقة التى قتل بها بل يعنى فقط ان تسلب حياته كما سلب هو حياة من قتله .

ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ

فى هذه الآية اقر الله مبدأ المساواة فى الحياة لمواجهة ادق متطلبات العدالة فتقييم الحياة وبالتالى تقدير العقوبة عليها لا يحدد بمنصب القتيل أو القاتل وأهميته ولهذا فقد تقرر بوضوح ان القاتل وحده هو من يدفع ثمن جريمتـــه .

ولقد كان الناس قبل الاسلام يولون حياة ابناء قبيلتهم اهمية وقدرا كبيرا ويطلبون من قبيلة القاتل حياة رجل من نفس المرتبة والمنصب او أرواح عشرات ومئات ثأرا وانتقاما وفقا لاهمية القتيل وقدره . ومن جانب آخر اذا كان القـــاتل أعلى قدرا من المقتول قضوا بألا تؤخذ حيـاته مقابل حياة القتيل . هذا الظلم والحيف لم يقتصر على تلك الحقبة الجاهلية دون غيرها بل حتى الامم المتحضرة اليوم لا تخجل من التصريح علانية بأن لو قتل من افرادها رجل فسوف تأخذ نظيره ارواح خمسين من قوم القاتل وكثيرا ما نسمع ان كذا من الرعايا قد قتلوا انتقاما لمقتل احد افراد الامة الحاكمة . أما ان كان القاتل من أمة متحضرة حاكمـــة والمقتول من أمة محكومة غير متحضرة ترى قضاتهم النزهاء لا يحكمون عليه بالموت . ولكى يقينا الله شرور هذه الاحكام الظالمة امر بضرورة اخذ حياة القاتل — والقاتل وحده دون غيره — نظير حياة القتيل بصرف النظر عن حسب او نسب كليهما .

فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ

استخدام كلمة « أخيه » هنا يحوى نوعا من التوصية فكأن الله يريد ان يقول « رغم أن القاتل قد آلمك وافجعك الا انه فى النهاية اخوك بحكم ما بينكما من علاقة انسانية لذا فان تكظم غيظك وتكبح غضبك من أخيك الآثم المخطىء المسىء وتحجم عن التـــأثر والانتقام وتعف عن توقيع عقوبة الموت عليه فسوف ترفع من مستوى آدميتك وانسانيتك » .

كذلك تبين هذه الآية ان القتل فى قانون العقوبات الاسلامى جريمة يمكن تسويتها وديا كما تعطى اهل القتيل حق العفو عن القاتل ان رأوا ذلك انسب وفى هذه الحالة ليس فى استطاعة المحكمة ان تصر على قتله ويصبح عليه بالطبع ان يدفع الدية عوضا عن العقوبة اذا طالب المدعى الشرعى (اهل القتيل) بذلك .

فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ

كلمة « معروف » استخدمت فى مواضع عدة فى القرآن وهى تعنى القواعد السلوكية العادلة المنطقية المعروفة والمقبولة لدى الاشخاص العدول . وهى قواعد واسس معروفة واضحة حتى أن كل من لا تطمس بصيرته أهواؤه ومصالح شخصه يقرها ويعترف بها حقا وعدلا . هذه القواعد والاعراف العامة تسمى « معروفا » وتقررها الشريعة الاسلامية فى كل امر لم يضع الشارع فيه قانونا واضحا او قاعدة قاطعة .

ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

اذا حاول اهل المقتول مثلا الثأر والانتقام بعد قبولهم الدية فهذا ظلم وتعد ، كذا ان رواغ القاتل (او أولياؤه) فى دفع الدية او لم يشأ تسليمها بالحسنى او سلك فى هذا مسلكا بغيضا فهذا تعد أيضا فكلا الطرفين يجب ان يكون شهما نبيلا . ويحترم مشاعر الود التى يظهرها الطرف الآخر تجاهه .

وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذه الآية تدمغ دعاوى من يريدون الغاء العقوبة القصوى (الاعدام) فان كان الاصرار على الثأر دون مبالاة بكافة الاعتبارات الاخرى عملا وحشيا فان تشجيع القتل عن طريق الغاء الحد الاقصى للعقوبة الغاء تاما لهو عمل يساويه فى الوحشية . من اجل هذا يعلن الله ان فى القصاص حياة . فلو أن مجتمعا لم يرع حرمة الحياة وحاول حماية القاتل فهو بهذا يشجع الناس على ارتكاب الجريمة ويجعل ارواح كثير من الابرياء عرضة للجور والخطر .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

هذا الامر بكتابة الوصية اصدره الله حين كان قانون الميراث لم يتقرر بعد وكان الهدف من هذا الامر حماية الورثة الشرعيين ضد العسف والجور غير ان الرسول صلى الله عليه وسلم بينه لنا على قاعدتين فى ضوء قانون الميراث الذى شرعه الله فى صورة النساء . الاولى ان لا احد يورث وريثا شرعيا شيئا بوصية يعنى لا انقاص ولا زيادة فى الأنصبة التى جددها القانون ولا يؤخذ من وريث نصابه او ينال اكثر من حقه الذى خوله له القانون . الثانية ان التوريث بوصية قد حدد بثلث الميراث فحسب يعنى ان المرء ينبغى ان يترك ثلثى ثروته ليقسم بين الورثة حسب ما يقضى به القانون وقد يورث ذويه المعوزين — الذين لم يعطهم القانون نصيبا من الميراث — ثلث ثروته بوصية او يترك هذا الثلث للاعمال العامة وما اليها . لذا فمن الخطأ أن نزعم ان القانون الخاص بكتابة الوصية قد نسخ والغى تماما كذلك فهو حق فرضه الله على المتقين فان نفذ فى اسلوب مناسب وبطريقة عفيفة نظيفة فان عديدا من المشاكل سوف تجد لها جلا — مثل مشكلة توريث الحفيد اليتيم وغيرها — دون التلاعب بقانون الميراث الاسلامى .

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ

نهج الاسلام فى اغلب احكامه وفروضه نهج التدرج . وهذا ديدنه فى مسألة الصوم ايضا . فلقد نصح الرسول عليه الصلاة والسلام اتباعه أول الامر ان يصوموا ثلاثة ايام كل شهر ولم يكن ذلك فرضا مفروضا . ثم فرض الله على المسلمين صوم رمضان فى العام الثانى للهجرة بتنزيله الامر الوارد فى هذه الآية . ومع هذا كان ثمة خيار للقادرين عليه أن يفتدوا صيامهم باطعام مسكين عن كل يوم يفطرونه (انظر آية ١٨٤) ثم بعد ذلك اصدر الله امرا نهائيا قاطعا (الآية ١٨٥) نسخ به ما سبق وسلب القادرين على الصيام ما كان أعطى لهم من رخص وأجازات وسمح بها للمرضى ومن هم على سفر فحسب وللحبالى والمرضعات والمسنين قياسا .

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾

يعنى من اطعم اكثر من مسكين عن كل يوم يفطره او من اطعم مسكينا وصام فى نفس الوقت .

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

كان الامر بالصوم الذى ورد فى الآيتين ١٨٣ ، ١٨٤ قد نزل فى السنة الثانية للهجرة قبل وقعة بدر اما الآية التالية التى نسخته فقد نزلت بعد عام آخر لكنها ادرجت هنا لانها تعالج نفس الموضوع .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾

تركت للمرء حرية الاختيار فى ان يصوم او يفطر ان كان على سفر وقد صام بعض الصحابة وفطر بعضهم حين كانوا مع النبى فى سفر ولم يعترض الرسول عليه الصلاة والسلام على اى من الفريقين بل ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه نفسه صام احيانا وافطر اخرى فى بعض اسفاره

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فرأى رجلا قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه فقال « ماله قالوا رجل صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس البر ان تصوموا فى السفر » .

كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر المقاتلين بارجاء الصوم الى ما بعد القتال ويروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه انهم افطروا رمضان مرتين بأمر من الرسول . اولاهما فى وقعة بدر وثانيتهما فى فتح مكة ويقول ابن عمر رضى الله عنهما ان النبى عليه الصلاة والسلام قال فى فتح مكة « انه يوم قتال فافطروا » وفى رواية اخرى « انكم قد دنوتم من عدوكم فافطروا اقوى لكم » .

وليس بين ايدينا تصريح من احاديث الرسول يبين قدر المسافة التى من اجلها يفطر المسافر . وسنة الصحابة مختلفة فى هذا الباب والصواب انها المسافة التى تسمى فى العرف العام سفرا والتى يشعر المرء فيها انه بالفعل على سفر .

والمتفق عليه ان المرء له ان يفطر فى اليوم الذى يبدأ فيه سفره سواء أكل ثم خرج من بيته أو أكل بمجرد خروجه منه فكلا الأمرين ثابت فى أسوة الصحابة .

أما عن افطار المرء ان كان يقيم فى مكان يهاجمه العدو فهناك اختلاف فى الرأى حوله وبعض العلماء لا يجيزونه لكن الامام احمد بن تيمية أفتى بجوازه استنادا الى ادلة قوية وحجج دامغة .

يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

يا له من اله كريم رحيم واسع الجود والفضل لم يشأ ان يحرم عبيده من فضل ادراك الصيام فلم يجعله قصرا على شهر رمضان بل فتح برحمته وعطفه بابا آخر امام من فاتهم الصوم لاسباب شرعية كى يصلوا من خلاله الى ادراك فضل الصوم وذلك بأن أمرهم بصيام ما فاتهم فى أيام أخر ليكملوا عدته وليحمدوا الله على خير نعمة انعمها عليهم وهى تنزيله القرآن فى هذا الشهر العظيم .

وواضح من الآية أن صوم رمضان لم يفرض كشكل من أشكال العبادة والتدرب على تقوى الله فحسب بل كحمد لله وثناء عليه واعتراف بحسن جميله الذى اسداه الى المسلمين وهو تنزيله القرآن اليهم فى هذا الشهر .

والحق ان امثل طريق لشكر الله وحمده على نعمته هذه هو ان نعمل بكل جهد على تحقيق ما من اجله اسبغ الله علينا هذه النعمة . فسبحانه وتعالى انعم علينا بنعمة القرآن ليبين لنا هداه ومرضاته وعلينا تحقيق ذلك وحض الآخرين عليه . وما الصوم الا عبادة لله ونبع يمدنا بأفضل واوفى تدريب فى ذلك ، ودليل على شكرنا لله وثنائنا عليه لما حبانا من نعمة كبرى هى القرآن الكريم .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى

يعني رغم انكم لا تستطيعون رؤيتى او ادراكى بحواسكم الا اننى لست بعيدا عنكم ولا يجب أن تظنونى هكذا . فاننى قريب من كل عبد من عبادى اذا دعانى أسمع وأجيب حتى سؤالاته ومطالبه التي تجيش فى صدره ولا ينطق بها لسانه ان الآلهـة المزعومة التى تخلقونها بأنفسكم فى جهالتكم وحماقتكم مهمـا ذهبتم اليهم فلن يسمعوكم أو يجيبوا لكم سؤلا أما انا فاننى السلطان الاعلى والحاكم المطلق للكون اللامتناهى ومالك كل شىء ورب كل قوة وسلطان فعال لما اريد اسمعكم واراكم واجيب دعاءكم دون أن تلزمكم وساطة أحد ليرفع الى طلباتكم اينما كنتم ومتى شئتم وأيا كانت منزلتكم فى الحياة الدنيا . فعليكم اذن ان تخلصوا انفسكم من حماقة السعى من درب الى درب خلف الآلهة الباطلة المزعومة وتقبلوا دعوتى وتتوجهوا الى وتؤمنوا بى وتصيروا لى عبادا خاضعين .

لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

يعنى لعلهم يتعلمون منك (ايها الرسول) هذه الحقيقة فيسلكوا الطريق القويم الذى فيه فلاحهم ورشدهم .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ

يعنى ان العلاقة ما بين الزوجين كتلك التى بين الثياب والجسـد . فكما ان اللباس والجسد ملتصقان ببعضهما متناسبان لا يتخلل بينهمـا شىء كذلك المرء وزوجه يرتبط كلاهما بالآخر وثيق الارتباط وكل منهمـا للآخر مصدر راحة ونبع سكينة متبادلة .

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ

رغم انه لم يصـدر من الله أمر صريح بادىء الأمر بمنع اتصال المرء بزوجه فى ليالى رمضان الا ان المسلمين حسبوا هذا غير مباح لهم حتى ان كان بعضهم اذا فعلوه استقبحوه وشعروا انهم مذنبون ولاموا انفسـهم فخيف ان تتربى فى المسلمين عقلية مذنبة مجرمة ولذا اخبرهم الله أولا

بخيانتهم انفسهم وضمائرهم ثم احل لهم ليلة الصيام الرفث الى نسائهم كى يفعلوا ذلك وضمائرهم ساكنة ونفوسهم مطمئنة .

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟

كذلك كان يشيع بين المسلمين فهم خاطىء حول ميقات الاكل والشرب فى رمضان فكان بعضهم يرى ذلك ممنوعا من بعد صلاة العشاء حتى غروب شمس اليوم التالى ، وآخرون كانوا يظنون ذلك مباحا ما دام الانسان متيقظا حتى ولو بعد صلاة العشاء ولا يمتنع عن الطعام والشراب الا اذا نام وكثيرا ما كان الضيق والانزعاج يفرط عليهم بسبب هذه الظنون التى صورتها لهم اذهانهم فأزال الله عنهم كل ضيق ومحا عن ألبابهم ما ساء من تصورات وحدد لهم فى هذه الآية فترة الصيام من فجر اليوم الى غروبه واحل لهم الطعام والشراب والنكاح من غروب شمس اليوم الى فجر اليوم التالى . وقد نصحنا الرسول وارشدنا الى ان نتناول وجبة السحور قبل الفجر استعدادا للصيام .

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ

جعل الاسلام الحنيف قياس الوقت فى شعائره هو القياس الذى يستطيع البشر تطبيقه فى كل زمان ومكان وهذا هو السبب فى انه لا يضع حدود شعائره بناء على الساعات وآلات التوقيت البشرية وانما يحددها بعلامات واضحة فى سماء الكون . وهذا معيار زمنى يناسب الناس فى كل عصر ومصر ويمكنهم تحديده بقياس الساعات الزمنية بين حدود وعلامات المعيار الالهى المقررة ليناسب ظروفهم . أما الذين لا يفهمون فلسفته فيثيرون اعتراضات خرقاء واسئلة حمقاء يقولون — مثلا — ان العمل بهذا الميقات الالهى محال عند قطبى الكرة الارضية حيث يدوم الليل أو النهار الى شهور وينسون انه حتى فى الأقاليم القطبية تظهر علامات الصباح والمساء والظهر وغيره بانتظام كما فى المناطق الاخرى وان القاطنين هناك ينظمون اوقات عملهم ولعبهم وراحتهم ونومهم ونحوه وفق ظهور هذه العلامات وحين لم تكن ثم آلات لضبط الوقت كان سكان المنطقة الشمالية يحددون اوقاتهم بهذه العلامات .

ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ

المراد باتمام الصيام الى الليل انتهاؤه حين يبدأ حد الليل فى الظهور

وبالطبع يبدأ حد الليل بغروب الشمس ولذا علينا ان نفطر عند مغيب الشمس .

اما السحور فينتهى موعده برؤية خيوط الصبح البيضـاء ترتفع فى الجانب الشرقى من الافق واما الافطار فيبدأ حين ترتفع ظلمة الليل من الافق الشرقى فى نهاية النهار . والناس فى هذه الايام يتشددون ويتزمتون اعتباطا فى تحديد وقت السحور والافطار الا ان الشريعة تخلو من مثل هذا التحديد الصارم بالدقيقة والثانية فبضع دقائق او ثوان زيادة او نقصا لا تفسد الصيام فبزوغ السحر الابيض من وسط ظلمة الليل السوداء يحمل فى داخله متسعا وفسحة وحلال للمرء اذا استيقظ من نومه آن طلوع الفجر ان يسرع فيأكل ويشرب . فلقد جاء فى الحديث :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنعن احدا منكم اذان بلال (أو نداء بلال) من سحوره فانه ينادى ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم »

كذلك فى الافطار ليست هناك ضرورة لانتظار زوال ضوء النهار أيا كان بعد غروب الشمس فلقد روى فى الحديث الشريف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فلما غابت الشمس قال لرجل انزل فاجدح لنا فقال يا رسول الله لو امسيت قال انزل فاجدح لنا قال ان علينا نهارا فنزل فجدح له فشرب ثم قال اذا رأيتم الليل قد اقبل من هاهنا (واشار بيده نحو المشرق) فقد افطر الصائم » .

وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ

الاعتكاف عبادة تطوعية فى العشر الاواخر من رمضان وذلك بأن يحبس المرء نفسه فى المسجد متعبدا متفكرا ليله ونهاره الى جانب ادائه الفروض . ويستطيع المرء ان يخرج من المسجد ليقضى حاجاته الضـرورية القصوى ولكن عليه ان يعتزل ملذات الدنيا ويجتنب الرغبات والنزوات .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا

لم يقل سبحانه وتعالى لا تتعدوها بل قال لا تقربوها ومعنى هذا انه خطر على المرء ان يحوم عند المقام الذى يبدأ عنده حد المعصية . والسلامة فى ان يبقى المرء بعيدا عن الحدود كى لا تنزلق قدمه وتتخطاها سـهوا ونسيانا . وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المعنى فى حديثه فقال : « لكل ملك حمى وان حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك ان يقع فيه » ومن اسف ان بعض من يجهلون شريعة الله يصرون على ان يقربوا هذه الحدود رغم هذا التحذير الواضح بل ويقدح كثير من العلماء والشيوخ زناد عقلهم بحثا عن الاسانيد التى تبيح لهم الذهاب الى آخر

الحدود ونهايتها حيث لا يبقى فاصل بين الطاعة والمعصية غير شعرة دقيقة مما نتج عنه ان ازدادت المعاصي ووقع الناس في الضلالة إذ ليس في وسع كل انسان ان يميز الحد الدقيق الفاصل بين الطاعة والمعصية ويقربه ثم يسيطر على نفسه ويتحكم فيها .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ *

معنى هذه الآية الا تحاولوا الحصول على فائدة شرعية برشوتكم الحكام . ومعناها الثاني أن عليكم الا تذهبوا الى المحاكم لتأكلوا أموال الناس — وأنتم تعلمون انها أموالهم — بحجة ان ليس لديهم ما يثبت ملكيتهم لها . فقد يحكم القاضي باعطائكم تلك الاموال لكن حكمه هذا غلط في اصله وصادر بناء على ادلة ومستندات زائفة ومع حصولكم على حكم من المحكمة يخولكم ملكية هذه الاموال الا ان هذا لا يعني ان ملكيتكم لها قد اضحت حقا مشروعا بل انها عند الله حرام في حرام .

جاء في الحديث ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « انما انا بشر وانتم تختصمون الى ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما اسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق اخيه فانما اقضى له بقطعة من النار »

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ

شد ما استحوذت منازل القمر على انتباه البشر في كل آن . وما اكثر ما وجد في كل بلد من خرافات وطقوس بشأنها . والعرب — كأمة من الامم — كانت تسود بيئتهم عدة خرافات حولها فكانوا يستفتونها في الاعمال والاسفار ويرون فيها طوالعهم في الزواج والحياة وما اليها ويؤدون لها بعض الشعائر الخرافية لانهم كانوا على اعتقاد بأن للاهلة وخسوف القمر تأثيرا في حظوظهم وسلطانا على ثرواتهم . من اجل هذا سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام عنها فأجابهم الله انها ليست سوى مواقيت طبيعية . وذكر الحج على وجه الخصوص لاهميته الدينية والثقافية والاقتصادية لدى العرب وقد تحددت له وللعمرة اربعة اشهر من العام يتوقف فيها القتال وتؤمن الطرق وتزدهر التجارة لما يحل من سلام واستقرار .

وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

هذه كانت واحدة من عاداتهم الخرافية فكانوا اذا احرموا للحج لا يدخلون بيوتهم من ابوابها وانما يتسلقون الاسوار والجدر من الخلف والله فى هذه الآية لم يدحض هذه العادة الخرافية فحسب بل اخبرهم ان ليس للخير والبرصلة بالعادات والشعائر الخرافية التى تمارسونها مقلدين آباءكم واجدادكم عميانا بلا تدبر او تمحيص .

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

يعنى قاتلوا الذين يصدونكم عن سبيل الله ويعاودونكم لانكم تريدون اصلاح نظام الحياة وفق قانون الله وهديه ويستخدمون كل طاقات الظلم والجبر والاضطهاد ليعوقوا مهمتكم الاصلاحية .

ولقد كان المسلمون قبل هذا ضعافا متخطفين فى الجزيرة العربية فأمرهم الله بالدعوة السلمية الى الاسلام وبالصبر والجلد على طغيان الكافرين اما وقد اقاموا دويلتهم فى المدينة فقد اذن لهم لاول مرة بخوض النزال ضد من كانوا يعارضونهم فوقعت حرب بدر بعد ذلك وبها بدأت سلسلة من المعارك بين المسلمين والكافرين .

وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

أمر الله المسلمين بوجوب الا يكون هدفهم من الحرب مصالح انفسهم او المكاسب المادية او الثأر والانتقام ومن ثم تحتم عليهم الا يقاتلوا من كانوا يقاومونهم أو يعوقونهم عن أداء مهمتهم هذا الى جانب أن الرسول عليه الصلاة والسلام اعطى تعاليم مفصلة لجعل الحرب ذات طابع انسانى فنهى المسلمين عن استخدام الاساليب البربرية فى الحرب وعن ايذاء الاطفال والنساء والشيوخ والجرحى وحرم التمثيل بجثث القتلى وابادة المحاصيل والنخيل والحيوانات والجنوح الى الوحشية والهمجية والتخريب بكل أنواعه وفنونه . واذن للمسلمين باستخدام القوة حيث يكون لا مفر من استخدامها وبالقدر الضرورى دون زيادة او اسراف .

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ
وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ

لفظ « الفتنة » فى هذه الاية مستخدم فى نفس المعنى الذى تؤدية الكلمة الانجليزية PERSECUTION ويعنى اضطهاد شخص أو جماعه لايمانه بأفكار ونظريات غير تلك التى تسود فى عصره ومجتمعه ولمحاولتـه اصلاح نظام المجتمع عن طريق النقد والدعوة .

ومعنى الآية : أن القتل واهراق الدماء عمل سيء بلا شك ولكن قيام جماعة من البشر بفرض أفكارها على الناس بالقوة ومنعهم من قبول الحق ومواجهة محاولات الاصلاح والتغيير بالقوة الوحشـية بدلا من مقارعتها بالحجة والادلة لهو بالنسبة للقتل أشد سوءا وفظاعة وتنحيـة مثل هذه الفئة وأجتثاثها بقوة السيف حلال مشروع تماما .

وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ
فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾
فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

يعنى عليكم أن تتحلوا بصفات الله الذى به تؤمنون ، فهو سـبحانه غفور رحيم يعفو عن أعتى العصاة ويرحم المجرمين . فتخلقـوا بخلافه واصطبغوا بصبغته وليكن قتالكم فى سبيله ومن أجل قضيته لا لمأثرة أو منفعة أو ثأر أو انتقام ولتقاتلوهم طالما أصروا على صدكم عن سبيل الله وأستمروا فى قتالكم فان جنحوا للسلم وتركوا موقفهم العدائى منكم ومن رسـالتكم فاجنحوا له وامتنعوا عن قتالهم .

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ

لفظ فتنة مستخدم فى هذه الآية فى معنى مغاير لمعناه فى الاية السالفة (١٩١) . وواضح من سياق الآية ان المقصود به وضـع المجتمع الذى

لا أمان فيه ولا ضمان لاقرار دين الله ولذا حرض المسلمون على مواصلة القتال لتغيير هذا الوضع الفاسد واستعادة السلام والحرية واقرارهما بتطبيق دين الله .

وكلمة (دين) فى العربية تعنى فى أصلها الاذعان والخضوع والتسليم أما من الناحية الاصطلاحية فتستخدم للتعبير عن نظام الحياة الذى يقوم على حاكمية سلطة عليا يطاع أوامرها وتنفيذ قوانينها . ومن ثم فنظام المجتمع الذى يحكم فيه الانسان أخاه الانسان ولايستطيع أحد فيه تطبيق دين الله واتباع نهجه انما هو (فتنة) وما هدف الاسلام من الحرب والقتال الا محو هذه الفتنة والقضاء عليها واقامة دين الله فى أرضه لتمكين الناس من أن يحيوا قانتين لله عبادا خاضعين وفق قانونه وشرعته .

فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

لايعنى هذا أن الاسلام يحرض المؤمنين على القتال لاجبار الكافرين — بحد السيف — على التخلى عن كفرهم واعتناق دين الله بدلا منه بل يعنى أن الهدف من قتالهم هو أوبتهم عن الفتنة ورجوعهم عنها . وحقيقة الامر أن الاسلام يمنح غير المسلمين كافة حرية الاعتقاد ، فلكل حق اعتناق ما يختار من أساليب الحياة وطرقها وأن يعبد أولا يعبد مايشاء ، وهو يحض المسلمين على جدال الكافرين والفاسقين — كى يتخلوا عن ايمانهم الزائف وطرقهم الباطلة — بالحجج والبراهين فحسب لكنه لايسمح لهم بقتال الكافرين لهذا الغرض . ومن الناحية الاخرى لايعطى الاسلام أحدا حق تنفيذ أى قانون بشرى على عباد الله وجعلهم عبادا لغير الله . وفى سبيل القضاء على هذه الحالة سمح الاسلام للمسلمين — بالدعوة والوعظ والارشاد — وكذا بالقتال بما يتلاءم ومقتضيات الظروف والموقف. فسيطره الكافرين السياسية وحاكميتهم القانونية فتنة لايغض للمؤمنين طرف مالم تستأصلها سيوفهم وينالوا الحرية فى اقامة دين الله .

ويستنتج من قوله : ((**فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين**)) انه اذا حل الحكم الاسلامى محل الحكم اللا الهى فعلى المسلمين أن يعفوا عن خصومهم الامن كانوا منهم متشددين طغاة ظالمين متطرفين فى مواجهتهم ومعارضتهم للحق . ورغم أن الاسلام يوجب على المؤمنين أن يعفوا وقت النصر والظفر الا أن لهم الحق فى عقاب من يستحلون كل حرمة ويتعدون كل حد فى معارضتهم العمياء واضطهادهم المرير . والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه — الذى كان مثالا مجسدا للرحمة والعدل — استفاد من هذا الترخيص وقضى باعدام اثنين من الاسرى فى بدر . ويجدربنا أن نذكر فى هذا المقام أن الرسول رغم اصداره عفوا شاملا بعد فتح مكة ، استثنى من هذا العفو سبعة عشر شخصا من أفظع المعتدين الظالمين وأقساهم وقضى باعدام اربعة منهم .

ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ

هذه الآية اجابة السؤال الذى طرح حول القتال فى الأشهر الحرم ذى القعدة وذى الحجة والمحرم وقد خصصوا لأداء فريضة الحج وشهر رجب وقد جعل لاداء العمرة . وقد سميت بالأشهر الحرم لانها كانت حراما حتى منذ عهد ابراهيم عليه السلام فما كان فيهن حرب ولا قتال ولا سرقة ولا نهب ولا اعتداء أو انتهاك لقانون كى يتمكن حجاج البيت من أداء مناسكهم والعودة فى أمن وسلام .

غير أن العرب بداوا شيئا فشيئا ينتهكون قدسية هذه الاشهر بلجوئهم الى حيل ماكرة فكانوا يبدلون ترتيب الشهور ليناسب هواهم فان أرادوا نهبا أو انتقاما أو ما اليه وكان الشهر حراما انتهكوه ثم حرموا شهرا غيره . لهذا تمكنت الحيرة من أذهان المسلمين فما العمل لو انتهك الكافرون قدسية شهر حرام وسلكوا هذا المسلك الاثيم وهاجموهم فيه ؟

فمحت هذه الآية ما ران على أذهانهم من حيرة وقلق وأباحت لهم قتال الكافرين فى الاشهر الحرم أن بداوا بالعدوان ، أما من جانبهم فعليهم الا يتعدوا حدود الله فى أى حال واذا حفظ الكافرون حرمة الأشهر الحرم وكفوا عن القتال فيهن فعلى المسلمين أن يقابلوا الصنيع بمثله أما ان انتهكوها واعتدوا على المسلمين فواجب عليهم أن يردوا عدوانهم ويقاتلوهم فى نفس الشهر الحرام

فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ

الانفاق فى سبيل الله هو التضحية المتوالية فى أى وقت من أجل بناء طريق الحياة الذى أقره الله وبه أمر . والآية تعنى أنكم ان آثرتم أنفسكم ولم تنفقوا أموالكم وممتلكاتكم فى سبيل اقامة دين الله فسوف تهلكون أنفسكم فى الحياة الدنيا وتستجلبون عليها العذاب يوم القيامة . ونتيجة لهذا يدع الله الكافرين فى دنياكم يسيطرون عليكم وفيكم يتحكمون ويحكمون حتى اذا رجعتم اليه فى أخراكم سامكم سوء العذاب لتقاعسكم عن بذل ما أعطاكم فى الدنيا فى سبيله .

وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

الاحسان من الحسن . ومعناه القيام بالعمل باتقان وأداء العمل يكون على درجات . الاولى أن يؤدى المرء ما أسند اليه من عمل وكفى والثانية أن يحاول اتمامه باحسان ويبذل قصارى الجهد وأقصى ما فى الامكان لانجازه وتحقيقه . والدرجة الاولى هى درجة الطاعة والتى يكفى للوصول اليها أن يكون دافعها تقوى الله والخوف منه أما الثانية فهى الاحسان والتى لابد للوصول اليها من وجود الحب والشغف والتعلق .

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ

يعنى ان أقعدتم عن مواصلة السير الى الكعبة واضطررتم لقطع رحلتكم فقربوا لله ذبحا من البقر أو المعز أو النياق ونحوه .

وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ

ثمة اختلاف فى الرأى حول ما قصد به لفظ « محله » فى هذه الآية فيرى الحنفية أنه يعنى حدود المسجد الحرام فان أقعد المرء فى رحلته فعليه أن يرسل حيوانا أو مالا يشترى به حيوان يذبح هناك نيابة عنه قربانا الى الله على حين يرى المالكية والشافعية أن (محله) يعنى المكان الذى فيه أقعد المرء عن مواصلة السير وذبح الهدى انما يتم فى هذا المكان .

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ

هناك حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوجهنا فيه الى أن المرء فى هذه الحالة عليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين أو يضحى على الاقل بمعزاة أو جدى .

فَإِذَآ أَمِنتُمْ

الامن هنا يعنى زوال هذه الحالة التى تسبب فى اقعاد المرء أيا كانت بما فى ذلك اعتداء العدو وغارته .

فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

كان العرب قبل مولد الاسلام يظنون أن أداء الحج والعمرة فى رحلة واحدة اثم وخطأ وكانوا قد تعارفوا على ضرورة القيام برحلة مستقلة لكل منهما . فرفع الله عنهم فى هذه الآية ما فرضوه على أنفسهم من قيد وأباح لمن لم يكن أهلهم حاضرى المسجد الحرام اداء الحج والعمرة فى رحلة واحدة واستثنى من ذلك أولئك الذين يسكنون فى مكة داخل حدود الحرم ومواقيته أذ ليس عسيرا عليهم أداء الحج والعمرة فى رحلتين منفصلتين .

والمراد بالتمتع بالعمرة الى الحج أن يحل المرء احرامه بعد العمرة ويتحرر من قيوده فاذا مادخلت أيام الحج أحرم من جديد .

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

ليست مباشرة الازواج لبعضهم فحسب حراما بل كذلك كل نوع من الحديث بينهم يثير الغرائز والشهوات .

وَلَا فُسُوقَ

رغم أن المعاصى كلها حرام فى كل حين الا أن وزرها أثناء الاحرام أشد وذنبها أكبر .

وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ

ليس للمرء ان يجادل أو يزجر أحدا حتى ولو كان خادمه .

وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ

وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾

هذه الآية تمحو من أذهان المسلمين فكرة خاطئة عن التقوى فقد كان العرب قبل الاسلام يعتبرون التزود لرحلة الحج عملا دنيويا وأن التقى هو من يذهب الى بيت الله دون متاع دنيوى فاعلن لهم الله فى هذه الآية أن ليس البر أن تذهبوا الى الحج دون زاد ومؤونة ولكن البر من اتقى الله وأطاعه وأبقى على حياته طاهرة عفة نظيفة . فقد لايتزود المرء لرحلة الحج لكنه يفعل المنكرات فى الحج دون خشية من الله وبذا يضع التقوى موضع السخرية ويحقر نفسه وحجه فى نظر الناس والله على السواء ، أما ان كانت تقوى الله وخشيته تملأ قلبه وصان خلقه طاهرا عفا فسينال احترام الله والناس ولو كان قد تزود بكل شىء فى رحلته .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ

كان العرب يظنون ــ خطأ ــ أن القيام بأى نوع من العمل أو الاتجار أثناء الحج سعى دنيوى يفسد على الحاج حجه فأعلن لهم القرآن فى هذه الاية أن لو رعى المؤمن شرعة الله وقانونه وتاجر فى بعض الاشياء يكسب منها قوته فهو بهذا يبتغى فضل ربه حقا . وليس فى ابتغاء فضل الله ــ مع ارضائه ــ اثم أو خطأ .

فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ

كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾

يعنى عليكم بترك العادات الجاهلية الكافرة التى تعودتم ممارستها الى جانب عبادة الله ، واعبدوه وحده وفق ما حباكم من الهداية والرشاد .

ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

درج الناس منذ زمن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام على الذهاب من منى الى عرفات فى التاسع من ذى الحجة ثم العودة من هناك الى المزدلفة

فى مساء نفس اليوم ثم مالبث القرشيون بعد ذلك أن تعالوا على البشر وتكبروا وزعموا أنه مما يحط من قدرهم وشرفهم أن يذهبوا الى عرفات فى صحبة الآخرين لأنهم هم أهل الحرم الشريف . وعلى هذا احتفظوا لانفسهم بهذا الامتياز وراحوا يتوقفون فى المزدلفة ويدعون الاخرين يمضون الى عرفات ثم اتسع نطاق هذا الامتياز ليشمل أقرباءهم وحلفاءهم فأبطل الله فى هذه الآية ما كانوا يدعون من مفخرة وتمايز وأمر الناس كافة أن يسيروا جميعا لاداء الشعائر الاساسية قبل الرجوع الى مكة وأن يستغفروا الله على سالف مسلكهم الذى شذ عن ملة ابراهيم ومسلكه .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا

كان العرب قبل الاسلام اذا قضوا مناسك الحج التقوا فى منى وراحوا يتفاخرون فيما بينهم بمآثر آبائهم واجدادهم ومحامد انسابهم وعروقهم فامرهم الله هنا أن يدعوا هذه العادات الجاهلية ويقضوا أوقاتهم فى ذكر الله وحمده والثناء عليه لا فى الاشادة بمناقب أجدادهم ومحامدهم .

فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا
فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

يعنى ليس بالشىء الهام أن تعودوا من منى الى مكة فى الثانى أو الثالث عشر من ذى الحجة خلال أيام التشريق اذ لا أهمية لعدد الأيام التى تمكثونها فى منى بل المهم كيفية قضائها وما اذا كنتم قضيتموها فى توطيد العلاقة بالله أم ضيعتموها فى اللهو واللغو .

لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ

هذا الصنف من البشر يتظاهر بالاخلاص وبانه لايريد للناس الاالخير والصلاح ويؤكد لهم هذا قائلا « يشهد الله أننى لا أنوى الا الخير ولا أعمل لمنفعة أنالها أو مصلحة أصيبها بل من أجل الحق والصواب وسعادة الناس وخـــيرهم » . الا أن كل ما يصدر عن هـــذا الرجل من كلام ناعم وقول معسول هو نفاق فى نفاق .

وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

الد خصام الحق لانه لايتردد ـــ فى عدائه له ـــ فى أستخدام أى نوع من الزيف والخيانة والزور وانعدام الامانة أو النزوع الى أسلوب أخرق آخر رغم لسانه الاملس الناعم وحديثه المعسول المقبول فىظاهره وايمانه المغلظة وحلفه بالله .

وَإِذَا تَوَلَّىٰ

قد تعنى اذ ساد وحكم أو اذا توجه الى الحيـــاة اليومية بعـــد هذا الكلام المعسول .

سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ
وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

يعنى ادخلوا فى الاســلام دخولا تاما دون ادنى تحفظ ولتخضــع أفكاركم ونظرياتكم وثقافتكم وحضارتكم وعلومكم وسلوككم ومعـــاملاتكم وجهودكم فى كل شعبة من شعاب الحياة لمبادىء الاسلام ولا تقسموا حياتكم الى قطاعات وشرائح فتتبعون الاسلام فى بعضها وتلفظونه فى بعضــها الاخر .

فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

يعنى أنه قوى قادر على عقاب المجرمين يعلم كيف يعاملهم ويتصرف معهم .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

ينبغى أن نولى هــذه الكلمات انتباها خاصا لأنهــا تعلن حقيقة عامة كبرى .لقد بعث الله الانسان الى هذه الدنيا لتمحيصه واختبـــاره وأنزل الحقيقة مع رسله المصطفين ومنح الانسان الحرية فى أن يؤمن بها ويخضع لها أو يكفر بها ويتمرد عليها فهو سبحانه يخفى عن الانسان الحقيقة ويدعه يحكم عليها بعقله فى ضوء تعاليم رسل الله وكتبه وآياته التى يبينها المرسلون ولايظهرها له سافرة صريحة فلا يبقى أمامه خيار سوى تصديقها والاعتراف بها لان هذا لو تم لاصبح الاختبار والنجاح أو الاخفــاق لامعنى له . لــذا يحذرنا الله وكانه يقول : لاتنتظروا الى حين ياتى الله فى جلاله والملائكه قبيلا لان فى ذلك الوقت لن تبقى أمامكم فرصة أخرى للبلاء والاختبار ويصــبح الايمان والخضوع بلا قيمــة أو فائدة ، اذ أن قيمته تكمن فى حال اختفــاء الحقيقة عن مداركم وحواسكم فتصلون اليها وتعترفون بها عن طريق عقلكم وفطرتكم السليمة وتثبتون شجاعتكم الأخلاقية بالخضوع لها دون قهر أو قسر . أما حين ترون الله راى العين على عرش مجده وجلاله والملائكة يعملون فى السماوات والأرض واذا بكم فى قبضته أجمعين يومئذ لا ينفع ايمان ولا تصديق ولا يجرؤ أشد المجرمين وأعتى الكافرين على الكفر أو العصيان لكن ذلك لن ينفعهم أو يفيدهم لان زمن الامتحان يومئذ يكون قد ولى وانقضى . فان أميط الستار عن الحقيقة وبدت سافرة لكل انسان لن تكون ثم فرصة اخرى ولن يمنح الناس وقت امتحان اضافى لأنها ستكون ساعة الفصــل يوم الحكم والحساب .

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

لقد طلب الله الى المسلمين أن يسألوا بنى اسرائيل خاصة عن ذلك ، لأنهم كانوا درسا حيا للمسلمين الذين يتولون زعامة العالم فى مكانهم . فلقد أنعم الله على بنى اسرائيل بالنبوة والكتاب وجعلهم للناس اماما وأسند اليهم لواء الزعامة لهداية البشرية أجمعين لكنهم حرموا أنفسهم نعمة الزعامة بدخلولهم مداخل السوء وسقوطهم فى قذارة النزوات والرغبات الدنيوية وجنحوحهم الى النفاق وفعل الشر والمعرفة الزائفة . من أجل هذا حذرالله المسلمين وهم الذين أتوا فى مكانهم كى يقوا أنفسهم المآثم والشرور على اختلاف ألوانها ويتخذوا من تاريخ بنى اسرائيل درسا وعبرة .

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)

فى هذه الآية تنهار عمد نظرية التطور التدريجى فى الدين والتى يزعم فيها من سموا بالعلماء أن الانسان بدا حياته الدينية فى ظلام وجهالة فبدا يعبد الطبيعة والالهة المتعددة ثم مالبث تدرجا أن عبد الله لكنه أشرك معه آلهة

آخرين واستمر على هذه الحال قرونا طويلة الى أن اكتشف أخيرا وحدانية الله .

والقرآن يقول — مناقضا هذا — إن الحياة الانسانية بدأت فى نور من الله كامل وأنه تعالى حين خلق الانسان الأول — آدم — أنزل اليه الحقيقة وأراه الصراط السوى . فانبعت ذرية آدم طريقه ردحا طويلا وكانوا جميعا أمة واحدة ثم شرعوا بعد ذلك فى اتباع طرق أخرى وابتداع أديان جديدة رغم أن الحقيقة كانت قد بينت لهم تماما الا أنهم أرادوا أن يخولوا أنفسهم قدرا أكبر من الحقوق والقدرات التى قررتها لهم الحقيقة فارسل سبحانه وتعالى رسله لمنع الضالين الباغين من سلوكهم هذا ودعوتهم الى دين الله الحقيقى وطريقه الأصلى . فالرسل لم تبعث لتكوين جماعات دينية جديدة تتسمى بأسمائهم بل ليعيدوا من ضلوا الى صراط العزيز الحميد والى دين البشر الحقيقى والى الأمة الواحدة التى تكونت وفق هداية الله منذ بدأ الانسان حياته على وجه البسيطة .

أَمْ حَسِبْتُمْ

أغفلت بين هذه الآية وسابقتها قصة كاملة لأن هذه الاية نفسها تدل عليها كما أنها رويت بالتفصيل من قبل فى السور التى نزلت فى مكة . ففى الآية السابقة تقرر أن الرسل قد بعثوا لازالة الاختلافات التى طرأت على الدين القويم لكن قصة ما لاقوه من مصاعب وعنت بالغ واضطهادات مميتة حذف ذكرها لانها وصفت تفصيلا فى السور المكية التى نزلت من قبل ومن ثم يخبر الله المؤمنين أن الرسل وأتباعهم كان عليهم دائما أن يناضلوا ويكافحوا كفاحا مريرا ضد الباغين على الله المتمردين على أمره من أجل اقامة دينه تعالى وأن الايمان بالاسلام ايمانا حقيقيا ليس طريقا تفترشه الورود ولذا فعلى المؤمن أن يجاهد لاقامة دين الله وأن يقاتل قوى الشر والضلال التى تعارضه حتى ولو كلفه ذلك التضحية بحياته .

أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن
نصر الله قريب ﴿٢١٤﴾ يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين
والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله
به عليم ﴿٢١٥﴾ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا
شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا
تعلمون ﴿٢١٦﴾ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد
عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند
الله والفتنة أكبر من القتل

الاعتراض الذى ورد هنا فى صيغة سؤال عن مشروعية القتال فى الشهر الحرام يشير الى حادث وقع فى شهر رجب من العام الثانى للهجرة حين أرسل النبى عليه الصلاة والسلام فريقا من ثمانية أفراد الى « نخلة » — محلة فى منتصف الطريق بين مكة والطائف — لمراقبة تحركات العدو واستطلاع خططه . ورغم أنه لم يصرح لهم بالقتال هاجموا قافلة صغيرة لقريش وقتلوا واحدا منها وأسروا بقية أفرادها وأحضروهم وبضاعتهم الى المدينة .

ولما كانت هذه الواقعة قد حدثت فى وقت لم يكن قد تحدد فيه على وجه القطع أن رجب قد انتهى بالفعل وبدأ شهر شعبان ساور الجميع الشك حول ما اذا كان الهجوم قد تم فى رجب وهو شهر حرام أم فى شعبان . ومع ذلك اغتنمتها قريش وحلفاؤها فى السر — اليهود والمنافقون فى المدينة — فرصة واتتهم من عند الله للتشنيع بالمؤمنين والسخرية منهم والتهكم عليهم قائلين هاهم الاتقياء المتدينون لم يتورعوا عن سفك الدماء حتى فى الشهر الحرام . فرد الله كيدهم فى نحرهم وأنزل على رسوله هذه الآية التى تعنى أن اراقة الدماء ولا شك شىء دميم شنيع ولكن اعتراض هؤلاء عليه ليس أمرا معقولا لانه صادر عمن تزعموا أعنف ألوان الاضطهاد طوال ثلاثة عشر عاما ضد المئات من أخوتهم لانهم آمنوا بالله الواحد القهار فلم يكرهوهم على الخروج من ديارهم المحببة الى نفوسهم فحسب بل حرموهم حتى من زيارة الكعبة وهى

المكان المقدس الذى لا يخضع لملكية أحد . ولقد كانت جريمتهم هذه على درجة من الفظاعة والفظاظة كبرى حتى أن الألفى عام السابقة قد خلت مما يماثل هذه العداوة والخصومة الشرسة لهذا لم يكن لهؤلاء الظالمين ـ الذين اسودت قائمة جرائمهم لكثرتها ـ أى حق فى اقامة مزاعمهم واعتراضاتهم على أساس حادث حدود تافه . وفوق هذا فهو قد وقع دون اذن من النبى عليه الصلاة والسلام فلم يكن اكثر من عمل قام به نفر قليل من الجماعة الاسلامية دون شعور بالمسئولية .

وينبغى أن نضع فى أذهاننا أن هؤلاء الأفراد الذين ارتكبوا هذا الحادث حين رجعوا الى رسول الله بالغنائم والأسرى أنكر منهم هذا ورفض قبول نصاب بيت المال من الغنائم . وهذا يبين انها كانت عملية غير مشروعة تمت دون اذن او تصريح حتى ان عامة المسلمين لاموا رجالهم على ما فعلوا ولم يكن فى المدينة مسلم واحد راضيا عن فعلتهم هذه .

وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

تأثر بعض بسطاء المسلمين ـ ممن كانوا يفهمون السلام بمفهوم خاطىء ـ بالاعتراض الذى اثاره كفار مكة واليهود فى الآية السابقة فأوضح الله فى هذه الآية الا تأملوا فى ان يحل بينكم وبينهم الصلح والسلام اذ ما كان الغرض وراء اعتراضهم هو السلام بل الطعن فى الاسلام والمسلمين وطالما انكم تؤمنون بهذا الدين وتدعون العالم لقبوله فلن يحل بينكم وبينهم وئام بأى حال من الأحوال . ولا تحسبوا ان مثل هؤلاء أعداء عاديين ممن يريدون اغتصاب أموالكم وثرواتكم وأراضيكم وانما هم صنف أعتى من هذا وأسوأ اذ الصنف الأول يريد تدمير دنياكم فحسب وهى زائلة لا محالة فى حين يبغى الآخر تدمير حياتكم الاخرى ـ وهى الخالدة الابدية ـ ويود تجريعكم غصة وعذابا سرمديا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ *

الجهاد فى اللغة بذل اقصى ما فى الجهد لتحقيق هدف ما وهو لا يعنى مجرد الحرب وانما يستخدم لفظ « القتال » فى معنى « الحرب » المجردة والجهاد ذو معنى اوسع من هذا واشمل يضم بين جنبيه كل نوع من الجهد .

والمجاهد هو من يسعى دائما لتحقيق هدفه ويخطط له بعقله ويدعو له بلسانه وقلمه ويكافح من اجله بكل قلبه وجسده وروحه ويوقف امكاناته وما تحت يديه من وسائل فى سبيل اعلائه ورفعته ويقابل كل مشقة تعترض سبيله بكل ما أوتى من قوى وطاقات ولا يأسى أو يحزن أو يتلكأ اذا ما كلفه ذلك روحه ذاتها . كل هذا هو الجهاد ، والجهاد فى سبيل الله هو ان يفعل المرء كل هذا من اجل رضا الله وحده والا يكون امام ناظريه غرض آخر سوى اقامة دين الله فى الأرض وجعل كلمة الله هى العليا وبذا يتضح ان جهاد المسلم ليس هو مجرد الحرب العامة ضد الكفار .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا

هذه هى اولى التعليمات عن الخمر والمسكرات والقمار والمراهنات وقد أعلن أول الأمر مجرد عدم قبولها وذلك تمهيدا لتحريمها تحريما قاطعا . وكانت الخطوة التالية تحريم الصلاة على المسلمين وهم سكارى ثم اخيرا حرمت الخمر وما شابهها تحريما باتا . (انظر النساء ٤٣ والمائدة ٩٠)

وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ

صدرت عدة تحذيرات شديدة بشأن حفظ حقوق اليتامى قبل نزول هذه الآية كقوله تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم » وغيرها مما جعل المسلمين

يخافون خوفا شديدا لدرجة ان كان الوصاة على اليتامى يفصلون بين اموال كليهما فصلا تاما حتى فى وجبات الطعام . ومع كل هذا كانوا يخشون اختلاط شىء من اموال اليتامى بأموالهم فيجلبوا على انفسهم غضب الله وسخطه . وهذا هو السبب فى انهم سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام ان يضع لهم حدود علاقاتهم باليتامى فأجاب الله ان افعلوا ما فيه خيرهم ونفعهم حقا ثم اتبع ذلك بقوله ((**وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح**)) .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

السبب الذى من أجله حرم على المؤمنين الزواج من المشركين ان ((**أولئك يدعون الى النار**)) ومعنى هذا ان هذه الزيجات قد تضل المسلمين الى الكفر لأن العلاقة الزوجية ليست جنسية خالصة بل هى روحية وعقلية كذلك . وكما ان الزوج المسلم قد يؤثر فى زوجته المشركة وذريتهما ويقودهم الى الاسلام كذلك قد يؤثر الزوج المشرك فى زوجته المسلمة وذريتهما ويدفعهم الى الكفر والشرك ونتيجة لهذه الزيجات قد ينشأ فى الأسر خليط من الاسلام واللا اسلام . وقد يقبل غير المسلم هذا لكن المسلم لا يقبله ولا يمكن لمن يؤمن بالاسلام حقا ان يخاطر بهذا ارضاء لنزواته وشهواته والافضل ان يكبح عواطفه من ان يفعل ما قد يسلمه الى الكفر والشرك والوثنية او على الاقل يقود ذريته ونسله الى دار البوار .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى

الأذى يعنى المرض ويعنى القذارة فليس الحيض نجسا فقط بل هو مرض كذلك . والنساء اثناء فترة الحيض هن اقرب — طبيا — الى حالة المرض منها الى حالة الصحة والعافية .

فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ

يستخدم القرآن التلميح غير المباشر والكناية الخفية عند حديثه عن مثل هذه الأمور الحساسة فقوله ((**فاعتزلوا**)) و ((**ولا تقربوهن**)) لا يعنى اعتزال النساء تماما وعدم لمسهن خلال فترة الطمث كما يفعل اليهود والهندوس وبعض الامم الاخرى . ولقد بين لنا الرسول عليه الصلاة والسلام ان هذا يعنى عدم جماعهن فى طمثهن وحسب اما كافة العلاقات الزوجية الاخرى فتبقى كما هى .

فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

((**أمركم**)) **لا تشير** الى أمر صادر من الله أو قانون بل الى الغريزة الفطرية الطبيعية التى وضعها الله فى طبيعة كل انسان وحيوان وكما هى معروفة لكل فرد .

نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ

لم يخلق الله النساء لامتاع الرجال وكفى بل ان ما بين الزوجين من علاقة هى امر هام وجاد مثل ما بين الزارع وحقله . فالزارع لا يذهب الى حقله لمجرد الانتعاش والاستجمام والمتعة بل من أجل زراعته والحصول على انتاج منه . ((فزارع النسل الانسانى)) عليه ان يذهب الى ((حقل الانسانية)) الخاص به ليزرع ويحصد (نسلا) وشريعة الله لا تبحث اساليب زراعة هذا الحقل بل تطلب من الرجل ان يذهب الى حقله هو وبغرض زراعته والحصول على انتاج منه .

وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ

هذه العبارة العربية واسعة فى معناها شاملة فى مغزاها فقد تعنى ان عليكم بالتكاثر والانجاب لاستمرار جنسكم وسلالتكم او تعنى ان عليكم بذل الجهد الشاق الكبير لتنشئة وتربية وتدريب اولادكم على الاسس

السليمة . وكلا المعنيين مقصود منها فى هذه الآية ولذا اخبرهم الله فى الآية التالية ((**واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه**)) فيحاسبكم على ما ارتكبتموه من اهمال متعمد لهذه الفروض .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

تعلمنا الاحاديث النبوية الصحيحة ان لو اقسم المرء قسما عشوائيا طائشا على فعل شىء او الامتناع عن فعل شىء ثم تحقق بعد ذلك من ان الكياسة تتطلب ابطاله والحنث به فليكفر عنه . وكفارة اليمين اطعام عشرة مساكين او كسوتهم او عتق رقبة فمن لم يستطع فصيام ثلاثة ايام (انظر المائدة ٨٩) .

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ

يعنى لا كفارة على ما يحلفه المرء من ايمان بطريقة لا شعورية كعبارة متداولة ولا عقاب عليها .

وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ

صحيح ان علاقات الزوج وزوجته لا تستمر حارة على الدوام الا ان شريعة الله لا تسمح باستمرار العلاقات الفاسدة المتوترة دون تحديد . لذا شرع الله فترة قصوى هى أربعة أشهر من الانفصال يعيش فيها الزوجان منفصلين فى الواقع دون اتصال او علاقات زوجية لكنهما يظلان زوجين من الناحية الشرعية والقانونية وهذا ما يسمى ((بالايلاء)) فى الفقه الاسلامى . وعليهما خلال هذه المدة ان ينصالحا او يفترقا بالرضا والمعروف كى ينال كلاهما حريته فى الزواج من شخص آخر يناسبه .

ويرى فقهاء الحنفية والشافعية فى هذه الآية ان فترة الشهور الاربعة تنطبق فقط على الحالات التى يتم الانفصال فيها عن طريق الحلف اما ان ظل الزوجان منفصلين لاى فترة دون قسم فلا ينطبق عليهما هذا القانون

وسندهم فى هذا الرأى الفاظ الآية ذاتها ((**للذين يؤلون**)) فالايلاء هو الحلف اما المالكية فيرون ان هذه الفترة تنطبق على كل حالات الانفصال . واثر عن ابن حنبل قول يؤيد هذا .

ويرى سيدنا على بن عباس والحسن البصرى رضى الله عنهما ان هذا القانون ينطبق على الانفصال الناجم عن توتر العلاقات دون غيره ولا ينطبق على الانفصال الذى يتم باتفاق الطرفين ورضاهما من اجل خير مشترك مع الاحتفاظ بعلاقات طيبة فيما بينهما .

وهناك فقهاء آخرون يرون ان قانون الايلاء ينطبق على أية حالة من حالات الانفصال تتم بناء على حلف او قسم بغض النظر عما اذا كانت العلاقات بين الزوجين تظل حسنة ام سيئة ومن ثم يجب الا يزيد الانفصال عن الأربعة أشهر المحددة .

فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦)

يميل بعض الفقهاء فى تفسير هذه الآية الى انهم اذا حنثوا ايمانهم ولم يفوا بأقسامهم خلال الشهور الأربعة وأعادوا علاقاتهم الزوجية الى طبيعتها فليس عليهم كفارة الأيمان . وسوف يعفو الله عنهم ويغفر لهم نقضهم لأيمانهم الا أن غالبية الفقهاء يرون ضرورة قضاء الكفارة على أى حال . اذ لا تعنى الفاظ الآية ((**فان الله غفور رحيم**)) سقوط الكفارة وانما تعنى فقط ان الله سيتقبل الكفارة ويعفو عما بدر من الزوجين من أخطاء أثناء فترة الانفصال .

وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ

بناء على ما قضى به سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وآخرون رضى الله عنهم أجمعين يستطيع الزوجان الرجوع بعد الانفصال خلال الأشهر الاربعة فحسب وبعد انقضاء هذه المدة دليلا فى ذاته على ان الزوج قد عزم الطلاق ومن ثم يتم الطلاق بعد انقضائها تلقائيا ويفقد الزوج حق المراجعة ومع هذا فان قبلا ان يتزاوجا مرة اخرى فلهما ذلك . وقد قضى بهذا سيدنا عمر وعلى وابن عباس وابن عمر رضوان الله عليهم فى حالات مماثلة وقبل هذا الحكم فقهاء الحنفية .

ويرى سيدنا سعيد بن المسيب ومكحول والزهرى رضى الله عنهم وآخرون ان الطلاق يقع تلقائيا بعد انقضاء الاشهر الاربعة لكنه يكون طلاقا قابلا للالغاء من جانب واحد ويكون للزوج فيه حق مراجعة الزوجة فى

خلال فترة العدة فان انقضت العدة ولم يراجعها فلهما ان يتزوجا مرة اخرى اذا ارادا .

وعلى عكس ذلك ترى السيدة عائشة وسيدنا ابو الدرداء رضى الله عنهما وكثير من فقهاء المدينة رفع الامر الى القضاء بعد انتهاء الاشهر الاربعة كى يأمر القاضى الزوج باعادة الشمل او الطلاق . وقد قضى سيدنا عمر بن الخطاب وعلى بن ابى طالب وابن عمر رضوان الله عليهم بهذا وقبله الامام مالك والامام الشافعى ايضا .

فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

يعنى اتقوا الله ولا تعزموا الطلاق لاسباب تافهة ليس لها وجه قوى وتبرير سليم لانه تعالى بكل شىء عليم .

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

اختلف الفقهاء فى تفسير هذه الآية فالحنفية يرون ان للزوج حق مراجعة زوجته فى الفترة حتى وقت طهارتها من ثالث حيض . وهذا رأى سيدنا أبى بكر وعمر وعلى وابن عباس وأبى موسى الأشعرى وابن مسعود وبعض كبار الصحابة الآخرين رضى الله تعالى عنهم اجمعين . والشافعية والمالكية يرون ان الزوج يفقد حق مراجعة زوجته فور نزول ثالث دورة شهرية عليها وهذا رأى السيدة عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت عليهم رضوان الله . ومع ذلك ينبغى ان نفهم فهما جيدا ان الزوج له حق مراجعة زوجته فى حال أن ينطلق بالطلاق مرة واحدة أو مرتين لكنه يفقد هذا الحق فى حال النطق بالطلاق ثلاثا .

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ

هذه الآية قصد بها علاج مرض اجتماعى خطير كان يعم الجزيرة قبل الاسلام حيث كان للزوج مطلق الحرية فى ان يطلق زوجته متى شاء وبلا حساب وطالما كانت علاقته بزوجته متوترة طلقها ثم ردها ثم طلقها ثم ردها متى وكيف اراد . وبهذا ما كان للزوجة ان تحظى بعلاقات زوجية معه أو تتحرر من قيده لتتزوج بآخر . فأغلقت هذه الآية باب هذه الوحشية والاضرار البالغ واعطت للزوج حق طلاق ومراجعة الزوجة الواحدة مرتين فقط فى حياته الزوجية كلها فان طلقها ثالثة فانفصال عنها الى الابد .

ولضبط التسرع فى السلوك وترك باب الصلح مفتوحا فى مراحل عدة ينبغى ان يتم الطلاق — ان كان لا مفر منه — بالاسلوب الصحيح الذى يعلمنا اياه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو ان يكون فى وقت لا تكون الزوجة فيه فى طمثها فان حدث خلاف أثناء حيضها فلا يصح الطلاق فى هذه الفترة بل على الزوج الانتظار الى ان تطهر فيطلقها مرة واحدة اذا اراد . ثم ينتظر الى الدورة الشهرية التالية فيطلقها المرة الثانية بعد ان تطهر اذا شاء ذلك ثم ينتظر الى الحيض الثالث ويطلقها المرة النهائية بعد طهرها . ومع كل هذا فمن الافضل الانتظار واعادة دراسة الامر وامعان العقل فيه بعد المرة الاولى والثانية حيث يكون للزوج حق المراجعة بعد انقضاء العدة اما ان طلقها الزوج للمرة الثالثة فلا حق له فى مراجعتها ولا يستطيعان الزواج من بعضها مرة اخرى .

أما بالنسبة للجهلاء الذين يطلقون الثلاث مرات دفعة واحدة فهم يرتكبون خطيئة فاحشة واثما مبينا فى حق شريعة الله . والرسول عليه الصلاة والسلام ادان هذا الاسلوب اشد ادانة وكان عمر رضى الله عنه يجلد من يفعله .

وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا

ليس للزوج حق استرداد ما اعطاه للزوجة من مهر او حلى او ثياب أهداه اليها لأن هذا يتعارض مع أخلاق الاسلام التى تأبى استرداد ما يهديه المرء الى اى انسان . والرسول عليه الصلاة والسلام يشبه من يفعل هذا الصنيع الذى يخلو من الوفاء والشهامة بالكلب الذى يأكل تقيؤه . ومما يشين الزوج ويخزيه حقا أن يسترد بعد الطلاق أو حتى يطلب استرداد ما كان اعطاه بنفسه لزوجته . والحق ان الاسلام يأبى هذا ولا يرضاه بل انه يحض الزوج على ان يعطى زوجته متاعا عند رحيلها . (انظر البقرة ٢٤١) .

إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ

اذا ارادت المرأة زوجها على طلاقها ببذل منها له فان هذا يسمى فى الفقه الاسلامى « خلعة » بضم الخاء فان اتفق الزوجان على شروط لاتمام ذلك فيجب تنفيذها كاملة كما اتفقا عليها فان رفع الأمر الى القضاء فعليه ان يتثبت — قبل كل شىء — من ان الزوجة كارهة لزوجها تماما لدرجة يستحيل معها اقترانهما فى حياة سعيدة ثم يقرر القضاء ما يراه مناسبا كتعويض للزوج . وعلى الزوج القبول والاذعان وتطليق زوجته ويرى الفقهاء عامة ان التعويض يجب الا يتعدى قيمة المهر الذى دفعه الزوج .

وفى مثل هذه الحالة يفقد الزوج تماما حق مراجعة زوجته لان هذا الحق قد بيع للزوجة ان جاز لنا استخدام هذا التعبير وبالطبع لهما ان يتزوجا مرة ثانية ان أرادا ذلك .

وعند اغلب فقهاء المسلمين عدة الخلعة هى نفس عدة الطلاق غير ان ابا داود والترمذى وابن ماجه وآخرين رووا احاديث عن النبى عليه الصلاة والسلام تفيد انه قرر عدة الخلعة حيضا وحدا بعد طلاقها وقضى بهذا سيدنا عثمان بن عفان فى حالة مماثلة .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ

توجد أحاديث صحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم تحذر من أى تدبير مسبق لهذا الامر بأن يتزوج رجل ما المرأة المطلقة على أساس ان يطلقها من بعد ليمكن زوجها السابق من الزواج منها مرة ثانية (وهو ما يسمى بين العامة بالمحلل) فهذا حرام واثم كبير ولن يكون زواجا شرعيا على الاطلاق بل زنا كما ان الزوجة لا تصبح زوجة شرعية للزوج الاول عن طريق هذا التدبير المسبق وقد روى سيدنا على بن ابى طالب وابن مسعود وابو هريرة وعقبة بن عامر رضى الله عنهم الحديث الذى يؤيد هذا وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله المحلل والمحلل لــه » .

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ

لا يصح لامرىء ان يطلق زوجته ثم يراجعها قبل انقضاء العدة لا لشيء الا لينال فرصة اخرى لايلامها والاضرار بها . لذا امر الله ان لو ذن الزوج ينوى مراجعة زوجته حقا فعليه أن يراجعها ولديه النية فى معاملتها معاملة حسنة والا فخير لهما أن يسرحها بالمعروف وبأسلوب شريف عفيف .

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾

يعنى لا تنسوا ان الله قد عينكم فى منصب ذى مسوايه عظمى فأعطاكم الكتاب وعلمكم الحكمة واسند اليكم واجب هداية العالم وجعلكم امة وسطا وشهداء بالحق والخير وهذا لا يوجب عليكم أبدا أن تهزأوا بكتبه بلجوئكم الى أساليب المراوغة والمغالطة والاحتيال على ألفاظ الشريعة ومعانيها الحرفية وتعيشوا فى دوركم وبيوتكم حياة ظالمة فاسدة عفنة على حين ان المفروض عليكم توضيح الطريق الصحيح للعالم اجمع .

وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ

يعنى اذا وافق الطرفان على ان يتزوجا مرة احرى بعد انقضاء العدة فعلى اقرباء المطلقة الا يمنعوها من ذلك . كذا قد تعنى الآية أن من طلق زوجته ثلاثا فعليه الا يمنعها من الزواج بآخر بعد انقضاء العدة .

ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ * وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ

هذا ينطبق على كل انواع الانفصال سواء بالطلاق او الخلعة او بأمر القضاء اذا كان وليد الطرفين لا يزال رضيعا .

وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ

فان توفى الاب فعلى الوصى مسئولية تعويض الام او مرضعة الطفل كما كانت على الاب تماما .

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ

هذه المدة تنطبق حتى على الارامل اللاتى لم يمسهن ازواجهن غير ان الارملة الحبلى مستثناة من هذا وعدتها ان تضع حملها سواء وضعته بعد وفاة زوجها مباشرة أم بعده ببضع شهور .

و « يتربصن » تعنى الا يتزوجن من رجل آخر خلال هذه العدة وكذلك لا يضعن خلالها اى زينة . واحاديث النبى عليه الصلاة والسلام تأمر الارامل امرا صريحا الا يتزين او يلبسن ثيابا بهية او يضعن شيئا من مستحضرات التجميل مثلا خلال عدتهن . الا ان ثمة اختلافا فى الرأى حول ما اذا كان على الارملة ان تقضى عدتها فى بيتها ام لا ، فيرى سيدنا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وابن عمر والائمة الاربعة رضى الله عنهم ولفيف من اجلة الفقهاء ان عليها ان تبقى فى منزل زوجها المتوفى . على حين ترى السيدة عائشة وابن عباس وعلى بن ابى طالب رضى الله عنهم وبعض من كبار الفقهاء ان لها الخيار فى قضاء عدتها حيث تشاء .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ
خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن
لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً

لا محالة من وقوع الضرر على المرأة بأى حال من الاحـوال وذلك لانفراط عقد حياتها الزوجية حتى ولو فى حالة (ما لم تمسوهن) لهذا ينبغى على الزوج ان يعوضها عن ذلك قدر جهده .

وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ
ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

الكرم والسخاء والدماثة والخلق الفاضل المتبادل أمر ضروري لحسن العلاقات الانسانية لان الحياة الاجتماعية لا تكون سعيدة سعادة تـامة اذا اصر كل طرف على نبل حقوقه القانونية بالنقير والقطمير .

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ

هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى ـ بعد اعلانه أسس وقواعد ولوائح حماية وتأمين السعادة الاجتماعية والعيش حياة مهذبة متحضرة ـ أكد على اهمية الصلاة كلمسة اخيرة لانها وحدها التى تبث خشية الله وتقواه ومشاعر الخير فى القلوب وتخلق فى الاذهان فكرة الطاعة لقانون الله وتشد المرء الى الطريق القويم . وبدونها لا يكون المرء جادا فى طاعته لقانون الله ويصبح عرضة للانحراف الى اى لون من ألون العصيان كما انحرف اليهود .

وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ

يختلف المفسرون حول معنى « الصلاة الوسطى » لكن أغلبهم يرون انها تشير الى احدى الصلوات الخمس وهى صلاة العصر . بيد اننا لا نقف على قول صريح مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم يدعم هذه التفاسير . واصحاب هذا الرأى حجتهم فيه ما حدث فى وقعة الاحزاب حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام مستغرقا فى صد هجوم الاعداء حتى انه لم يجد وقتا لصلاة العصر الى أن غابت الشمس فقال « ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا فقد اضاعوا علينا صلاتنا الوسطى » ومن هذا استنتج اصحاب هذا الرأى ان الصلاة الوسطى تعنى صلاة العصر . ولكنى أرى ان ما قصده صلى الله عليه وسلم بهذا ان الاعداء كانوا هم السبب فيما تعرض له المسلمون من خسارة روحية بسبب عدم ادائهم صلاة العصر فى وقتها بذهن صاف وقلب مطمئن ولما كانت صلاة العصر هى التى اسف الرسول عليها استنتج المفسرون انها المقصودة بالصلاة الوسطى .

وكلمة « وسطى » فى العربية تعنى (الوسطى) وتعنى « **الجيدة** » (1) وعلى هذا فالصلاة الوسطى هى الصلاة الوسطى والصلاة الحسنة أيضا التى تؤدى فى وقتها وبحضور كامل مع الله ، يعني الصلاة التى تتوافر فيها كافة صفات وشروط الصلاة الجيدة . وبقية الآية نفسها « **وقوموا لله قانتين** » تدعم هذا التفسير الذى يرى أن المقصود بالصلاة الوسطى هو الصلاة الجيدة التى تؤدى لله تعالى وفيها صفات الصلاة الممتازة وليست أى صلاة من الصلوات الخمس المفروضة .

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

انتهت المحاضرة السابقة . ثم اضيف اليها ملحق متمم نجده فى الآيات التالية :

---

(1) أوسط الشيء أجوده وأعدله ـ المترجم .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ *

ثم يبدأ بالآية التالية خطاب جديد حث الله فيه المسلمين على الجهاد وامرهم ان يقوا انفسهم تلك السقطات التى ساقت بنى اسرائيل الى الانحطاط . ولعل معرفة المناسبة الذى نزل فيها هذ الخطاب تعيننا على فهمه واستيعابه :

كان المسلمون آنذاك ـ الذين كانوا قد اخرجوا من مكة منذ قرابة عام ويعيشون كمهاجرين فى المدينة ـ يلحون فى طلبهم الى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأذن لهم بقتال الكافرين الذين لم تلن لهم قناة فى اضطهادهم على مدى أعوام خلت حتى اذا ما أذن لهم الرسول بقتال الكافرين بدأت تفتر همة بعضهم وتذبل شجاعتهم (انظر البقرة ٢١٦) وهذا هو سبب ايراد واقعتين هامتين من وقائع تاريخ بنى اسرائيل لتحذير المسلمين من ناحية ولشحذ شجاعتهم وايقاد حماسهم من ناحية اخرى .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

هذه الآية تشير الى خروج بنى اسرائيل (للتفصيل انظر سورة المائدة ٢٠ ـ ٢٦) حين غادروا مصر فى جموع كبيرة ضخمة وتاهوا فى الصحراء القفرة وكانوا يتوقون لان يجدوا لهم مغرا ووطنا ومستودعا فلما امرهم موسى ـ بوحى من الله ـ ان يقاتلوا الفلسطينيين ويخرجوهم من أرض

فلسطين ويدخلوها فاتحين تقاعسوا جبنا ولووا رؤوسهم رفضا واعراضا فتركهم الله لهذا يتيهون فى الارض اربعين سنة كى ينقرض ذلك الجيل وينشأ من بعده جيل جديد وسط قساوات الصحراء ومشاقها ثم كتب الله لهم النصر على الفلسطينيين بعد ذلك وقد تعنى ((**فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم**)) هذين الوجهين (١) .

وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

القرض الحسن هو ما يقرض دون تفكير فى عائد شخصى او نفع ذاتى وانما ابتغاء مرضاة الله وحده وعلى هذا فالمال الذى ينفق فى سبيل الله يعتبره الله تعالى قرضا أعطى له ويعد من ينفقه لا بسداد أصل المال كما أخذه بل بدفعه أضعافا مضاعفة شريطة أن يكون « قرضا حسنا » بالمعنى الحقيقى وان يكون ممنوحا ابتغاء مرضاته ومن اجل ما يقبله هو من اغراض واهداف

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

هذه الواقعة ذكرت هنا كى يعلم المسلمون منذ البداية صعوبة القتال واختباراته .

فلقد طغى « العمالقة » على بنى اسرائيل فى حوالى عام الف قبل الميلاد واغتصبوا من ايديهم عدة اجزاء من فلسطين وكان النبى صموئيل — الذى كان يدير دفة الأمور فى اسرائيل — قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا فأتى اليه زعماء بنىاسرائيل وقالوا له ها أنت قد بلغت أرذل العمر فاجعل لنا ملكا يحكمنا مثل ما عليه الامم الاخرى ويرشدنا ويقاتل معنا فى سبيل الله ، والحق انهم طلبوا هذا لانهم نسوا — فى ظل سيطرة نفوذ الحكام الاجانب غير المتدينين وغلبتهم — أدنى تمييز بين الحكم الالهى والملكة وهذا ما اغضب صموئيل واثار حفيظته واسخط عليهم ربهم وجلب عليهم لعنته .

ودونكم بعض تفاصيل هذا الأمر كما ورد فى سفر صموئيل الاول الاصحاح السابع والثامن والثانى عشر .

---

(١) يعنى انقراض الجيل المتقاعس ثم نشأة الجيل الجديد وكذا الانتصار على الفلسطينيين بعد الجبن والقعود — المترجم .

« وقضى صموئيل لاسرائيل كل أيام حياته ...... وكان لما شاخ صموئيل ...... فاجتمع كل شيوخ اسرائيل وجاءوا الى صموئيل الى الرامة وقالوا له هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك فالان أجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب فساء الأمر فى عينى صموئيل اذ قالوا اعطنا ملكا يقضى لنا وصلى صموئيل الى الرب فقال لصموئيل اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك انت بل اياى رفضوا حتى لا أملك عليهم ...... فلكم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسة لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وادوات مراكبه وياخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات وياخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده ويأخذ عبدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى أخترتموه لانفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم فابى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج ويحارب حروبنا فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به فى أذنى الرب فقال الرب لصموئيل اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا ...... وقال صموئيل لكل اسرائيل هأنذا قد سمعت لصوتكم . . . . وملكت عليكم ملكا . . . ولما رأيتم ناحاش ملك بنى عمون آتيا عليكم قلتم لى لابل يملك علينا ملك والرب الهكم ملككم فالآن هو ذا الملك الذى أخترتموه الذى طلبتموه وهو ذا قد جعل الرب عليكم ملكا أن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتم صوته ولم تعصوا قول الرب وكنتم أنتم والملك أيضا الذى يملك عليكم وراء الرب الهكم وان لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما على آبائكم ......

وأما أنا فحاشا لى أن أخطىء الى الرب فأكف عن الصلاة من أجلكم بل أعلمكم الطريق الصالح المستقيم ...... وان فعلتم شرا فانكم تهلكون أنتم وملككم جميعا » .

يتضح من هذه النصوص أن الله ونبيه لم يقبلا أو يوافقا على مطلب بنى اسرائيل أن يجعل صموئيل لهم ملكا . أما لماذا لم يمقت الله فى القرآن هذا المطلب فالجواب صريح واضح وهو أن هذه القصة اوردت هنا كى يفيد منها المسلمون ويأخذوا منها عبرة ودرسا فحسب لذا لم يكن ثم مجال لاظهار الادانة أو الرضا بشأن اقامة « الملكة » . ومناقشتنا لصحة هذا المطلب أو خطئه هنا تخرج عن دائرة الموضوع لان الهدف الوحيد المرجو من ذكر هذه الواقعة هو تقرير أسباب سقوط بنى اسرائيل وجبنهم وأنانيتهم وقلة صبرهم وجلدهم ليكون كل ذلك تحذيرا للمسلمين فيتفادوا هذه العيوب فيما بينهم .

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا

تقول التوراة :

وكان رجل من بنيامين اسمه قيس . . . . . . وكن له ابن اسمه شاول شاب وحسن ولم يكن رجل فى بنى اسرائيل أحسن منه من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب فضلت أتن قيس أبى شاول فقال قيس لشاول ابنه خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش على الاتن وفيما هما آتيان فى وسط المدينة أذا بصموئيل خارج للقائهما . . . فلما رأى صموئيل شاول أجابه الرب هوذا الرجل الذى كلمتك عنه هذا يضبط شعبى . . . . . . فاخذ صموئيل شاول وغلامه وادخلهما الى المنسك وأعطاهما مكانا فى رأس المدعوين وهم نحو ثلاثين رجلا ..... فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه ..... وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا .... فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى أختاره ألرب ..... (صموئيل الاول ٩ ، ١٠)

لقد مسح شاؤول على بنى اسرائيل زعيما بأمر الله مثل هارون وداود وعيسى عليهم السلام لكن القرآن لم يذكر صراحة هل جعل شاؤول نبيا كذلك أم لا ، لأن تنصيبه ملكا باذن الله لا يعنى بالضرورة أنه قد جعل نبيا أيضا .

قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ

رغم أن ذكر التابوت فى التـوراة يختلف عن ذكره فى القرآن اختلافا يسيرا الا أننا نستطيع أن نقف منه على الكثير من التفاصيل .

فقد كان بنو اسرائيل يقدسون التابوت أيما تقديس فهو « تابوت العهد » وكانوا يؤمنون أن « بواسطته يدخـل (الله) فى وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا » من أجل هذا كانت لهم فى عودته « سكينة » .

وكان التابوت يحـوى بقية من آثار آل موسى وهارون المقدسة هى شظايا من الالواح التى أعطيت لموسى فوق جبل سيناء الى جانب النسخة الأصلية من التـوراة والتى دونت تحت امرة موسى واشرافه وأودعت عند اللاويين (سبط لاوى) كما كان يضم قارورة من المن كى تقدس الأجيال القادمة الله وتحمده وتثنى عليه على ما أنعم به على أجدادهم حين كانوا فى الصحراء ويجوز أن كانت فيـه عصـا موسى عليه السـلام التى كانت آية من الله كبرى .

تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ

وقد تكون هذه اشارة من القرآن الى الحوادث المسطورة فى الاصحاحات الرابع والخامس والسادس من سفر صموئيل الثانى والتى تروى أن تابوت الرب قد استولى عليه الفلسطينيون فى معركة لقى بنو اسرائيل فيها هزيمة نكراء فحزنوا عليـه كثيرا وبكوا أن « قد زال المجد من اسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ » وبقى التابوت فى أرض فلسطين أشهرا سبعة لكن ذعرا وهلعا وفرقا شديدا كان يحـل فى كل مدينة دخلها « لأن يد الرب كانت ثقيلة جدا هناك » حتى ان أهل فلسطين بدأوا يصيحون « لا يمكث تابوت اله اسرائيل عندنا لأن يده قد قست علينا » وقرروا ارساله الى اسرائيل فأخذوا بقرتين مرضعتين وربطوهما فى عجلة فاستقامت البقرتان فى الطـريق الى طريق « بيتشمس » .

وحيث أن العربة كانت تتوجه بدون سائق اذن فكانت تجرها الملائكة الى بنى اسرائيل بتوجيه من الله .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ
بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن
لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ

قد يكون هذا النهر هو نهر الاردن أو أى جدول أو نهير آخر كان على شاؤول أن يعبره مع جيش اسرائيل ولما كان شاؤول يعلم أنهم على قلة من الصبر وضبط النفس أختبرهم بهذا ليمحص الاكفاء من غيرهم والشجعان من الجبناء وطبيعى أن من لم يستطيعوا الصبر على العطش زمنا قصيرا ما كانوا ليقدروا على الصبر والجلد أمام العدو الذى أذاقهم الهزيمة من قبل .

ولأن نفس هذا الامتحان كان جدعون قد أجراه قبل شاؤول انتهى كل من بالمر PALMER ورودويل RODWELL الى أستنتاج غريب هو أن الامر قد التبس فى هذه الاية (٢٤٩) بين جدعون وشاؤول وهما بالطبع يريدان بهذا أن يثبتا أن القرآن ليس كتابا منزلا بل هو من تصنيف محمد «عليه الصلاة والسلام» . ولعمرى ما أسخف قولتهم وما أسفه رأيهم فلو أن حادثين متشابهين قد وقعا وذكر أحدهما فى التوراة فهذا ليس حجة ودليلا على أن الآخر لم يحدث لمجرد أن لا ذكر له فى التوراة أضف الى هذا أن أحدا قط لا يستطيع الادعاء بأن التوراة تحوى تاريخ بنى أسرائيل كاملا غيرمنقوص والدليل على هذا أن التلمود يحوى عديدا من الاحداث التى لم يرد لها ذكر فى التوراة .

فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ج

يحتمل أن يكون هؤلاء هم الذين أظهروا قلة جلدهم وصبرهم عند شاطىء النهر .

قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ج وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ

تقول التوراة ان داوود كان فتى غير محنك التحق صدفة بجيش شاؤول وحين كان جالوت بطل الفلسطينيين يتحدى بنى اسرائيل قائلا « أنا عيرت صفوف اسرائيل هذا اليوم أعطونى رجلا فنتحارب معا » سمع بنو اسرائيل هذا وارتاعوا وخافوا جدا لكن داوود قال لشاؤول «لا يسقط قلب أحد بسببه ، عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطينى » فرفض شاؤول ذلك فألح عليه داوود الى أن أذن له بقتاله فلما رآه جالوت ازدراه واحتقره لصغر سنة وقال له « تعالى الى فأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية » فأجابه داوود بحبسك الرب فى يدى فأقتلك .. فتعلم كل الأرض أنه يوجد اله لاسرائيل وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب لان الحرب للرب وهو يدفعكم الينــا » « ثم قتله داوود وذاع صيته بين بنى اسرائيل فزوجه شاؤول ابنته وصار ملكا على اسرائيل من بعــده (انظر صموئيل الاول ١٧ ، ١٨) .

وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

يعنى ان الله قد وضع قاعدة ضابطة تنظم الامور على الارض وهى أن يجعل سبحانه فرقا وجماعات من البشر يعلو شأنهم وينالون غلبة وسطوة وقوة الى قدر محدود حتى اذا ما تجاوزت احداها حدودها كسرت شوكتها ، أما اذا جعلت الغلبة والسيطرة فى الأرض لقــوم أو حزب على الدوام فلا محالة من انتشار الفساد فى ملك الله .

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ
ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ
وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ
ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ
وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

المعنى أن الاختلافات التى نشبت بين الناس بعد حصــول العلم عن طريق الأنبياء وزادت حدتها ووصلت الى اقتتال ليس السبب فيهــا أن الله

ـ جل شأنه وتعالى عن ذلك ـ لم يكن فى مقدوره ايقافها ولو شاء ربك لما جعل أحدا يحيد عن دعوة رسله قيد شعره أو يسلك سبيل الكفر والعصيان أو يفسد فى الأرض لكنه حاشاه أن يكره أحـدا على اعتنـاق دين خاص أو سلوك سبيل معين وهو الملك العادل لانه لم يبعث الانسان الى الارض الا اختبارا وبلاء فان سلبه حرية العمل والارادة وجعله مسيرا لا يملك من أمر نفسه شيئا لأضحى الاختيار لا معنى له ولا هدف وراءه . وهو حين أرسل رسله للناس انما أرسلهم لدعوتهم الى صراطه المستقيم وأيدهم بالبينات والايات ولم يرسلهم لاكراه خلقه على الايمان به والخضوع لسلطانه . فما وقع من خلافات ثم من قتال وحروب سببه أن الناس قد أساءوا حرية الارادة المحـدودة التى منحت لهم وليس لأنه ـ معـاذ الله ـ عاجزا عن ايقافها وتسويتها .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم

يعنى أن الذين اختاروا سبيل الايمان بالله عليهم أن يضحوا بأموالهم فى سبيل ما آمنوا به .

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

المقصود بالكافرين هنا اما أولئك الذين يرفضون طاعة أوامر الله ويرون جمع المال أعظم مكانا من كسب رضا الله واما اولئك الذين لا يؤمنون باليوم الذى لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والذى حذرهم الله منه . واما أولئك الحمقى الذين يحسبون علاقتهم بشيخ أو ولى أو وساطته ستنجيهم فى الاخرة بطريق أو بآخر .

ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ

رغم أن جهلاء الناس قد يؤلهون أربابا كثيرة ويعبدون أشياء عدة الا أن الحقيقة الخالدة هى أن كافة المخلوقات تنتمى الى الله الذى لم يكن له شريك أزلا ولا شريك له ابدا فهو الله الحى القيوم واهب الحياة للخلق أجمعين لاعون ولا مدد الا منه وهو المعين ولامعين سواه وهو وحده مالك وملك ملكوته لاشبيه له فى صفاته ولاند له فى ذاته ولامثيل له فى ميزاته ولا شريك له فى

حقوقه وطاقاته ولذا فاتخاذ اله آخر ـ أيا كان ـ مع الله فى الأرض أو السماء ان هو الا زور وبهتان على الله مبين .

لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ

هذا يدمغ تصورا عن الله أساسه أنه تعالى ـ جلت ذاته وتقدست صفاته ـ تعتريه النقوص وتحده الحدود مثله مثل المخلوقات البشرية الناقصة المتناهية . خذ لذلك مثلا ما تقوله التوراة :

« وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل » التكوين ٢ : ٤٢ .

« فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » (المزمور ٧٨ : ٦٥) حاشا لله أن تناله هذه النقائص والعيوب .

لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

هو مالك السماوات والارض وما فيهما وما بينهما لا شريك له فى ملكه وسلطانه ومملكته وحاكميته وحكمه . وكل شىء يتخذه الجاهلون الها ما هو الا جزء من هذا الكون الذى هو ملك لله وحده فمن المحال اذن أن يكون شريكا لله أو ندا .

مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ

هذا يستاصل ظن الجاهلين أن المشايخ والقديسين والملائكة ومن اليهم سيتوسطون لهم عند الله ويحملونه على الصفح عنهم فالله يخبرهم هنا أن ليس ثمة مخلوق يستطيع حتى الوقوف أمامه ـ لاحمله على الصفح ـ فلا رسول ولاملك ولاقديس ولاشيخ سوف يتجاسر ويلفظ بحرف واحد دون اذن من حاكم وسلطان الكون .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ

يرى القرآن أن اتخاذ شريك مع الله أو ند أو نسبة حقوقه تعالى أو

صفاته الى أحد آخر بأى وسيلة يعد جرما كبيرا لايغتفر فهـذا شرك بالله سبحانه . والقـرآن يقوض فى الآية السابقة دعائم الشرك ويقضى عليـه باعلانه أن حكمة الله غير متناهية وسلطانه غير محدود وقوته مطلقة لا نهائية ثم اذا هو يقـدم نفس الشىء فى هـذه الآية أيضا ولكن من وجهة نظر أخرى وذلك بتساؤله أنى لأحـد أن يتدخل فى ادارة الكون وتنظيمه مـع أن أحدا قط ليست لديه المعرفة التى هى شرط أساسى لهذا العمل ؟ فمعرفة الملائكة والبشر محدودة ناقصة حتى أن أحدا منهم لايقدر على فهم نظام الكـون . لهذا فأى تدخل منهم فى ادارته سيسفر حتما عن فساده لاتنظيمه لان البشر لا يستطيعون معرفة ما فيـه نفعهم وفلاحهم فعليهم اذن أن يثقوا ويؤمنوا أشد الايمان بهداية الله لأنه هو مصدر كل معرفة ونبع كل علم وهو وحده الذى يعلم ما ينفعهم وما يضرهم .

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

الكرسى مستخدم فى هذه الآية كرمز شكلى يشير الى السلطة . وتسمى هذه الآية بآية الكرسى وهى تعطينا عن الله معرفة لا نجد لها نظيرا فى أية آية أخرى وهذا هو السبب فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فى حديثه انها أفضل آيات الكتاب .

ولعل سائل يسأل فما مناسبة ذكر الله وصفاته فى هذا المكان ؟ ولاجابة هذا السؤال يلزمنا أن نسرح طرفنا فى الخطاب الذى يبدأ بالآية رقم ٢٤٣ .

فأول ما فيه أن المؤمنين حرضوا على الجهاد فى سبيل الله والتضحية بالحياة والمال لاقامة دينه كما أمروا أن يحترسوا من المزالق التى وقع فيها بنو اسرائيل ثم أقر فى أذهانهم أن النجاح لا يعتمد على مجرد العدد والمؤن والعتاد فحسب بل على الايمان والصبر والحلم وضبط النفس والحزم كذلك ثم تقررت الحكمة من الحرب كسلاح به يدفع الله الناس بعضهم ببعض وهى أن لو تركت أمة أو جماعة لتستمر فى القوة والنفوذ فسوف تجعل حياة معارضيها ومناوئيها حياة لا راحة ولا قرار فيها ثم بينت الآيات أن الله ليس بعاجز عن الذهاب بما بين الناس من الخلافات والخصومات لكنه لا يريد أن يزيلها قهرا وقسرا ولذا فهو يرسل الرسل بالحق لهذا الغرض وفى ذات الوقت يترك البشر أحرارا فى قبوله أو رفضه . بعد ذلك أمر المسلمون مرة أخرى كما فى بداية الخطاب أن ينفقوا أموالهم فى سبيل الله ثم يعلن القرآن فى هذه الآية انه رغم اختلافات عقائد الناس ودياناتهم فالحقيقة هى أن الله يحكم العالم كله وهو بالطبع لا يشاء أن يكره الناس على أن يؤمنوا به ولكنه يخبرهم فقط عن طريق رسله أن من آمن فأولئك هم المفلحون ومن كفر فأولئك هم الخاسرون .

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ

معنى « الدين » فى هذه الآية تلك العقيدة التى شرحت فى الاية السالفة (آية الكرسى) ونظام الحياة القائم على أساسها . ولا اكراه فى الدين يعنى أن عقيدة الاسلام ونظامه العملى والاخلاقى فى الحياه لايمكن فرضه على أحد قسرا وقهرا . لأن مثل هذه الامور لا يمكن اكراه أحد عليها .

فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

الطاغوت فى اللغة هو من تجاوز حده المشروع . والمراد بالطاغوت فى اصطلاح القرآن العبد الذى يتجاوز حدود « عبديته » ويزعم لنفسه السيادة والالوهية والحكم ويجعل عباد الله عبيدا له . وتمرد العبد على الله له مراتب ثلاث :

١ ــ اذا سلم بطاعته لله أصلا ولكنه خالف أحكامه فى الواقع وهذا فسق .

٢ ــ اذا انحرف عن طاعة الله أصلا وزعم لنفسه الحرية التامة أو عبد أحدا غير الله وهذا كفر .

٣ ــ اذا بغى على مالك الملك وأمضى حكمه الشخصى فى ملك الله ورعيته وهذه هى المرتبة التى اذا وصل المرء اليها سمى « طاغوتا » ولا يمكن لأحد أن يؤمن بالله ايمانا صحيحا ما لم يكفر بهذا الطاغوت .

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ

الظلمات هنا تعنى ظلمات الجهل التى تسلم المرء الى الحيدة عن المحجة القويمة والصراط المستقيم وتدفعه الى أن يبدد جهوده وطاقاته فى السبل الضالة . والنور نقيض الظلمات وهو نور الحق الذى يمكن المرء من أن يرى الحقيقة بوضوح ويفهم الهدف الحقيقى من الحياة ويتبع الصراط المستقيم بوعى تام واصرار لا يلين .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

رغم أن الطاغوت لفظ مفرد الا أنه عومل هنا معاملة الجمع من حيث المعنى لان من يرفض الله يصبح عبدا ـ لا لطاغوت واحد ـ بل لاشكال من الطواغيت عديدة منها الشيطان الذى يواصل اغراءه وفتنته بمغريات جذابة زائفة ومنها نفسه التى تجعله عبدا لعواطفه وأهوائه ونزواته وتضله الى سبل عوجاء وهناك طواغيت أخرى هم زوجته واولاده وعشيرته وأقرباؤه وأسرته وعائلته وأصدقاؤه وأمته وزعماؤه السياسيون والدينيون وحكومته ودولته كل أولئك طواغيت يبغون تسخيره عبدا لرغباتهم ومطامحهم . وهذا العبد الذى يملكه كل هؤلاء السادة يضيع حياته كلها فى محاولة تحقيق المستحيل وهو ارضاء السادة كلهم .

بعد أعلن القرآن فيما سبق أن الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات . وها هو يسرد فى الآيات التالية ثلاث واقعات لاثبات ذلك الأولى قصة امرىء بينت له الحقيقة بأدلة دامغة حتى أنه ما استطاع لها ردا ورغم هذا رفضها لان الطاغوت كان يضله فظل سادرا فى الغواية تائها فى لجج الظلمات . أما الثانية والثالثة فهى قصص من يؤمنون بالله ايمانا عميقا فلم يخرجهم من الظلمات الى النور فحسب بل أراهم الحقيقة المستترة وجعلهم يشاهدونها عيانا ليمكنهم من الشهادة بها .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ

الشخص الذى يشير اليه القرآن فى هذه الآية هو « نمرود » الذى كان ملكا على العراق مسقط رأس ابراهيم عليه السلام ولو اطلعنا على التوراة لوجدناها تخلو من ذكر هذه المجادلة التى وقعت بين ابراهيم عليه السلام وبين النمرود الا أن التلمود يوردها تفصيلا ومضمونها هو نفس مضمون ما يرويه القرآن . فهو يقول أن أبا ابراهيم كان كبير ضباط الملك نمرود وكانت له عند سيده مكانة مرموقة وكان ابنه ابراهيم محبا لله منذ طفولته ولما بلغ أشده شرع يدعو لوحدانية الله علانية ويدين الشرك بالله . ولكى يبرهن على دعوته حطم أصنام قومه فأسرع أبوه الى النمرود وأبلغه بما فعل ابراهيم وسأله ان يأتى به لسؤاله فاستدعى نمرود ابراهيم عليه السلام وجرى بينهما النقاش المذكور فى الآية .

أَنْ ءَاتَيٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

النقطة التى كان عليها الجدل هى من الذى كان ابراهيم يعترف به ربا ؟ الله أم نمرود ؟ وقد اشتد النقاش لغطرسة وصلف نمرود الذى كان يكره رعاياه على الاعتراف به ربا من دون الله . وطبيعى أن موقفه كان على خطأ اذ كان عليه ـ كعبد مقر بنعمة الله الذى آتاه الملك ـ أن يعترف بالله ربا . لكنه بدلا من الاعتراف بفضل الله عليه ونعمته علا فى الأرض وتكبر حتى زعم نفسه رب رعيته . ولما كان ابراهيم عليه السلام لا يستطيع احتمال هذا الوضع أو قبوله وقع ما وقع بينهما من نزاع .

ولكى نفهم طبيعة هذا النزاع علينا أن نضع فى أذهاننا عدة أمور :

١ ـ أن من السمات العامة لكافة الامم المشركة ايمانهم بان الله رب الأرباب واله الآلهة مع اشراكهم به آلهة وأربابا أخرى فلا يعترفون به وحده ربا ولا يتخذونه دون سواه الها ومعبودا .

٢ ـ ان المشركين كانوا يقسمون الألوهية الى شطرين ألوهية ما فوق الطبيعة والوهية الحكم وكانوا ينسبون الى الله أولاهما التى تتحكم فى كل قسم من الاسباب المؤثرة ومن ثم كانوا يرجعون الى الله ليساعدهم فى قضاء حاجاتهم والتغلب على مصاعبهم لكنهم فى جهالتهم اتخذوا الأرواح والملائكة والجن والبخور وأشياء أخرى عديدة شركاء مع الله العلى العظيم وصلوا لها وعبدوها وقدموا القرابين بين أيديها فى معابد وقفوها عليها . أما ألوهية الحكم التى هى لله حقا والتى تجعل بيده وحده اقرار طريق الحياة وتتطلب طاعة أوامره وأن تكون له السلطة المطلقة فوق كل شئون العالم كبيرها وصغيرها فان المشركين فى كل زمن اما يغتصبونها من الله تماما ويضفونها على الأسر الحاكمة أو الموالين للحكام وشيعتهم وأنصارهم واما يقسمونها بين الله وبين هؤلاء . وهذا هو السبب فى أن الحكام غالبا مايدعون الألوهية بالمعنى الثانى ولكى يدعموا دعواهم يزعمون أنهم سلائل الآلهة بالمعنى الاول وغالبا ما يعاضدهم فى هذا طبقة رجال الدين ويؤازرونهم فى رسم وتنفيذ مخططاتهم الشريرة فى تثبيت ادعاءاتهم .

٣ ـ أن نمرود كان يدعى الالوهية بمعناها الثانى فهو لم يكن ينكر وجود الله أو يزعم أنه خالق السماوات والارض أو حاكم الكون وربه بل كان يزعم فحسب أنه رب العراق وحاكمه المطلق أرضا وبشرا . فكان يزعم أن ما يصدر عن لسانى فهو قانون يطاع وما من أحد يعلونى فيحاسبنى لذا فمن لا يعترف بى وحدى ربا له فهو عاص متمرد .

٤ ـ ان النزاع المشار اليه فى الآية قد وقع حين أعلن ابراهيم عليه السلام « انى أعترف برب العالمين وحده ربا لى والها أعبده دون سواه وانكر انكارا تاما ربوبية والوهية أحد غيره » طبيعى أن اعلان مثل هذه العقيدة

لا يقضى على الديانة القومية والآلهة الدينية فحسب بل يحطم كذلك الدولة القومية وقوتها المركزية المتمثلة فى نمرود الذى كان يزعم نفسه رب العراق المطلق وهذا هو السبب فى احضار ابراهيم عليه السلام أمام نمرود كمتهم بالعصيان والتمرد لاستجوابه ومساءلته .

إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

رغم أن ابراهيم أعلن فى جملته الأولى بوضوح أن ليس ثمة رب سوى الله حاول نمرود تفنيد قوله بصفاقة فلما دمغه ابراهيم عليه السلام بالدليل الثانى تحير نمرود وبهت حتى أنه لم يقدر على الاتيان بحجة أخرى لمواصلة النقاش لانه كان يعلم علم اليقين أن الشمس تجرى بتصريف من الله الذى يعترف ابراهيم به ربا . ومع هذا لم يقبل نمرود هذه الحقيقة السافرة التى بانت له بجلاء لأن قبولها كان يعنى أن يتنازل عن دعواه فى الحكم المطلق ولما كان عصيانه وتمرده وكبرياؤه فى داخله ليس مستعدا لترك هذا الادعاء لذا لم يخرج من ظلمات عبادة النفس الى نور الحقيقة رغم أنه أفحم افحاما تاما . ولو كان نمرود اتخذ الله له وليا — بدل اتخاذه نفسه — لكان وجد فى دعوة ابراهيم عليه السلام الهداية الصحيحة .

يقول التلمود أن الملك أرسل ابراهيم عليه السلام الى السجن بعد هذه المجادلة حيث أمضى فيه أياما عشرة ثم حكم عليه الملك ومجلسه بان يحرق حيا بالقائه فى الأتون المتوهج . وقد ورد ذكر احراق ابراهيم فى القرآن أيضا فى سورة الانبياء ٥١ — ٧٤ وسورة العنكبوت ١٦ — ٢٤ وسورة الصافات ٨٥ — ٩٨ .

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

من غير المفيد أن نحدس حول تحديد شخصية هذا الرجل أو اسم القرية لان هذا ليس مهما بل ويستحيل القيام به ولا يوجد لهذه الاشياء ذكر فى القرآن أو الاحاديث الصحيحة وليس لدينا مصدر صحيح آخر يعول عليه الى جانب هذا فان معرفة أسمائها لاتضيف الينا شيئا جديرا بالاهمية قد يساعدنا على فهم الهدف الذى لأجله سبقت هذه القصة هنا وهو أن الله يخرج من اتخذه وليا من الظلمات الى النور لأن هذا تم ايضاحه دون تحديد

المدينة بانها أورشليم أو غيرها أو بأن ذلك الشخص كان عزرا أو نحميا أو حزقيال . غير أن كلماته وسياق حديثة يفصح عن أنه كان ولابد نبيا .

قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

هذا الاستفسار لايعنى أن هذا النبى كان لايؤمن بالبعث أو يشك فى القيامة بل يعنى أنه كان يطلب أن يرى الحقيقة رأى العين كما طلب ذلك أنبياء آخرون .

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ

ان مبعث شخص مات منذ مائة عام لهو فى ذاته آية حية بينة لمن كانوا يعاصرونه .

وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى

يعنى أريد الطمانينة التى تحصل بالتجربة العملية .

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

أورد البعض تفسيرات غريبة لهاتين الوقعتين الآنف ذكرهما . لكنى أرى أن ليست بنا حاجة للاتيان بتفاسير مستغربة بعيدة الاحتمال لان الله تعالى — كما قال الرجل فى الوقعة الاولى — على كل شئ قدير الى جانب أن معاملة الله لانبيائه لها طبيعة غير عادية لان المؤمن العادى لاتلـزمه رؤية الحقيقة عيانا ليقوم بواجباته أما النبى فمن الضرورى لمهمته ورسالته أن يرى بعينه تلك الحقائق التى عليه أن يدعو الناس لها لان الانبياء عليهم أن يخبروا الناس — بايمان صلب متين ويقين واعتقاد كامل — أننا قد رأينا باعيننـا هذه الحقائق التى تتأسس عليها معرفتكم حدسا وتخمينا . فأنتم جهاء ونحن عارفون وأنتم عميان ونحن مبصرون . ولهـذا كانت الملائكة تأتيهم وجها لوجه كى يروهم بأعينهم . كذلك بين لهم نظام السماوات والأرض فعـلا والجنة والنار والبعث والقيامة بعد الموت . ورغم أن الانبياء كانوا يؤمنون بكل هذا حتى من قبل تشريفهم بالرسـالات الا أن الله جعلهم يشـاهدون الحقائق بعد بعثتهم كفضل وامتياز خاص بهم .

حرض المسلمون فى الخطاب الذى بدأ بالآية رقم ٢٤٣ على التضحية بالنفس والنفيس وبالروح والممتلكات لانجاح القضية العظيمة الشريفة التى آمنوا بها . وفى الآية الاتية استؤنفت الفكرة منجديد بعد تقوية وتثبيت ايمانهم بالله الذى أمروا بأن يضحوا فى سبيله وصدرت تعليمات وأوامر لتغذية وانماء هذا الموقف العقلى اللازم للقيام بهذه التضحيات وبذلها . وبالطبع هيهـات للناس أن يقدموا على التضحيات المالية فى سبيل قضية أخلاقية ما لم تكن وجهة نظرهم الاقتصادية قد تغيرت تماما . لكن الماديين الذين يعيشـون ويموتون وهم يجمعون المال ويكدسونه ويزنون كل أمر صغر أم كبر بمقياس الربح والخسارة فلا يمكن أن ينتظر منهم انفاق أى شئ فى سبيل أهداف أسمى وأرفع . وحتى حين تراهم ينفقون فى سبيل مبدأ نبيل أو قضية شريفة فانهم لايفعلون هذا الا بعد أن يكونوا قد وازنوا بين الامور وحسبوا مـدى ما تحققه هذه القضية لقومهم وذواتهم من نفع وفائدة وطبيعى أن المرء لا يقدر أن يتقدم تحت هذا التفكير قيد شعرة واحدة فى سبيل الله ، اذ يتحتم على الانسان — لأجل اعلاء كلمة الله — أن ينفق فى سبيله كل طاقته وحيانه وماله بصرف النظر عن أى مكسب أو خسارة دنيوية لان هذا الطريق يتطلب كرما وسخاء وشجاعة كبيرة وقلبا متسعا عظيما — وفوق هذا وذاك — رغبـة صادقة حقيقية فى نيل رضا الله والفوز به كذلك يتطلب تغييرات جذرية فى النظام الاجتماعى من أجل تفتيت وازالة الاخلاق المادية وخلق وتكوين القيم الروحية فى مكانها . لذا فمن هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم ...) والى الآية رقم ٢٨١ يعطى الله تعليمات وارشادات لخلق هـذا النوع من القيم الاخلاقية والفكرية .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

كافة الاموال والثروات التى تنفق بما ينطبق وقانون الله وابتغـاء

مرضاته هى فى سبيل الله . حتى ولو أنفقت لسد احتياجات المرء نفسه أو أقاربه . كذلك ما ينفق على المساكين والفقراء أو أعمال البر العامة أو الدعوة الى الاسلام أو الجهاد فهو فى سبيل الله أيضا .

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

لانه تعالى عنده خزائن لانهاية لها ويعلم كل شىء سرا كان أم علنا فعلى المرء أن يوقن أنه على قدر اخلاصه وصدقه وعمق مشاعر العبادة فى انفاقه ثروته فى سبيل الله يكون عظيم المكافأة التى ينالها من رب العالمين . وأن يؤمن ايمانا تاما بأن الله الذى يخرج من الحبة الواحدة سبعمائة حبة قادر ولا شك على أن يضاعف الحسنة سبعمائة ضعف .

وبعد تقرير هذه الحقيقة ذكرت صفتان من صفات الله على وجه الخصوص (واسع عليم) وذلك لتوضيح أن الله عنده خزائن كل شىءومصادر كل أمر وأنه قادر على أن يجازى عن الأعمال الى المدى الذى تستحقه وانه تعالى عليم بكل شىء وليس غافلا عما ينفقه العبد وبأى نية ينفقه لهذا فلا يخافن امرؤ أن يفقد ما يستحقه من جزاء ومكافأة .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) *

يعنى ليس ثمة خوف من أن يفقدوا ما يستحقون من ثواب ومكافأة ولاهم يحزنون على ما ينفقون .

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

تشير هذه الآية الى أمرين الأول أن الله سبحانه لا يحتاج الى عطاء من أحد لانه هو الغنى بلا مثال والثانى أنه تعالى يحب الكرماء ذوى الجود والعطاء ويكره البخلاء الاشحاء الحقراء لانه هو نفسه جواد كريم حليم فاى شبه اذن بين الله الكريم الذى يهب للناس ما لا يعد ولا يحصى مما يحتاجون

اليه في حيواتهم ويعفو دوما عن سيئاتهم ويتجاوز عن اخطائهم وبين من يريقون حياء وجه المرء بارسالهم اليه مرارا يذكرونه باحسانهم اليه ويشيرون الى عطاياهم حتى وان كان عطاؤهم شيئا قليلا . يقول الحديث النبوى : « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر اليهم ولايزكيهم ولهم عذاب عظيم المنان الذى لايعطى شيئا الا منه ... »

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

لأن نفاقه يثبت أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . واحسانه تظاهرا ورياء ليرى الناس أنه جواد محسن يثبت أنه يتخذ الناس ــ لا الله ــ آلهة وأربابا ينتظر منهم أن يكافئوه ويجزوه فالمنافق لا ينتظر من الله جزاء أو مكافأة ولا يؤمن بأن هذه الاعمال سوف توزن ذات يوم .

فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا

الوابل فى هذا المثل هو الاحسان ، والصفوان (صخرة صلدة) الذى يسقط عليـه المطر هو النية السيئة التى يحسن بها المنافق ، والتراب هو الخير الظاهرى الذى يخفى وراءه النية السيئة . ورغم أن المطر يحيى الزرع وينبت الحب الا أنه يصبح ضارا اذا نزل على صخرة عليها طبقة خفيفة من التراب لانه يذهب بهذا التراب ويذر الصخرة عارية مكشوفة . وكذا الحال فى الاحسان فرغم أنه ينمى الفضيلة ويكثر الخير الا أنه يفقد هذه الصفات اذا لم يخرج بنية حسنة ويصير ثروة مبددة كما يتبدد المطر الساقط على صخرة تعلوها طبقة خفيفة من التربة .

لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

كافر هنا تعنى الكافر بالنعمة أو جاحدها فمن لاينفق ما أعطاه الله من ثروة فى سبيله تعالى وابتغاء مرضاته ويبددها بغية نيل استحسان الناس وابتغاء رضاهم فهو كافر ينسى فضل الله عليه ويجحد بنعمته . ويضارعه فى كفره هذا من ينفق فى سبيل الله ويتبع ما أنفق أذى وايلاما لمن اخذ منه شيئا . وحيث أن هذا الكافر لايبتغى رضا ربه فان الله لايهديه أو يرشده الى طريق رضاه .

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا
وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

الوابل هنا (المطر الغزير) هو الاحسان الذى يقدمه المرء بنية خالصة لله وبأعمق مشاعر العبادة . والطل (أضعف المطر) هو الاحسان الذى يؤديه المرء دون مشاعر عميقة أو عواطف قوية رغم اخلاصه فيه لله

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

يعنى أنكم لا تحبون أن يضيع كسب عمركم كله فى أكثر أوقاتكم احتياجا اليه وحين لا تكون أمامكم فرصة للكسب من جديد فكيف بكم تحبون أن تعملوا فى دنياكم ثم ما أن تصلوا الى أخراكم حتى يتبين لكم أن كافة مآثر الحياة لاقيمة لها وأن ماكنتم تكدحون فى الدنيا لكسبه قد تركتموه فيها وأنكم ما قدمتم شيئا تستطيعون أكل ثمرة فى الاخرة وليست هناك فرصة أخرى لتقدموا فيها شيئا لاخراكم .

ان الفرصة الوحيدة للعمل من أجل الآخرة تكون فى الدنيا فحسب . فلو افنيتم العمر فى الدنيا دون تفكير فى الاخرة واضعتم جهودكم وسعيكم فى تحصيل متاع الدنيا أضحت حالكم عند غروب شمس الحياة حالة مؤسفة ملؤها الحسرة والاسى كحال ذلك العجوز الذى كانت له حديقة هى كل ثروة عمره وعونه فى الحياة فاحترقت فى عجزه وشيخوخته حين لم يكن فى مقدوره أن يغرس غيرها ولم يكن فى وسع اولاده أن يعينوه ويؤازروه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن
تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

يعنى أن الله الغنى عن العالمين يأمر الناس أن ينفقوا فى سبيله أفضل وأحسن ما لديهم لا لمصلحة أو نفع يناله سبحانه بل لخيرهم وصالحهم ولانه تعالى رب الصفات الحميدة وصاحب النعوت والسمات المجيدة وهو الكمال ولاكمال لغيره لذا فهو لايرضى عمن تدلت شخصيته وانحطت أخلاقه وشمائله ولا يحب الأشحاء الوضعاء والحمقى الذين يتخيرون أحقر الاشياء لينفقوا منها لأنه تعالى سنام الجود والكرم والسخاء يفيض بأفضاله ومننه وبركاته على مخلوقاته كيف يشاء .

ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ
وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ
ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾

الحكمة تعنى البصيرة والقدرة على الفعل وتمييز الحق والصواب ومن ثم فمن عنده حكمة لن يتبع سبل الشيطان الضيقة السقيمة بل يتبع سبيل الله وطريقه الواسع العريض . والحكمة والمهارة فى عين مريدى الشيطان أن يكونوا بخلاء أشحاء يوقفون أنفسهم على اكتساب المال وتجميع الثروة ما تردد بين أضلعهم نفس . أما من أوتوا الحكمة حقا فيرون هذا سلوكا مشينا والحكمة عندهم أن ينفقوا أموالهم وثرواتهم بكرم وسخاء فى وجوه البر وأعمال الخير بعد اشباع متطلباتهم وحاجاتهم على نهج وسط قويم لايسرفون ولايقترون . وقد يتمتع الاولون بثراء عريض فى الدنيا ولكن الحياة الدنيا ليست هى الحياة كلها بل هى جزء جد قليل من الحياة الحقيقية التى تدوم وتخلد بعد الممات لذا فمن يرم متعة هذه الدنيا القصيرة الامد على حساب سعادة الآخرة الخالدة السرمدية فهو لاشك أحمق جهول والحكيم من يحسن استخدام هذه الحياة العاجلة القصيرة ويتزود للنجاح والرخاء حتى ولو كان فى دنياه على حظ قليل من المال والثراء .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

يعنى ان الله عليم بذات الصدور مطلع على سرائر وأفعال العباد يعلم اذا كان عبده ينفق فى سبيل الله أم فى سبيل الشيطان واذا كان يقدم نذره لله أم لاحد من المخلوقات، لذا فالذين ينفقون فى سبيل الله وله ينذرون سيجزون أحسن ما كانوا يفعلون . أما الذين ينفقون فى سبيل الشيطان ولغير الله ينذرون فليس لهم من قوة ولاناصر ينقذهم من العذاب الاليم .

والنذر وعد يلزم المرء فيه نفسه بأداء عمل أو انفاق مال اذا ما تحققت له امنية يتمناها فان كانت امنيته ورغبته مشروعة وطلبها من الله وحده ونذر لله دون سواه وأوفى به كان الوفاء بمثل هذا النذر موجبا للاجر والثواب اما اذا كان النذر لغير الله أو لتمنى تحقيق أمنية غير مشروعة فان الوفاء به يوجب على المرء نار جهنم وعذاب السعير .

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ

الأفضل أن يؤدى المرء الصدقة المفروضة (الزكاة) علانية ويؤدى كافة الصدقات الاخرى سرا . وهذا المبدأ ينطبق على سائر الاعمال الدينية طرا فما كان منها فرضا فمن الافضل اداؤه علنا وما كان منها تطوعا فمن الخير تأديته سرا .

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

ان بذل الخير سرا يعين على تكوين شخص المرء وينمى الفضائل فيه ويمحق الرذائل ونتيجة لهذا يصبح المرء محبوبا عند الله مفضلا فيغفر الله له — نظرا لخير معدنه وصلاح واخلاص جوهره — ما يشاؤه تعالى مما يبدر منه من هفوات الاهمال والتقصير فى اداء الواجب ويتجاوز تعالى عما يريد من سيئاته ولممه .

لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

فى هذه الآية محا الله ما غشى على بصائر المسلمين من خطأ فى الفهم .
فقد كانوا يترددون فى التصدق على غير المسلمين سواء كانوا أقاربهم أم غرباء عنهم ظانين ان الاحسان لا يكون فى سبيل الله ولوجهه الكريم الا اذا ذهب الى المسلمين دون سواهم فأخبرهم المولى عز وجل فى هذه الآية أنه لم يحملهم مسئولية فرض الهداية على الكافرين تسلطا وقهرا وان ما عليهم من مسئوليه تنتهى عند تبليغهم الكافرين الحق الذى انزله الله . ولله اذا شاء ان يفتح بصائرهم أو يطمس على قلوبهم وعلى هذا فلعى المسلمين الا يمسكوا يد العون ويبخلوا بالتصدق على غير المسلمين وسد حاجاتهم بسبب رفضهم الهداية لان الله تعالى سيجزيهم خيرا عن تصدقهم واحسانهم الى أى انسان مهما كان طالما كان احسانهم وتصدقهم ابتغاء وجه الله .

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

أمر الله المسلمين فى هذه الآية بتقديم العون والمساعدات الى من وقفوا انفسهم على خدمة الاسلام فعجزوا عن ان يضربوا فى الارض ليبتغوا من فضل الله كما كان يفعل بعض الصحابة الاوفياء فى حياة الرسول عليه صلوات الله وسلامه . فقد كانت هناك طائفة من المتطوعين الزاهدين وقفوا أوقاتهم وحيواتهم وانفسهم على خدمة الدين الحنيف عرفوا بأهل الصفة وكانوا على استعداد دائم رهن اشارة الرسول عليه الصلاة والسلام الذى لقنهم معرفة الاسلام ودربهم على خدمته فراحوا ينقلون ما عرفوه وتلقوه عن الرسول الى الآخرين وارسلهم الرسول عليه الصلاة والسلام فى مهام وبعثات مختلفة وبالطبع امثال هؤلاء يستحقون ان يعينهم المسلمون على الحياة وهم الذين كانوا يعملون كل وقتهم لخدمة الاسلام وليس لديهم متسع من الوقت لكسب العيش وتحصيل القوت والرزق .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ

الربا فى اللغة هو الزيادة باطلاق أما معناه الاصطلاحى فهو المال الذى يأخذه الدائن من المدين بسعر محدد زيادة على المال الاصلى الذى يقرضه له وهو ما يسمى بالفائدة . وحين نزل القرآن كانت الفائدة على أنواع وأشكال فمثلا كان هناك من يبيع للناس ما عنده ثم يحدد لسداد ثمنه موعدا فان لم يستطع من اشترى سداده فى وقته اعطاه فسحة من الوقت على ان يرفع ثمن ما باعه . وكان هناك ايضا من يقرض الناس مالا ويطلب اليهم رده مع مبلغ اضافى يتفق الطرفان عليه خلال فترة معينة وكان هناك من يحدد سعر الفائدة لفترة محددة فان لم يرد المدين المال الأصلى ومعه الفائدة زيد سعر الفائدة على المدة المزادة وهلم جرا .

لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ

يشبه القرآن المرابى بالمجنون فكما ان المجنون يفقد الادراك لاختلال عقله واعتلال ذهنه كذلك آكل الربا يجن بالمال حتى انه ليفصل نفسه عن الفطرة السليمة والذوق القويم . فهو بليد الحس والشعور حتى أنه لا يعقل كيف تضرب انانيته وجشعه بمعاولها فى جذور الحب الانسانى ومشاعر الود والاخوة البشرية ويحطمان خير الانسانية العام ولا يشغل باله او يقلق خاطره انه يصيب ثراء على حساب الآخرين فهو بهذا يتصرف فى دنياه كالمجنون وسيقوم آن بعثه فى الآخرة كالمجنون أيضا لأن المرء يقوم يوم القيامة بحالته التى مات عليها .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ

فأساس فساد نظريتهم انهم عموا عما بين الربح والفائدة من فرق كبير فقالوا حيث ان الربح فى التجارة حلال فلم تكون الفائدة على القروض حراما ؟ ولا تحسبوا ان المرابين فى الجزيرة وحدهم الذين كانوا ينادون ويزعمون هذا بل ان أصحاب البنوك والمرابين فى عصرنا هذا يدعون بنفس دعوى الجاهلية القديمة ويوردون حججا مماثلة تحليلا للفائدة واستساغة لها فيقولون مثلا ان من يقرض احدا بعض ماله كان فى استطاعته ان يستثمره ويفيد منه وان من يقترض هذا المال يستثمره بالفعل فى تجارة أو مشاريع تعود عليه بالربح فلم لا يأخذ المقرض من المقترض نصيبا مما ربح وكسب ؟ وينسون ان ليس ثمة ممن يربح ربحا محددا مضمونا دون خسارة . فالمرء فى التجارة والصناعة والزراعة وما اليها عليه ان ينفق العمل ورأس المال وأن يواجه فى نفس الوقت المخاطر والخسارة دون ضمان لربح محدد اكيد

ولندع الى حين وضع المدين الذى يقترض مالا لاستهلاكه الشخصى والوفاء بما يحتاج هو وأسرته وكذا مسألة سعر الفائدة وتعال بنا نقارن

بين حال المرابى الذى يقرض المال لتشغيله فى اعمال تجارية مربحة بسعر متوسط للفائدة وبين حال من يزاولون التجارة وما اليها فعلا . فهؤلاء يوقفون كل وقتهم وعملهم وقدراتهم ومواهبهم ويستثمرون مالهم الخاص ويعملون ليل نهار كى تربح تجارتهم بفضل مجهوداتهم الخاصة دون أن يأمنوا خطر الخسارة على حين يستمر المرابى الذى يقرض المال ولا شىء أكثر من هذا فى أخذ نسبة ربح معينة دون التعرض لأية أخطار مهما كان نوعها . فكيف يحق له ابتلاع نسبة محددة من الربح ؟ وبأى معقولية يأخذها؟ وعلى أى اسس للمطنق والعدل وبأى وجهة نظر اقتصادية يربح هذه النسبة ؟ وكيف يكون امرؤ على حق وصواب فى ان يقرض مصنعا مثلا مبلغا من المال بسعر فائدة محدد من تاريخ اقراضه والى عشرين عاما مقبلة على حين لا يستطيع احد ان يعلم أو يتنبأ بارتفاع او انخفاض الاسعار الذى قد يحدث خلال هذه السنوات العشرين ؟ وكيف يصح لمن يمول قروض الحروب ان يطلب — حتى من أمته هو — سعر فائدة محدد لمدة قرن بأكمله على حين تواجه الامة كلها المخاطر والتهلكات وتتحمل الخسائر وتبذل من التضحيات ما تبذل ؟ .

وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ

ان الفارق بين الربح والفائدة والذى يقود الى نتائج اخلاقية واقتصادية عديدة هو : —

١ — ان تحديد الربح بين البائع والمشترى يتم على شروط متساوية . فالمشترى يبتاع ما يحتاجه والبائع يأخذ ربحا نظير الوقت والعمل والقدرات الذهنية التى يوظفها فى اعداد وتجهيز السلعة للمشترى . أما الفائدة فهى على نقيض هذا والمدين بالطبع ليس فى مقدوره ان يحدد التعامل بينه وبين الدائن على شروط متساوية نظرا لضعف جانبه ووهن موقفه والمرابى يأخذ قيمة الفائدة المحددة التى يعتبرها ربحا له ومكسبا بقدر ما يشاء . فان انفق المدين كل ما اقترض من مال فى تلبية احتياجاته الشخصية فلا شك ان عنصر الوقت لا يأتى عليه بربح على الاطلاق . وان استثمر ما اقترض فى تجارة أو صناعة أو زراعة ونحوها كانت أمامه فرص متساوية للربح والخسارة وهكذا يدر الاقتراض بفائدة ربحا مضمونا محددا على طرف وخسارة على الطرف الآخر او ربحا مضمونا محددا على طرف وربحا غير محدد وغير مضمون على الطرف الآخر .

٢ — ان التاجر يحدد ربحه ويطلبه دفعة واحدة وعن كل ما أنتج أما المرابى فيواصل ابتلاع الفائدة تكرارا وتواصل الفائدة سيرها نحو الزيادة بمرور الوقت . ومهما كان الربح الذى يحدده المدين على اموال الدائن التى يستثمرها كبيرا الا ان له فى النهاية حدوده . أما الفائدة التى يأخذها الدائن على امواله فلا حدود لها فقد تستنزف ربح المدين

عن آخره وهذا يحدث بالفعل فى أحايين كثيرة . ليس هذا فحسب بل قد يصل الامر الى حرمانه من كافة وسائل العيش او ما يلزم لاستخداماته الشخصية وقد يبقى المدين وعليه نفس كمية الدين كما كانت آن الاقتراض

٣ ــ ان التعامل فى مجال التجارة ينتهى بانتقال المادة وثمنها الى ايدى آخرين فلا يلزم على المشترى بعد هذا ان يعيد شيئا الى البائع . وبالنسبة لايجار الاماكن والمنازل والاراضى وما اليها فالعين المؤجرة لا تتبدد او تبلى فى حد ذاتها وانما ترد الى مالكها بعد انقضاء الفترة المحددة لايجارها أما بالنسبة للمال فعلى المدين ان ينفقه اولا ثم يولده ويوظفه ثم يعيده الى الدائن مع فائدة وبذا يضطر المدين لان يعرض نفسه لخطرين خطر توظيف المال وتشغيله وخطر استخراج الفائدة المطالبة عليه .

٤ ــ ان من يزاول التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو غيرها يتقاضى ربحه على ما أنفق من وقت وعمل وجهد وذكاء ونحوه أما المرابى فيغنم نصيب الاسد فى ارباح المدين دون مواجهة خطر او بذل جهد وعرق وليس لربحه مبرر سوى انه يستثمر ما زاد عن حاجته من مال فهو شريك الى المدى الذى يكفل له فائدة محددة مضمونة وحسب بقطع النظر عن كم الربح وبلا مبالاة بما يقع من خسارة .

يظهر لنا من كل ما سبق ان التجارة ــ حتى من وجهة النظر الاقتصادية ــ تشارك فى بناء المجتمع وتساعد على نمائه . وان الربا يهدم كيانه ويقوض بنيانه . اما من وجهة النظر الاخلاقية فالربا بطبيعته يخلق الجشع والحرص والطمع والانانية وتحجر القلوب وغلظة الافئدة وعبادة المال والثراء ويقتل فى الأفراد مشاعر الاخوة وروح التعاون وعلى هذا فالربا مهلك للمجتمع اخلاقيا واقتصاديا .

فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

هذا العفو ينطبق على الوجهة القانونية للربا الذى اخذ قبل نزول آيات التحريم ولا يعنى ان ما دخل منها فى جيب المرابى قد اصبح حلالا ايضا فالفاظ الآية تدلنا على ان القضية لله يتخذ فيها ما يشاء من قرارات وان امر من كان يتعامل بالربا قبل نزول الآيات صائر الى الله يحكم فيه كيف يشاء وان الله لم يغفر ما سلف تماما . ولاجتناب التقاضى الذى لا ينتهى فى هذا الامر اعلن سبحانه وتعالى سقوط حق المطالبة القانونية برد الربا الذى أخذ فيما مضى . اما من الزاوية الاخلاقية فان آكل الربا يظل مدنسا

وعليه ان يبذل ما فى وسعه لتطهير نفسه من دنس الربا فلا ينفق حصيلته على نفسه بل يجتهد فى الوصول الى من أخذ منهم ما أخذ ويرده اليهم فان لم يستطع الاهتداء اليهم فعليه ان ينفق ما جمعه من مال حرام فى وجوه الخير الاجتماعية . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها ان يدرأ عن نفسه عقاب الله الذى سيفصل فى هذه القضية يوم الحساب اما من استمر فى الاستمتاع بهذا المال الحرام فسيعرض نفسه لعذاب الله وعقابه له حتى عن تعامله بالربا فيما سلف .

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ

ما اصدق هذا وأصوبه من الزاوية الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والروحية فمع ان الربا يغنى فى ظاهرة والصدقة تدقع وتفقر فالعكس يصدق تماما . فالربا فى شريعة الله عائق بطبيعته أمام التقدم والازدهار الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقى والروحى اما الصدقة — بما فيها الاقتراض بغير فائدة — فتدفع الى النماء والتقدم .

ولو سرحنا النظر فى الربا من الزاويه الاخلاقية والروحية لرأينا فى جلاء انه يقوم على الجشع والطمع والانانية والبخل والغلظة وانه يروى هذه الشرور والمآثم ويغذيها فى نفس المرابى . بينما تقوم الصدقة على اساس الكرم والعطف والسخاء وتغرس هذه الصفات الساميه وتنميها فى نفس المحسن المتصدق . فأنى لاحد ان ينكر خير هذه الصفات وافضليتها على سابقتها ؟

أما ان تناولنا الربا — بقليل من التدبر والتمحيص — من الناحية الاجتماعية بان لنا توا ان المجتمع هيهات ان تقوم له قائمة اذا اسس افراده معاملاتهم فيما بينهم على الانانية وحب النفس . فان كان كل فرد فيه لا يبغى مساعدة الآخر دون نفع يعود على شخصه وان كان الاغنياء فيه يعتقدون ان الفقراء ما وجدوا الا ليتيحوا لهم فرص الاستغلال العسفى فلا محيص من تصادم مصالح كليهما فيتصدع بناء المجتمع وتتفسخ لبناته فان عاضدت العوامل الاخرى هذا الوضع المجحف فان الصراع الطبقى لا محاولة واقع .

أما ان أقام أفراد المجتمع معاملاتهم على أساس الود والعطف المتبادل وعامل كل منهم أخاه بكرم وسخاء فسوف يصنعون من مجتمعهم بناء متينا واذا حاول كل فرد فيه أن يعين الآخر عند الحاجة وعامل من يملكون من لايملكون بعطف او على الاقل بعدل فسوف تنشأ فيه مشاعر الاخوة والحب ويشتد بناؤه لبنة الى لبنة ويتقدم — بالطبع — بخطى عاجلة سريعة وذلك لانتشار روح التعاون والاخاء بين خلاياه وانسجته .

ولنتناول الربا الآن من وجهة النظر الاقتصادية . ان القروض نوعان قرض استهلاكى وهو ما يستدينه الفقراء المعوزون لقضاء لوازمهم الشخصية

وآخر اقتصادى وهو ما يقترضه رجال الاعمال لتوظيفه فى مشاريع واعمال تجارية او صناعية او زراعية او غيرها . أما الاول فكلنا يعرف ان اخذ فائدة عليه يسوق الى دمار محقق ويؤدى الى خراب وطامة ليس لها من دون الله كاشفة وانا لنرى الدائنين واصحاب البنوك يمصون دماء العمال الكادحين والفلاحين المعوزين والفقراء بوجه عام ويسكنونهم دار البؤس والشقاء لان دفع الفائدة يجعل تسديد الديون مستحيلا عليهم فى اغلب الأوقات فيضطرون للاقتراض مرة تلو الاخرى محاولين التخلص من هذه الورطة الشنيعة وحتى بعد دفع الفائدة التى تكون قد بلغت اضعاف اصل المال يبقى المال الاصلى كما كان من ذى قبل لان الدائن يلتهم النصيب الاكبر من دخل المدين الذى يجد نفسه عاجزا عن الاقتصاد فى الانفاق حتى لا يتخطى حدود دخله . وهذا بالطبع يقتل استفادة العمال من عملهم فكيف يخلصون فيه ويجتهدون وهم يرون ثماره يبتلعها آخرون ؟ الى جانب انهم لا يستطيعون حتى شراء الدواء اللازم اذا انهك الجوع قواهم وقضى الهم والغم على صحتهم وذلك لاحتياجهم لشديد الى المال وهكذا يؤدى الربا الى تسمين واتراف قلة على حساب مص دماء الاغلبية ويتسبب فى افساد الامة بوجه عام لان العجز وقلة الكفاءة الناتجة عن هذا تفسد نوعية الانتاج القومى وتهبط بمستواه ويسقط مصاصو الدماء أنفسهم فى النهاية فريسة ظلمهم وجشعهم وجورهم لان تفاعل الغضب المكبوت والكراهية الدفينة فى قلوب المضطهدين المظلومين مع انانية المرابين غلاظ الاكباد يفجر ثورة دامية تسحق شرفهم وحياتهم وثروتهم التى اقتنوها ظلما وعدوانا .

أما القسم الثانى وهو الفائدة المحددة على القروض الاقتصادية فنكتفى بذكر ثلاثة من شرورها العديدة :

١ ــ ان المشروعات التى لا تستطيع تحقيق ربح يعادل سعر الفائدة الموجود فى السوق لا تستطيع تدبير المال وتوفيره مهما كانت نافعة للامة وستتجه كافة وسائل التمويل فى الدولة الى المشروعات التى قد تأتى بفائدة مساوية او اكبر من سعر الفائدة فى السوق مهما كانت عديمة الفائدة او حتى ضارة من الناحية الاجتماعية .

٢ ــ ليس ثمة عمل تجارى او صناعى او زراعى ونحوه يضمن سعرا محددا ومنتظما للربح ــ خمسة او ستة او عشرة فى المائة مثلا ــ تحت كل الظروف وفى كل الاحوال . بل الواقع انه لا يمكن لاى عمل ان يضمن سلامته من أى خسارة فكيف بنا نتحدث عن ضمانه للربح ؟ فالعمل الذى يقترض مالا بسعر محدد للفائدة لا يمكن أن يكون فى منجى من الخطر والخسارة .

٣ ــ ولأن المقترض ليس شريكا مباشرا فعليا فى ربح العمل أو خسارته وانما يجعل كل همه وهدفه تحصيل فائدته المحددة المضمونة دون اكتراث بما عداها لذا فهو لا يهتم بمصلحة العمل فى قليل او كثير بل يقصر اهتمامه على تحقيق وتحصيل نفعه وحده ومن اجل هذا يحاول بأنانية بالغة

ان يسحب ويحبس ماله اذا شعر بأدنى هزة من الانخفاض او الكساد في السوق وبذا يخلق بانانيته ذعرا ماليا وارباكا شديدا ويفرش الطريق لازمة اخرى فان حدثت ازمة بالفعل عجل بها الى كارثة مدمرة .

هذه ثلاثة من اضرار الربا وشروره لا تخفى على من له علم باوليات الاقتصاد وابجديته فهل لأحد ان ينكر حقيقة قانون الله الذى اعلن فيه سبحانه ان الربا يسحق الاقتصاد القومى ويدمره ؟

ولنتناول الصدقة فى السطور التالية من وجهة النظر الاقتصادية :

ان الميسورين اذا انفقوا أموالهم بسخاء فى سد لوازمهم الشخصية فى الحياة والوفاء باحتياجات عيالهم ووزعوا منها جزءا على المحتاجين ليمكنوهم من تلبية ضرورات الحياة او اقرضوه رجال الاعمال دون فائدة او استثمروه فى مشاريع تجارية أو صناعية وغيرها على اساس المشاركة فى الربح او الخسارة أو اقرضوه حكومتهم بدون فائدة لاستغلاله فى الخدمات القومية فما من شك فى ان التجارة والزراعة وما اليها ستصيب قسطا من الازدهار والنماء ويرقى مستواها ونوعها ويرتفع مستوى الثروة القومية ويعظم الانتاج ويتكاثر اذا قورن بما عليه من بلد يحل الربا ويجعله أمرا مشروعا .

وهكذا يتضح ان الربا يربط الامة الى قاع التأخر والانحطاط ويعوق تقدمها وأن الصدقة تدفعها الى قمة التقدم والارتقاء وتفيض عليها خيرا كثيرا

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

آكل الربا ولا ريب كافر تعيس ذنيم واقل ما كان ينبغى عليه — كعبد مقر بنعمة الله الذى وهبه مالا وفيرا — أن يقرض ماله لعباد الله الآخرين دون فائدة . فان لم يفعل هذا واستخدم كرم الله فى استغلال عباد الله الذين لا يملكون كما يملك اصبح كافرا بل آثما شريرا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

فى هذه الآيات قدم الله لنا شخصيتين متباينتين متناقضتين الاولى شخصية عبد الثروة الانانى آكل الربا الجشع الذى لا يأبه بالله ولا بمخلوقاته ويصرف ليله ويقضى نهاره فى تكديس المال . والثانية شخصية عبد الله الكريم العطوف الجواد الذى يرعى حقوق الله ومخلوقاته ويكسب ماله حلالا وينفقه فى

احتياجات نفسه واحتياجات الآخرين وفى أعمال الخير ووجوه البر . والله سبحانه وتعالى يلعن لصنف الأول من البشر ويمقته لانهم لا يقدمون خيرا ولا يستطيعون تأسيس مجتمع صالح ليس هذا وكفى بل انهم يلقون بأنفسهم وبالآخرين فى حفر البؤس والشقاء فى الحياة الدنيا ويوم القيامة سيجزون أسوأ ما عملوا ويجرعون غصة وحميما . بينما يثنى الله على النمط البشرى الثانى ويحبهم لانهم يسارعون الى الخيرات ويساعدون على بناء المجتمع فلهم فى هذه الدنيا حسنة وأمن وسكينة وعليهم فى الآخرة سيول من نعم ومسرات وافضال وبركات .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

نزلت هذه الآية بعد فتح مكة لكنها الحقت هنا لاتصالها بموضوع الربا . وحتى قبل تنزيلها كان الناس فى المجتمع المسلم يعدون الربا شيئا كريها ممقوتا رغم انه لم يكن عندهم امر صريح بتحريمه اما بعد نزول هذه الآية اضحى التعامل بالربا جريمة فى الدولة الاسلامية . فأنذرت القبائل التى كانت تعامل به بالحرب ان لم يذورا نهجهم هذا وكان من بين بنود اتفاقية الاستقلال الذى منح لنصارى نجران فى الدولة الاسلامية ان لو استمروا فى تعاملهم بالربا لكان ذلك نقضا للاتفاقية ولحلت بينهم وبين الدولة الاسلامية حالة حرب .

وقد استنتج ابن عباس والحسن البصرى وابن سيرين وربيع بن انس رضوان الله عليهم من قوله تعالى ((**فأذنوا بحرب من الله ورسوله**)) ان آكل الربا فى الدولة الاسلامية ينبغى انذاره ان يكف عن صنيعه ويتوب فان لم يفعل ذلك قتل قتلا . بينما يرى الفقهاء الآخرون ضرورة القائه فى السجن الى ان يتعهد بالاوبة والتوبة عن ذلك .

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

هذه الآية تخول المحاكم الاسلامية الحق القانونى فى اجبار الدائن على اعطاء المدين فسحة اكبر من الوقت ليتمكن من دفع دينه ان كان فى مخمصة وضيق لا يستطيع معه ان يقضى دينه . ويصبح للمحاكم الاسلامية حق حذف الدين كله او بعضه فى ظروف واحوال معينة . جاء فى الحديث ان رجلا اصيب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه فقال النبى عليه الصلاة والسلام تصدقوا عليه فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال النبى صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ما وجدتم وليس لكم الا ذلك » .

وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

يستنتج من هذا ان مدة الدين ينبغى ان تحدد .

فَٱكْتُبُوهُ

هذا يحذرنا مما اعتاده الناس من عدم تسجيل الدين تسجيلا رسميا ان كان الدائن والمدين اصدقاء او ذوى قربى لان ذلك — فى رأيهم — يعد فقدانا للثقة المتبادلة . فسبحانه وتعالى ينصحنا بتسجيل الديون واشهاد شهيدين على ذلك كى تبقى علاقات البشر ومعاملاتهم واضحة صافية ينال فيها كل ذى حق حقه . يقول الحديث الشريف :

« ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل ان يبلغ ورجل اقرض رجلا مالا فلم يشهد » .

وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ

يعنى من رجال المسلمين وحيث ان استشهاد الشهود يتم بالاختيار والانتقاء فعلى المسلمين ان يتخذوا شهودهم من المسلمين فحسب . وليتخذ الذميون شهداءهم بالطبع من الذميين أمثالهم .

فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ

يعنى ان كل من هب ودب ليس كفءا لأن يكون شهيدا وانما أولئك الذين يتمتعون بالثقة بين الناس من ناحية اخلاقهم ودينهم وشخصياتهم وأمانتهم وعفتهم وما اليه .

أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ
إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ
ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ

يعنى رغم انه من الافضل كتابة تلك المعاملات التجارية اليومية التى تتم نقدا الا انه ليس ثمة حرج اذا لم تكتب تلك التعاملات اليومية التى تدور بين التجار المتجاورين .

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ

يعنى ينبغى الا يكره احد على الكتابة او الشهادة ويعنى ايضا وجوب الا يلحق احد الطرفين بالكاتب او الشهيد اذى لادلائه بحقائق ضده .

وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ

لا يعنى هذا أن الرهن لا يؤخذ كضمان الا فى السفر وحسب ، ولكن ذكر السفر على وجه الخصوص لان هذه الحالة تحدث أكثر ما تحدث فى السفر . كذلك ليس عدم القدرة على استحضار كاتب شرطا ضروريا لاخذ الرهان فان كان المحتاج المعوز لا يستطيع الاستدانة الا اذا اعطى لقاء الدين شيئا يضمنه فليفعل ذلك . والقرآن يتعمد الا يذكر هذه الحالة الاخيرة لانه يبغى تلقين المؤمنين الكرم والسخاء والسماحة . وبالطبع تأبى كرامة المرء ذى الشخصية النبيلة العالية الا يقرض المحتاج ما لم يأته برهن نظير قرضــــه .

ومعروف كذلك ان الرهن ان كان يدر انتاجا فعلى الدائن ان يحتفظ بما انتجه كاملا ويخصمه من كمية الدين والا كان ربا . والهدف الوحيد المقصود من الرهن هو ضمان سداد المدين لدينه وليس للدائن حق استغلال الرهن والاستفادة منه . فان كان الدائن يسكن مثلا فى دار اخذها رهنا من مدين او اجرها لآخر فان قيمة ايجارها تعد ربا ما لم يعطها للمدين اذ لا فرق بين اخذ فائدة مباشرة على الدين او اكتساب مال منه او استغــلال الرهن والافادة منه . غير ان الدائن قد يستفيد من لبن الماشية الرهن او يركبها او يحمل عليها شيئا لان هذا يعد عوضا عما يطعمها من علف .

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

كتم الشهادة يعنى المراوغة والتهرب من ادائها وكذا اخفاء الحقائق آن الادلاء بالشهادة .

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

فى هذا الجزء الختامى من السورة نرى ان عقائد الايمان الاساسية تتقرر كما تقررت فى صدرها . لذا من الخير ان نقارن بين هذه الآيات وبين تلك التى وردت فى اول السورة .

وتعد هذه الآية ((**لله ما فى السماوات وما فى الأرض**)) أول بند من بنود الايمـــان . فالتسليم بأن الله هـــو رب السماوات والأراضين وما فيهمـــا وما بينهما لا يدع مناصا من الخضوع والاذعان له تعالى .

وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ

فى هذه العبارة قرر الله اثنين من بنود الايمان أولهما ان كل امرىء مسئول ومحاسب على ما قدمت يداه بصفته الفردية وثانيهما ان الحاكم الأعلى الذى سيلقى الانسان حسابه أمامه عليم تمام العلم بالسرائر والظواهر وما تخفيه الأنفس والصدور وما تعلنه الجوارح والحواس وانه خبير بالطوايا مطلع على ما يدور فى الأذهان والنوايا .

فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

يعنى ان الله هو السلطان المطلق وليس اى حاكم من الحكام الدستوريين فحاشاه ان يحده قانون يعمل فى اطاره وتنزهت ذاته عن تقيدها بدستور تسير على بنوده وافقاره فهو الاله الصمد والرب الاوحد له السلطة المطلقة فى أن يعذب ويعاقب من يشاء أو يتوب ويغفر لمن يشاء .

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

هنا اعيد تقرير بنود الايمان الاساسية اجمالا واختصارا وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا والبعث والحساب امام الله فى الآخرة وعلى المسلم بعد التسليم بها وقبولها ان يخضع طوعا لكل حكم من الله ويصدع ويذعن لكل أمر من ربه . ثم عليه فى ذات الوقت ألا يزهو مختالا بصالح اعماله وانما يطلب من ربه ان يهبه مغفرة وصبرا .

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ

يعنى ان الله لن يؤاخذ احدا على تقصيره فيما لم يكن فى مقدوره فعله ولن يعاقبه على ارتكابه ما لم يكن فى مكنته الابتعاد عنه واجتنابه . ورغم هذا علينا ان نعى تماما ان المرء ليس قاضى نفسه فيقرر ما يستطيع عمله

وما لا يستطيع بل الله وحده من بيده الامر يقرر لكل انسان ما يقدر على فعله وما لا يقدر .

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾

هذه هى الفقرة الثانية من القانون فالمكافآت والعقوبات فى حقيقتها نتائج وعواقب اعمال كل امرىء وافعاله . فالمرء يجزى خيرا عما فعله بنفسه من خير لا على خير قدمه سواه .

ويجدر بنا ان ننوه فى هذا الى ان المرء اذا عمل عملا صالحا استمر فى اصدار نتائج طيبة ردحا من الزمن بعد موته فكل ما تولد عنه من خير يضاف الى كفة ميزانه عن آخره . وان اقترف شرا تسبب فى تفريخ شرور ومآثم بعد قضائه فكل ما افرخ من شرور يضاف عليه الى نهايته . لكن كلا الحاصلين اعنى الخير والشر هما نتاج اعمال المرء وما قدم فى حياته . باختصار لن يعاقب المرء او يثاب الا على ما كسبت يداه وقدمت عن عمد وقصد اذ ليس فى قانون الثواب والعقاب الالهى نقل او ترحيل للحساب من عميل الى آخر .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾

يعنى ربنا احفظنا وقنا المحن والمصائب والمضائق والزلات التى مر بها من ساروا فى طريقك قبلنا .

ورغم أن الله قد وضع قانونا من لدنه يقضى بابتلاء المؤمنين والا يتركوا « أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » حتى يعلم الذين جاهدوا منهم ويعلم الصابرين الا ان المؤمن عليه ان يدعو الله ان يجعل طريق الحق والايمان أمامه سهلا يسيرا وأن يقابل ابتلاءات الله واختباراته بقلب راض وجأش رابط .

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾

يعنى أجعل احمالنا من المحن والبلاوى والفتن والاختبارات احمالا

تتفق وقدرتنا ونستطيع حملها والقيام بها واجعل ما تبتلينا به مما نستطيع اجتيازه بسلام ونجاح كى لا نفشل وتذهب ريحنا ونضل صراطك المستقيم .

وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

لكى نفهم روح هذا الدعاء الحقيقة ينبغى ان نأخذ فى اعتبارنا ان هذه الآيات نزلت فى مناسبة معراج الرسول عليه صلوات الله وتسليماته قبل هجرته الشريفة الى المدينة بحوالى عام . وكان الصراع بين الاسلام والكفر قد بلغ سنامه آنذاك واشتد بلاء المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا وقست قلوب الكافرين عليهم ليس فى مكة وحدها بل ضاقت الجزيرة على المسلمين بما رحبت ولم يكن بها واد ولا قفر ولا جبل ولا سهل يستطيع المسلم ان يحيا فيه آمنا فتلقى المسلمون هذا الدعاء يضمدون به جراح انفسهم ويتزودون به امام المحن والبلايا .

وبديهى ان العبد لابد وان يؤمن ايمانا راسخا بحصول استجابة دعائه وطلبه اذا كان الرب نفسه هو من لقنه الدعاء وعلمه الطلب . من أجل هذا عمل هذا الدعاء فى نفوس المسلمين عمل السحر فأفعمهم بشجاعة ليس لها نظير ونزل عليهم سكينة واطمئنانا فى ساعة بلغت المحنة فيها منتهاها ووصلت الطامة عليهم الى ذراها بالاضافة الى أنه علمهم أن يحكموا عواطفهم ويتحكموا فى مشاعرهم وتوجيهها فى نطاق الحدود التى احتواها هذا الدعاء ولا يدعونها تتبدد فى مسارات خاطئة ضالة . وهذا هو سبب خلوه من اى نوع من المرارة ومقت الاعداء وليس فى الفاظه ومعانيه مسحة من الانتقام والتعلق بأمور الدنيا ومشاغلها وهذا ما كان المسلمون فى اشد الحاجة اليه فى وقت كانوا يعبرون فيه اعظم المصائب وأبلغ الرزايا ويتكبدون فيه أفدح الخسائر المادية ويعانون فيه ما لا يحصره العد من الشدائد والرزايا ويتخطفون فى كل بقعة ويحاصرون فى كل مكان ويؤذون بدنيا ويزلزلون اقتصاديا . ولعمرى فما التباين بين سمو الافكار الواردة فى هذا الدعاء وبين شدة ما كانوا فيه من المحن الا ضوء لامع يكشف عن المستوى العالى من التدريب الروحى والأخلاقى الذى كانوا يتلقونه حتى فى أحلك الساعات وأعنفها وهذا هو مستوى الأخلاق السامى الذى وضعه الله ليصل اليه كل مؤمن صادق الايمان راسخ العقيدة .

تفسير
سورة آل عمران

مقدمة

اسمها:

ورد فى هذه السورة ذكر آل عمران فجعل اسما لها كعلامة مميزة .

اجزاؤها وزمن نزولها :

تنقسم هذه السورة الى أربعة خطابات :

الخطاب الأول : من أول السورة والى قوله تعالى **« قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين »** .

الخطاب الثانى : يبدأ بالآية **« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين »** وينتهى بقوله تعالى **« فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين »** وقد نزل هذا الجزء سنة تسع من الهجرة وفى مناسبة قدوم وفد نجران الى النبى صلى الله عليه وسلم .

الخطاب الثالث : ويبدأ من قوله عز وجل **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء ...** الى الآية ... **وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط »** وهو متصل بالخطاب الأول من حيث الزمن .

الخطاب الرابع : من أول الآية **« واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »** والى نهاية السورة وقد نزل بعد معركة أحد .

مباحث السورة :

ان ما يربط هذه الخطابات المختلفة ويجعل منها مقالا متصلا مسلسلا هو تساوى الغرض والمضمون الرئيسى . وهذه السورة موجهة على وجه الخصوص الى جماعتين الاولى اهل الكتاب (اليهود والنصارى) والثانية من آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فأما الفريق الاول فقد وجه لهم فى هذه السورة مزيد من الدعوة التى بدأت حلقاتها فى سورة البقرة ، وأبرزت وجوه ضلالهم وفسادهم فى العقيدة وفى الاخلاق ، **واخبروا ان هذا الرسول وهذا القرآن يدعوان الى ذلك الدين**

الذى دعت اليه الأنبياء وهو دين الحق الذى يطابق فطرة الله . وأن كافة الطرق التى اخترتموها بعد انحرافكم عن طريق هذا الدين المستقيم هى طرق غير صحيحة حتى من وجهة نظر الكتب التى تؤمنون بها كتبا سماوية .

واما الفريق الثانى فقد جعلوا رواد الحق المسئولين عن أصلاح العالم بوصفهم خير أمة أخرجت للناس . وعلى هذا صدر اليهم مزيد من التعاليم والارشادات والأوامر التى بدأت فى سورة البقرة ، فبسطت أمامهم صورة الزوال الاخلاقى والاندثار الدينى للامم السابقة كى يضعوها عبرة أمام أعينهم ويحذروا السير فى مسالكها ودروبها ، وأخبروا بأسلوب العمل الذى ينبغى السير عليه باعتبارهم جماعة مصلحة ، وكيفية معاملة أهل الكتاب والمنافقين الذين يقيمون كل نوع من العراقيل فى الطريق الى الله . كذلك صدرت اليهم التوجيهات الخاصة باصلاح نقاط الضعف التى ظهرت بينهم فى حرب أحد .

هكذا نجد أن هذه السورة ليست متصلة الأجزاء فى حد ذاتها فحسب وانما تربطها بسورة البقرة علاقة قريبة حتى أنها تبدو وكأنها تتمة لها يستشعر المرء بداهة أن مكانها لابد وأن يتصل بسورة البقرة .

مناسبة نزولها :

الخلفيـــة التاريخيـــة للســـورة :

١ ــ أن الابتلاءات والمصاب والمشكلات التى نبه اليها المؤمنون بهذا الدين الحق مسبقا فى سورة البقـــرة حـــدثت على نحو شديد . ورغم أن المؤمنين غلبوا وانتصروا فى حرب بدر ، الا أن هذه المعركة أهاجت على المؤمنين أعداءهم فقد استفز هذا الصدام المسلح ــ الذى وقع لأول مرة بين المؤمنين وغيرهم ــ كافة طاقات العرب التى كانت تعادى هذه الحركة الجديدة ، وغشت المسلمين حالة من الخوف والفزع الدائم فكانوا يشعرون بأن هذه المدينة الصغيرة (يثرب) التى كانت تقاتل العالم كله من حولها سوف تمحى من صفحة الوجود وتصبح أثرا بعد عين وكان لهذه الظروف أسوأ الاثر على وضع المدينة الاقتصادى فلقد كان وفود عدد ضخم من المهاجرين على تلك البلدة الصغيرة ــ التى كان يسكن أهلها فى بضع مئين من الدور والمنازل ــ سببا فى اضطراب معاشها واقتصادها ثم جاءت هذه الحرب لتزيد الطين بلة .

٢ ــ لم تف القبائل اليهودية التى كانت تعيش فى أطراف المدينة بحرف واحد من بنود المعاهدات التى عقدهامعهم النبى عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وفى وقعة بدر وقف أهل الكتاب الى جانب المشركين الوثنيين بدلا من مساندة المسلمين الموحدين المؤمنين بالكتاب والنبوة والاخرة ، فما أن انتهت المعركة حتى راحوا يستثيرون قريشا وغيرها من القبائل العربية ضد المسلمين علانية ويحرضونها على الثار منهم ونخص منهم بالذكر كعب بن أشرف راس بنى نضير الذى وصلت مساعيه فى هذا الى حد العداوة

العمياء بل اللؤم والخسة والدناءة ، والقى اليهود بعلاقات الصداقة والجوار التى كانت تربطهم بأهل المدينـــة منذ قـــرون . واخيرا حين وصـــل اذاهم وخيانتهم ونقضهم العهد حدا لايطاق هاجم النبى صلى الله عليه وسلم ــ بعد بدر بعدة أشهر ــ بنى قينقاع الذين كانوا أشد القبائل اليهودية اذى وشرا واخرجهم خارج اطراف المدينة ، الا أن هذا اثار القبائل اليهودية الاخرى وأشعل نار عنادهم فوضعوا يدهم فى يد المسلمين المنافقين من أهل المدينة وقبائل الحجاز المشركة وبدأوا يخلقون المصاعب فى وجه الاسلام والمسلمين من كل جانب حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه كان يعيش متوقعا هجومهم عليه هجمة قاتلة ولكن لايعرف متى ذلك . وكان الصحابة الكرام كلهم آنذاك ينامون ممتشقين أسلحتهم وكانوا يتناوبون الحراسة ليلا خشية أن يغير عليهم الأعداء . وكان النبى اذا غاب عن عيونهم برهة وجيزة خرجوا يبحثون عنه فى فزع وهلع بالغ .

٣ ــ اتقدت نار الانتقام فى قلوب قريش بعد هزيمتهم فى بدر وأجج اليهود هذه النيران وزكوها فكانت النتيجة أن خرج من مكة ــ بعد عام واحد ــ ثلاثة الاف فى جيش عرموم هاجم المدينة ووقعت حرب أحد وكان قد خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لهذه الحـــرب الف رجـــل وفى الطريق برز ثلاثمائة من المنافقين دفعة واحدة وانفصلوا عن جيش المسلمين وعادوا أدراجهم الى المدينة وقد حوت المئات السبع التى بقيت مع الرسول شرذمة من المنافقين بذلوا كل جهد ممكن لاثارة الفتنة بين المسلمين ابان الحرب ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى عرف المسلمون فيها أن فى وسطهم مثل هذا الجمع الغفير من الخونة الأفاعى الذين اتحدوا مع أعدائهم وأصروا على ايذاء أخوتهم والاضرار بأبناء عشيرتهم .

٤ ــ ان الهزيمة التى لقيها المسلمون فى أحد رغم أن تدابير المنافقين وحيلهم كان لها ضلع كبير فيها الا أن نقاط ضعف المسلمين واخطاءهم فيها لم تكن قليلة وانه لأمر طبيعى أن تظهر بعض نقاط الضعف فى جماعة تكونت منذ وقت وشيك على نظام أخلاقى وطريقة تفكير خاصة وتواجه الحـــرب الثانية فى ســـبيل حماية عقيدتها ومنهجها ولما تكتمل تربية أفرادها بعـــد لهذا بات ضروريا أن يصدر تعليق كامل على الحرب بعد انتهائها أشير فيه الى نقاط الضعف التى أصابت صفوف المسلمين من وجهة النظر الاسلامية واعطيت فيه الارشادات والتعاليم اللازمة لاصلاحها وتقويمها .

وجدير بنا فى هذا الصدد أن نسرح طرفنا فى تعليق القرآن على هذه الحرب لنرى كيف يختلف عن تلك التعليقات التى يصرح بها القادة الدنيويون عقب خوضهم المعارك والحروب .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾

انظر شرح هذا فى تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هى الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم (١) وأن المقصود بالانجيل أناجيل العهد الجديد الاربعة الشهيرة (٢) ومن هنا ظهرت هذه المشكلة :

أى هذه الكتب ياترى هو كلام الله حقا ؟ وهل يصدق القرآن فعلا كل ماورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هى الاسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هى منثورة فى بطنها وأن الانجيل ليس هو الأناجيل الاربعة بل هو موجود بين سطورها .

فالمراد بالتوراة أصلا تلك الاحكام التى نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته والى وفاته أى فى مدة تقارب اثنين وأربعين عاما كانت منها تلك الوصايا العشر التى دونها الله على الالواح واعطاها له . أما بقية الاحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتى عشرة نسخة منها وأعطاها لأسباط

---

(١) هى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية — المترجم .

(٢) هى انجيل متى وانجيل مرقص وانجيل لوقا وانجيل يوحنا — المترجم .

بنى اسرائيل الاثنى عشر وأعطى نسخة من بين هذه النسخ الى بنى لاوى أحد أسباط بنى أسرائيل كى يحفظوها . وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة وقد ظل سليما محفوظا ككتاب مستقل حتى اول تدمير لبيت المقدس وكانت نسخة بنى لاوى والالواح الحجرية توضع فى تابوت العهد ويعرفها بنو اسرائيل باسم (التوراة) . غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل الى حد أنه حين حدث ترميم الهيكل السليمانى فى عهد (يوسياه) ملك يهوذا . عثر كبير الكهان على التوراة موضوعة فى مكان ما فى (خلقيا) واعطاها الى كاتب الملك كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدمها للملك كاكتشاف مدهش عجيب (أنظر الملوك الثانى أصحاح ٢٢ من ١٣:٨)

وحين فتح (بختنصر) أورشليم واحرق الهيكل والمدينة باكملها وسواها بالتراب فقد بنو اسرائيل نسخ التوراة الأصلية التى كانت لديهم أعداد جد قليلة منها وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بنى اسرائيل من الأسر البابلى فى عهد الكاهن عزرا (عزير) الى اورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دون عزرا كل تاريخ بنى اسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة عشر الاولى من العهد القديم .

والاسفار الاربعة من هذا التاريخ التى تحوى سيرة موسى عليه السلام وهى الخروج واللاويين والعدد والتثنية ادرجت فيها آيات التوراة التى كانت فى يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها .

فالتوراة الآن اذن هى تلك الأجزاء المتفرقة التى تتناثر فيها سيرة موسى عليه السلام بين صفحات العهد القديم ونستطيع أن نتبينها من بين هذا السرد التاريخى بعلامة واحدة هى أننا اذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال الله لموسى كذا . . . أو قال موسى الرب الهكم يقول كذا . . . فلنعلم أن جزءا من التوراة قد بدأ هنا . ثم اذا استؤنف سرد السيرة فلنعلم أن هذا الجزء قد انتهى . واذا ما أسهب مصنف التوراة فى شرح وتفسير شيء ما فى موضع وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما اذا كان هذا الجزء من التوراة الاصلية أم من الشرح والتفسير . ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا الى حد ما التفاسير والشروح التى أضيفت والحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح .

والقرآن يسمى هذه الاجزاء المتناثرة (التوراة) ويصدقها والحقيقة اننا لو جمعنا هذه الاجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف بين التعاليم الاصلية الكلية فى الكتابين اللهم الا الاختلاف فى الاحكام الجزئية فى بعض المواضع والمتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس احساسا واضحا بان كلا الرافدين صادر من منبع واحد .

كذلك فالانجيل فى أصله هو تلك الخطب والاقوال التى قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبيا من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات فى حياته ام لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دونوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة . على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بردح من الزمن أدرجت فيها — الى جانب البيان التاريخى — تلك الأقوال والخطب التى وصلت الى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة . وكتب متى ومرقس ولوقا ويوحنا التى تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الانجيل الاصلى وانما الانجيل الحق هو أقوال المسيح التى أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها والتفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا .. أو وعلم المسيح الناس كذا ... فهذه هى أجزاء الانجيل الاصلى والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالانجيل ويصدقها ولو جمع امرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وازالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب .

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

يعنى هو العليم بحقائق الكون ومن ثم فالكتاب الذى أنزلة لابد وأنه حق من أوله الى آخرة بل ان الحق الخالص لايتيسر للانسان الا فى هذا الكتاب الذى نزل من لدن هذا العليم الخبير .

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

هذه الآية تحوى اشارة الى حقيقتين هامتين الأولى أن فطرتكم لا يعرفها أحد مثلما يعرفها من خلقها وعلى هذا فليس لكم من سبيل سوى الاعتماد على رشده وهدايته . والثانية أن من هيأ اشباع حاجاتكم وضروراتكم جميعها من أصغرها الى أجلها وأكبرها فى كل موقع وموضع عبر حياتكم منذ استقراركم فى أرحام أمهاتكم والى نهاية أجلكم كيف لا يكون قد أعد لكم الهداية فى الحياة الدنيا وهيأ لكم رشده فى حين ان أكثر شىء تحتاجون اليه فى حياتكم هو هذه الهداية ؟

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ

محكم تقال للشىء المتين الراسخ الناضج ، والمراد بالآيات المحكمات الآيات التى صيغت فى لغة صافية واضحة ، والتى لا مجال للشك أو الاشتباه فى تحديد مفهومها ، والتى تدل الفاظها وكلماتها على معانيها ومقاصدها دلالة قاطعة لا لبس فيها ولاغموض ، والتى يستحيل على المرء أن يجد فرصة فيها ليجنح بها الى التأويل . هذه الآيات هن أم الكتاب يعنى أنها تحقق الغرض الذى نزل من أجله القرآن ففيها دعى العالم الى الاسلام وفيها ذكرت العبر والنصائح وفيها أبطلت الضلالات واوضح الطريق القويم وفيها ذكرت مبادىء الدين وأصوله الأساسية وفيها تقررت العقائد والعبادات والاخلاق والفرائض والأوامر والنواهى فاذا كان المرء طالبا للحق والحقيقة ويريد الرجوع الى القرآن ليعرف أى طريق يمشى فيه وأى سبيل يصد عنه ويبتعد فان هذه الايات المحكمات سوف تكون النبع الاصلى الذى يروى ظمأه ويرتكز عليها توجيهه فطرة وسيظل مشغولا بالافادة منها بدرجة أكثر .

وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ

يعنى تلك الآيات التى يحتمل مفهومها الظن أو الاشتباه .

وطبيعى انه لا يمكن أن يقدم للانسان أسلوب للعيش وطريقة للحياة مالم تعط له المعلومات الضرورية عن حقيقة الكون وبدايته ونهايته وعن وضع الانسان وما الى ذلك من الامور الاساسية الاخرى .

كذلك من الطبيعى أيضا أن تلك الاشياء التى وراء حواس الانسان ولاتدخل فى نطاق علمه ولايستطيع رؤيتها أو لمسها أو تذوقها لاتوجد فى لغة البشر تلك الألفاظ التى وضعت لها خاصة ولاتلك الا ساليب البيانية المعروفة التى تصور هذه الأشياء تصويرا صحيحا فى ذهن كل سامع فلا محالة اذن من أن توجد فى لغة البشر الالفاظ والأساليب البيانية التى تستخدم الاشياء المحسوسة — التى هى أقرب شبها للحقائق الأصلية — لتوضيح هذا النوع من المضامين والمعانى ولهذا استعملت مثل هاتيك الألفاظ والاساليب فى القرآن لتبيان مسائل ما وراء الطبيعة والمقصود بالآيات المتشابهات تلك التى استخدم فيها هذا البيان .

غير أن أكبر فائدة للانسان من هذه اللغة البيانية هى دفعه قريبا من الحقيقة أو ابراز فكرة خافتة عنها وبقدر ما يبذل من محاولات وجهود لتعيين معنى هذه الآيات ستظهر تأويل وترجيحات كثيرة حتى ان الانسان ليبعد عن الحقيقة بدلا من الاقتراب منها فأما الذين يطلبون الحق ولايبغون العبث فيقنعون من المتشابهات بتلك الفكرة الخافتة التى تعطيها لهم عن الحقيقة والتى تكفى لتسيير العمل ويوقفون كل اهتمامهم بالمحكمات فقط .

واما العابثون أو الباحثون عن الفتنة المؤججون لنيرانها فلا يشغلهم سوى البحث والتدقيق فى المتشابهات دون غيرها .

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

لعمرى كيف يؤمن اولئك الناس بالمتشابهات وهم لايعرفون معناها الصحيح ؟ هذا أمر لا يعترى الشك ذهن أحد فيه . والحقيقة أن العاقل يستمد الايمان بأن القرآن كلام الله من دراسة المحكمات لا من تأويل المتشابهات واذا ما أمن واطمأن — بعد تفكير وامعان فى المحكمات — الى ان هذا الكتاب هو كتاب الله فعلا فلن تبعث المتشابهات فى قلبه ادنى هواجس الشك والتردد فان وقر مفهومها السليم فى ذهنه أخذه وان اشكل عليه آمن بكلام الله ايمانا مجملا وحول اهتمامه الى العمل بدل اتجاهه صوب سبيل البحث والتفتيش والسفسطة والجدل .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

انظر تفسير الآية ١٦١ من سورة البقرة .

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ

رغم أن الفرق الحقيقى بين عدد الفئتين كان ثلاثة امثال الا أن الناظر بعينى رأسه كان يحس أن جيش الكفار ضعف جيش المسلمين .

وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

كانت حرب بدر آنذاك قد وقعت منذ زمن قريب . ولهذا أشير الى وقائعها ونتائجها ثم جعلت عبرة للناس . ولقد كان للناس فى هذه المعركة عبر ودروس ثلاثة :

الاول أن الوضع الذى تقابل فيه المسلمون والكفار ظهر فيه الفرق بين أخلاق الفريقين . ففريق تدور فيه كئوس الشراب على عسكرهم الكثيرين وتصحبهم الغانيات يرقصن ويغنين ويلهين ويترفن وفريق فى جنوده التقوى والورع وخشية الله وقمة السمو الأخلاقى يصلون ويصومون ويذكرون الله فى كل أمر ويدعون ربهم واليه يضرعون . فكان اذا نظر امرؤ الى كليهما أيقن بسهولة أى الفريقين يقاتل فى سبيل الله .

والثانى أن الطريقة التى انتصر بها المسلمون فى قلة عددهم وعتادهم على الكفار فى كثرة عددهم وتدجج عسكرهم بأعظم السلاح اتضح منها أن الله يؤيدهم ويقف الى جانبهم .

والثالث ان هذه الواقعة كانت صدمة قاسية شديدة لاولئك الذين نسوا قدرة الله الغالبة الناصرة وانتشوا بعتادهم ومتاعهم وسكروا بحشود مناصريهم ومعاضديهم . فكيف توقع شرذمة من المعدمين الفقراء الغرباء المهاجرين وحفنة من فلاحى يثرب القشفين الهزيمة بقريش سيدة قبائل العرب أجمعين ؟

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ
ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ
وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ
عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن
ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ

(أنظر ماورد فى شرح هذا المعنى فى الاية ٢٥ من سورة البقرة)

وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يعنى أن الله لايخطىء عطاؤه ولا يقضى قضاءسطحيا عابرا وانما يعلم أعمال عباده وأفعالهم تمام العلم ويطلع على نواياهم وسرائرهم خير اطلاع فيعلم من بين عباده من هو أحق بأنعمه واحسانه .

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ

يعنى أولئك الذين يبدون استقامة تامة على طريق الحق ولا يضعفون أمام المصائب والخسائر ولايحطم الفشل قلوبهم ولايزلهم حرص ولاطمع بل يستمسكون بعروة الحق الوثقى حيث يغيب عن الأنظار فى الظاهر أدنى احتمال للنجاح والفوز .

(أنظر تفسير الاية ١٥٣ من سورة البقرة)

وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ

ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

يعنى أن الله الذى يعلم حقائق الكون كلها علما مباشرا ويرى جميع الموجودات دونما حجاب ولاستر ولا يخفى عليه شىء فى السماوات أو فى الارض يشهد — وأى شهادة أصدق من شهادته جل شأنه — أن ليس فى الوجود كله وجود آخر يتصف بالألوهية وتكون له سلطة المالك وحقوق الربوبية غير ذاته العلية .

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ

أكثر الشهادات ثقة واعتبارا بعد الله شهادة الملائكة لانهم هم العمال الذين يعملون على ضبط مملكة الكون . فهم يشهدون — بناء على علمهم الذاتى المباشر — أن لاحكم غير حكم الله يمضى فى هذه المملكة ، وليس ثمة

وجود غير الله يرجعون اليه فى ادارة السماوات والأرض . والشهادة التى تلى هـذه هى شهادة أولئك الذين يعرفون الحقائق قليـلا أو كثيرا وهى شهادة يتفقون فيها منذ بدء الخلق والى يوم الناس هذا على ان لهذا الكون كله الها وربا ومدبرا واحدا لاغير .

قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ

يعنى أن هنـاك نظـام حيـاة وطريقـة عيش واحـدة صحيحة عند الله لعباده الا وهى أن يسلم الانسان بالله ربا له ومالكا ومعبـودا ويدع نفسه مستسلما له فى عبودية وذل والا يخترع بذهنه طريقـة لاداء واجبات العبدية وفروضها بل يتبع ما أرسله الله له على يد أنبيـائه فى كل صغيرة وكبيرة اتباعا جادا حاسما . وطريقة الفكر والعمـل هذه اسمها الاسلام وما أصدق وأصح من الا يجيز خالق الكون وحاكمه ومالكه لرعيته منهاج حياة وطريق عمل غير هذا الاسلام . وقد يرى الانسان لحمـاقته وجهله أن له الحق فى اتباع كل مسلك والسير وراء كل نظرية ابتداء من الدهرية والالحاد والى الشرك وعبادة الأوثان الا أن حاكم الكون يرى هذا عصيانا وتمردا كبيرا .

وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ

المعنى أن كافة الرسل الذين بعثوا من لدن الله فى أى مكان وأى زمان كان دينهم الاسلام وان كل كتاب أنزله الله فى أية أمة وبأية لغة كان يدعو الى الاسلام ويعلمه . أما المذاهب الكثيرة التى راجت فى الناس بعد تحريف هذا الدين الاصلى ومسخه فليس لظهورها سبب غير أن الناس خرجوا عن حدهم المشروع وأرادوا لأنفسهم حقوقا وفوائد وامتيازات أكثر فأحدثوا فى الدين الأصلى ما أحدثوا من التبديل والتحريف بما ينسجم ورغباتهم .

وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ

بعبارة أخرى يعنى قل لقد آمنت ومن اتبعنى بهـذا الاسلام الخالص

النقى الذى هو دين الله الاصلى فهل تتركون مازدتموه عليه وزاده أسلافكم وتتجهون الى هذا الدين الاصلى الحقيقى ؟

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

هذا تعبير تلميحى . والمقصود أخبرهم بأن العذاب الاليم هو نهاية أعمالكم التى تقترفونها اليوم برضا منكم وسرور وتحسبون أنكم تحسنون صنعا .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

يعنى أنقواهم ومساعيهم التى بذلوها فى هذا السبيل نتيجتها فى الدنيا خراب ودمار وفى الآخرة عذاب وبوار .

وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

يعنى ليست هناك قوة تجعل هذا السعى السىء والعمل الحابط ناجحا مثمرة أو تنقذه من سوء المآل تميد شعرة . وتلك القوى التى يثقون فيها ويعتمدون عليها لن يكون لهم من بينها ناصر ولامعين .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يعنى يقال لهم اتخذوا كتاب الله أول وآخر مرجع واصدعوا بما يأمركم به واطيعوا أحكامه وما يراه حقا فاتخذوه حقا ، وما يراه باطلا فاعتبروه

باطلا وواضح أن المراد بكتاب الله هنا هو التوراة أو الانجيل وأن المقصود بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب علماء اليهود والنصارى .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ

يعنى أنهم اعتبروا أنفسهم أحباء الله وأصفياءه فكانوا يعتقدون أننا مهما فعلنا فالجنة نصيبنا فنحن أهل الايمان أولاد فلان وقوم فلان ومريدو الشيخ فلان واتباع الولى فلان فلن تمسنا النار ولو فرض وادخلنا النار فلايام معدودات حتى نطهر من كدورات الذنوب وأوساخ الآثام ثم نرسل الى الجنة مباشرة . هذا النوع من الافكار والمعتقدات جعلهم ينزعون الخشية من قلوبهم واذهانهم ويتجاسرون على ارتكاب جرائم أشد وافظع وينحرفون عن الحق أكثر وأكثر .

وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾
تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

حين ينظر الانسان الى فعال الكافرين والعاصين وكيف يحيون فى ترف ورغد ثم يحول وجهه صوب المؤمنين فيرى طاعتهم واستقامتهم وكيف يعيشون فى فقر وفاقة وتكتنفهم تلك الالام والرزايا التى كان يصادفها الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام فى العام الثالث للهجرة وما

نحوه عندئذ يدور فى قلبه تساؤل مر يبعث الحسرة والالم . هذا التساؤل انزل الله جوابه هنافى أسلوب كله رقة ولطافة هيهات أن يتصور المرء رقة وعذوبة تفضلها .

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً

يعنى لو سقط مؤمن وسط جماعة معادية للاسلام وكان يخشى منها ظلما وعنتا فله أن يكتم ايمانه ويظل معهم كأنه واحد منهم فان بان لهم اسلامه ففى وسعه أن يظهر لهم الود والمصادقة بل ينطق بكلمة الكفر حفاظا علي روحه اذا لم تكن به القدرة على التحمل وسط الخوف والفزع الشديد .

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

يعنى لايستولى عليكم الخوف من البشر ،حيث يهجر خوف الله قلوبكم فالناس قد يفلحون فى افساد حياتكم لكن الله قادر على أن يسومكم عذاب الخلد . لهذا فان أكرهتم على سلوك سبيل التقية مع الكفار للابقاء على أرواحكم وأموالكم فينبغى أن يكون ذلك الى الحد الذى لايضر جماعتكم الاسلامية أو يلحق الأذى بروح ومال أحد من المسلمين .. ولكن أحذروا أن تقدموا للكافرين بايديكم ما به يعلو الكفر على الاسلام و مافيه احتمال غلبة الكافرين على المسلمين واعلموا تمام العلم أن لو الحقتم بدين الله أو جماعة المؤمنين أو أحد أفرادها ضرا وأذى أو قدمتم للكافرين الباغين على الله خدمة حقيقية لتصونوا أرواحكم وتحموا أنفسكم فانكم لن تصونوها من حساب الله أو تحموها من قصاصه أبدا فالمصير حتما اليه .

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يعنى أن من رأفته الواسعة ورحمته الرحبة تحذيركم من تلك الاعمال التى توجب تدمير نهايتكم وفساد مآلكم ومصيركم .

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

هنا ينتهى الخطاب الاول ومن تدبرنا لاسلوبه ـ خاصة الاشارة التى وردت فيه عن وقعه بدر ـ نرجح أنه نزل بعد وقعه بدر وقبل حرب أحد يعنى فى العام الثالث الهجرى ولقد فهم الناس خطأ من رواية محمد بن اسحاق أن الايات الثمانين الاولى من هذه السورة نزلت فى مناسبة قدوم وفد نجران فى العام التاسع الهجرى ، غير أن مضمون هذا الخطاب التمهيدى يوضح لنا فى جلاء أن نزوله كان قبل ذلك بأمد بعيد كما أن مقاتل بن سليمان يصرح فى روايته بأن الآيات التى نزلت فى مناسبة قدوم وفد نجران هن فقط تلك التى تحوى ذكر سيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما السلام وهى ثلاثون آية أو تزيد .

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

عمران هو والد سيدنا موسى وهارون عليهما السلام ويسمى فى التوراة (عمرام) .

وبهذه الاية يبدأ الخطاب الثانى وقد نزل فى العام التاسع الهجرى حين أتى وفد جمهورية نجران المسيحية الى الرسول صلى الله عليه وسلم . واقليم نجران هذا يتوسط بين الحجاز واليمن وكانت نجران تضم آنذاك ثلاثا وسبعين مدينة ويقال أنه اقليم كان فى أستطاعته أن يخرج مائةوعشرين ألف محارب وكان كل أهله يدينون بالمسيحية ويحكمهم ثلاثة قادة الأول يسمى « العاقب » وكان أمير القوم والثانى « السيد » وكان مسئولا عن الشئون الاجتماعية والسياسية والثالث « الأسقف » وكان يضطلع بالامامة الدينية .

وحين فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة وايتن العرب جميعا أن مستقبل البلاد قد آل اليه طفقت وفود من سائر أنحاء بلاد العرب تاتى اليه وأرسل قادة نجران الثلاثة الى المدينة وفدا منهم ضمن هذه الوفود يضم ستين رجلا . وبالطبع لم يكونوا على استعداد حربى لخوض نزال أو عراك

بل كانت المسألة هى اما أن يقبلوا الاسلام أو يظلوا ذميين ان شاءوا ولهذا أنزل الله هذا الخطاب على نبيه ليدعو فيه وفد نجران الى الاسلام .

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

أن سبب ضلال المسيحيين وفساد عقيدتهم هو ايمانهم بعيسى عليه السلام ابنا لله وليس عبدا له ورسولا من لدنه ، ثم جعلهم اياه شريكا مع الله فى ألوهيته ، فاذا ما زال هذا الخطأ الأساسى عن أذهانهم أصبح فى غاية اليسر أن يتجهوا صوب الاسلام الحقيقى الخالص . ولهذا السبب أنزل الله فى هذا الخطاب تمهيدات يقول فيها أن آدم ونوحا ومن ظهر من الانبياء من آل ابراهيم وآل عمران كانوا جميعا بشرا آدميين يتناسلون وتتوالد ذراريهم ولم يكن منهم اله قط ولم يكن لهم امتياز أو خصوصية سوى أن الله أصطفاهم ليبلغوا دينه الى بقية عباده وليصلحوا العالم مما هو سادر فيه .

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ

لو أخذنا امرأة عمران هنا على انها زوجة عمران لكان ضروريا أن يكون عمران هنا ليس هو عمران الذى ذكر آنفا . وانما المقصود به أبومريم الذى يجوز أن أسمه كان «عمران» ايضا .

واذا أعتبرنا أن المراد بامرأة عمران امرأة من آل عمران فان معنى هذا أن أم مريم كانت من هذه القبيلة ـ قبيلة عمران ـ الا أننا لانملك مصدر معلومات نرجح عن طريقه أحد المعنيين على الآخر ترجيحا قاطعا اذ التاريخ لايدلنا على هوية أبى مريم أو قبيلة أمها وبالطبع لو سلمنا بصحة الرواية التى تقول أن أم سيدنا يحيى وأم مريم كانتا أختين أصبح فهمنا للمقصود بامرأة عمران على أنهـا امرأة من قبيلة عمران فهما صحيحا لأننا نجد فى انجيل لوقا تصريحا بأن أم سيدنا يحيى كانت من أولاد سيدنا هارون . (انظر لوقا ١ : ٥) .

رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

يعنى السميع لدعاء عبادك العليم بنواياهم .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ

يعنى أن الولد محرر من مواطن الضعف الفطرية والقيود الاجتماعية التى هى من نصيب البنت فلو كان ولدا لكان أحسن وأصلح للغرض الذى من أجله نذرت لك مولودى .

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

هنا يبدأ ذكر ذلك الحين الذى بلغت فيه مريم سن الرشد ودخلت الهيكل وبدأت تتبتل وتذكر الله ليلا ونهارا وغالبا ما كان زكريا الذى رباها خالها ومن مجاورى الهيكل وهو ليس سيدنا زكريا النبى الذى ورد ذكر قتله فى العهد القديم .

أما المحراب فيذهب ذهن الناس عامة عند سماع هذا النمط الى المحراب الذى جعل فى مساجدنا لنقف أمامه غير أن المراد بالمحراب هنا شىء آخر تماما . فهو الحجرة التى تبنى فى الصوامع والكنائس وتتصل بمكان العبادة الأصلى وتكون على ارتفاع كاف من سطح الارض ويعتكف فيها مجاورو المعبد والخدام والمعتكفون وكانت مريم تعتكف فى واحدة من هذه الحجرات .

وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

كان سيدنا زكريا الى وقتها بلا اولاد وحين راى هذه الفتاة الصالحة تمنى قلبه فطرة أن يعطيه الله اولادا صالحين مثلها وحين راى كيف يرزق الله بقدرته هذه الفتاة المعتكفة غمره الامل فى أن قد يرزقه الله وهو فى شيخوخته هذه

فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ

اسمه فى الانجيل يوحنا المعمدان . (انظر متى اصحاح ٣ ، ١١ ، ١٤ ومرقص ١ ، ٦ ولوقا ١ ، ٣ للتعرف على أحواله) .

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

المراد بكلمة من الله سيدنا عيسى عليه السلام ولأن ولادته كانت معجزة غير عادية تمت بكلمة من الله وأمر خارق للعادة لذا دعاه القرآن « كلمة من الله » .

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ

يعنى سيهبك الله ولدا رغم كبر سنك وعقر زوجك .

ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً

يعنى قل لى علامة تطلعنى عليها مسبقا اذا ما حدثت الواقعة العجيبة الاعجازية وهى انجاب شيخ مسن وعاقر عجوز .

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

الغرض الاصلى من هذه الخطبة توضيح غلط اعتقاد المسيحيين أن المسيح عليه السلام هو ابن الله وبالتالى فهو اله وأورد ذكر سيدنا يحيى فى صدر الخطبة وكأن الله يقول ان كانت ولادة عيسى عليه السلام تمت بطريقة اعجازية فلقد وقعت فى نفس العائلة ولادة يحيى عليه السلام قبل ستة أشهر من ولادة عيسى وبنفس الطريقة الاعجازية . فالله سبحانه وتعـالى يريد بهذا أن يفهم النصارى أنه اذا كانت ولادة يحيى الاعجازية لم تجعله الهـا فكيف يكون ذلك لعيسى على أساس مجرد ولادته الغير عادية ..

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ
وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ
وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ

يعنى كانوا يقترعون . ولقد لزم الأمر أن تجرى هذه القرعة لان والدة مريم كانت نذرتها للعمل الالهى فى الهيكل ولما كانت لاتزال طفلة صـــارت المشكلة أى المجاورين يكفلها

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾
إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ
ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ

يعنى سيكون لك ولد مع أن أحدا من البشر لم يمسك . ولقد قيل نفس الجواب ((كذلك)) ردا على قول زكريا فيما سبق ومعناه فى كلا الموضعين واحد والفقرة التى بعد ذلك بل البيان السابق واللاحق على حد سواء يؤكد أن مريم قد بشرت بولد دون أى اتصال جنسى وأن سيدنا عيسى قد ولدعلى هذا النحو فعلا . والا فلو كانت مريم وضعت مولودها بالطريقة الفطرية المعروفة التى تلد بها نساء الدنيا جميعا وكانت ولادة عيسى تمت على هذا النحو أيضا لأضحى كل ما ورد عبر عشرين آية من هذه السور أو ما يقاربها كلاما مهملا كل الاهمال ولأضحى كل ما ورد عن ولادة عيسى فى القرآن فى غير هذه السورة من مواضع لغوا لامعنى له .

لقد اعتبر النصارى سيدنا عيسى الها وابنا لله على أساس ولادته غير الفطرية بلا أب ، وطعن اليهود مريم فى شرفها لانهم راوا فتاة بكرا قد ولدت فلو كانت هذه الواقعة لم تحدث أصلا لكان يكفى لتفنيد أفكار الفريقين ــ أى النصارى واليهود ــ أن يقال لهم أنكم أيها الناس تخطئون كل الخطا فقد كانت هذه الفتاة متزوجة . وكان فلان زوجها وأن عيسى جاء من نطفة هذا الرجل ولما كان هناك ما يدعو لتلقيبه بعيسى بن مريم بدلا من مناداته بعيسى ابن فلان فى وضوح وصراحة . ولما كانت هناك ضرورة لايراد التمهيدات المطولة والاحاديث المعقدة بدلا من القول الحاسم المختصر مما يزيد الامر تعقيدا بدلا من ايضاحه وتبيانه . فمن يأخذون القرآن على أنه كلام الله ويسعون لاثبات أن ولادة المسيح كانت ولادة طبيعية من أب وام أنما يثبتون فى الاصل أن الله تعالى ــ جل شانه ــ ليست له القدرة التى لحضراتهم على التعبير عما يريد قوله وتبيين معناه .

ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ
ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبۡرِئُ
ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ
وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾

يعنى هذه الآيات كافية لاقناعكم بأننى رسول خالق الكون وحاكمه ذى السلطة العليا بشرط ان تكونوا على استعداد لقبول الحق ولاتكونوا ظالمين باغين متمردين .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ

يعنى أن هناك دليلا آخر يثبت نبوتى وبعثتى رسولا من عند الله فاذا لم أكن مرسلا من عنده تعالى بل كاذبا دعيا لابتدعت دينا آخر مستقلا برأسه ولنحيتكم بقوة مهارتى ومواهبى عن سابق دينكم ودعوتكم الى دينى الجديد المبتدع . لكننى أصدق نفس الدين الأصلى وأقر بصحة ذات التعاليم التى جاء بها رسل الله قبلى .

وهذا القول واضح فى الاناجيل الحالية تمام الوضوح بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام وأنه جاء بنفس الدين الذى جاء به موسى عليه السلام والأنبياء الآخرون . فنراه فى انجيل متى يعظ الناس فوق الجبل فيقول :

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ما جئت لأنقض بل لاكمل » .

(متى اصحاح ٥ : ١٧) .

وقد سأله أحد أحبار اليهود :

« يا معلم أى وصية هى العظمى فى الناموس فقال له يسوع تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هى الوصية الاولى والعظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » .

(متى ٢٢ : ٣٧ — ٤٠) .

ثم قال المسيح لتلاميذه :

«على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوا وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لاتعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون »

(متى ٣٢ : ٢ — ٣)

وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

يعنى اننى سانسخ توهمات جهلائكم ومجادلات وسفسطات فقهائكم القانونية وتشددات رهبانكم والقيود التى وضعت والصقت على شريعة الله الأصلية عندكم بسبب غلبة غير المسلمين وسطوتهم عليكم وسأحل لكم ما أحل الله وأحرم عليكم ما حرمه .

وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ *

يظهر من هذا أن دعوة عيسى عليه السلام كانت تعتمد على ثلاثة أصول مثلها مثل دعوة الانبياء طرا .

الأول : التسليم بأن الله وحده هو السلطة العليا التى يختار المرء سبيل «العبدية» أمامها ويقوم على طاعتها كل النظام الاجتماعى والاخلاقى .

الثانى : طاعة أحكام النبى بوصفه نائبا ممثلا عن هذا السلطان الاعلى .

الثالث : أن القانون الذى يضع حدود وقيود التحريم والتحليل هو قانون الله فحسب أما قوانين الآخرين المفروضة فرضا فباطلة مردودة .

فليس من فرق اذن — ولو قيد شعرة — بين مهمة ودعوة سيدنا عيسى وسيدنا موسى وسيدنا محمد وغيره من الانبياء عليهم أجمعين السلام . ويخطىء من يقر لكل واحد منهم بمهمة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه ويفرق بينهم فى الغرض والنوع .

ان من يأمره مالك الملك بالذهاب الى رعيته لدعوتهم لا يمكن أن يكون الغرض من مجيئه شيئا آخر سوى منعهم من العصيان والتحرر والاستقلال المطلق وكفهم عن الشرك (يعنى أن يشركوا آخرين مع مالك الملك فى السلطة العليا بأى شكل من الأشكال) ودعوتهم الى الاذعان التام والعبودية الخالصة والطاعة والعبادة للمالك الأصلى .

ومن أسف أن الاناجيل الموجودة لم توضح دعوة المسيح بالدرجة التى نجدها فى القرآن ومع هذا نستطيع أن نضع أيدينا على هاتيك الأصول الثلاثة فى شكل اشارات متناثرات على صحائفها .

فدعوة المسيح الى العبودية لله وحده دون سواه مثلا نجدها فى قوله عليه السلام :

« للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد » . (متى ٤ : ١٠)

ولم يكن المسيح يقول هذا فحسب بل ان كافة جهوده كان الغرض منها أن يطاع أمر الله فى الأرض كما هو مطاع فى السماء :

« ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .
(متى ٦ : ١٠)

اما ان المسيح عليه السلام قدم للناس نفسه على أنه نبى ونائب عن ملكوت السماء . وانه كان يدعو الناس ليطيعوه بوصفه هكذا فان ذلك يظهر من أقواله العديدة .

فحين بدا دعوته فى مدينة الناصرة موطنه . اجتمع اهل بلده واخوانه على مخالفته وفى هذا تتفق روايات متى ومرقص ولوقا على انه قال :

« لاكرامة لنبى فى وطنه »

وحين راحوا يدبرون قتله فى أورشليم واشار الناس عليه بالرحيل الى مكان آخر اجابهم :

« لايمكن أن يهلك نبى خارجا عن أورشليم »
(لوقا ١٣ : ٢٣)

وحين كان يدخل اورشليم للمرة الاخيرة صاح تلاميذه « مبارك الملك الآتى باسم الرب » فغضب الفريسيون من هـذا وطلبوا اليه أن يسكتهم فقال لهم .

« ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ » .
(لوقا ١٩ : ٣٨ ــ ٤٠)

وقال فى موضوع آخــر :

« تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقلى الأحمـال وأنا أريحكم احملوا نيرى على وتعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لأن نيرى هين وحملى خفيف » .
(متى ١١ : ٢٨ــ٣٠)

اما ان المسيح عليه السلام كان يبغى ان يطيع الناس قانون الله بدلا من القوانين الوضيعة فان ذلك يتجلى فى رواية متى ومرقص التى خلاصتها ان الفريسين اعترضوا على المسيح وقالوا :

« لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ فانهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا فأجاب وقال لهم وأنتم أيضا لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم فان الله أوصى قائلا أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا وأما أنتم فتقولون من قال لابيه وأمه قربان هو الذى تنتفع به فلا يكرم أباه وأمه فقد ابطلتم وصية الله بسبب تقليدكم يامراؤون حسنا تنبأ عنكم اشعياء قائلا يقترب الى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه واما قلبه فمبتعـد عنى بعيدا وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس » .
(متى ١٥ : ٣ ــ ٩ مرقص ٧ : ٥ ــ ١٣)

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ

الحواريون تعطى أقرب المعانى لما يعطيه لفظ « الأنصار » عندنا والانجيل يستخدم لفظ التلاميذ بدلا من الحواريين على وجه العموم ويدعوهم فى بعض المواضع «رسلا» بمعنى ان المسيح عليه السلام كان يرسلهم للدعوة وليس معناه أنهم كانوا رسلا من عند الله

نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ

عبر القرآن الكريم فى أكثر مواضعه عن الأخذ بنصيب فى اقامة الاسلام (بنصر الله)

وهذا معنى يتطلب الشرح :

ان قطاع الحياة الذى منح الله الانسان فيه حرية الارادة لم يجبر الانسان فيه بقوته الالهية على الاختيار بين الكفر والايمان أو الطاعة والعصيان ولكنه سبحانه وتعالى يريد الانسان ــ بالدليل والحجة والنصيحة ــ أن يقول ان الحق بالنسبة له وان الطريق الوحيد لفلاحه ونجاته هو اختيار العبودية والطاعة لخالقه رغم توفر الحرية له فى أن ينكره ويعصيه ويتمرد عليه . وبذا فتدبير جذب العباد بالتفهيم والنصيحة الى الصراط المستقيم انما هو فى الأصل من عمل الله والذين يوافقون الله فى هذا العمل ويرافقونه ويناصرونه يسميهم الله أنصاره ورفاقه ولعمرى ان هذا لمقام سام يصل اليه العبد فان كان الانسان فى الصلاة والصيام وسائر العبادات مجرد عبد فانه فى مقام الجهاد فى الدعوة لدين الله واقامته ينال شرف رفقة الله ونصره وهو أسمى مراتب الرقى الروحى فى هذه الدنيا .

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ

هنا استخدم لفظ متوفيك ومعنى توفى أصلا اخذ واستوفى وقبض الروح هو المعنى المجازى لا اللغوى لهذا اللفظ . وهذه الكلمة هنا مستخدمة فى

نفس معنى الكلمة الانجليزية TO RECALL أى سحب أحد المسئولين من منصبه أو اقالته بلفظ آخر . ولما كان بنو اسرائيل يصرون على ارتكاب المعاصى منذ قرون ويمضى سلوكهم القومى الى وجهة منحرفة رغم تنبيههم وتحذيرهم وتفهيمهم مرات ومرات ولما كانوا يقتلون الانبياء ويتعطشون لاهراق دم كل عبد صالح يقوم لدعوتهم الى الطريق القويم ، أرسل الله اليهم — كآخر فرصة — رسولين جليلين فى آن واحد هما سيدنا عيسى وسيدنا يحيى عليهما السلام وايدهما بآيات وعلامات صريحة تقطع بكونهما نبيين من لدن رب العالمين لا يستطيع انكارها أو التعامى عنها الا من وصل عناده للحق والصدق الى درجة عليا وفاق صلفه وعجرفته وجرأته على الحق حدا بعيدا غير أن بنى اسرائيل فوتوا على أنفسهم هذه الفرصة الأخيرة ولم يكتفوا برد دعوة هذين الرسولين العظيمين بل أمر أحد سراتهم على الملا بقطع رأس سيدنا يحيى ذلك النبى الجليل نزولا على امر راقصة غانية وتآمر علماؤهم وفقهاؤهم وسعوا فى استصدار الامر من الحاكم الرومانى باعدام سيدنا عيسى عليه السلام فأصبح من العبث اضاعة الجهد والوقت فى بذل مزيد من النصح والتفهيم لبنى اسرائيل بعد ذلك ولذا استدعى الله رسوله (أى توفاه) وضرب على بنى اسرائيل الذلة الى يوم القيامة .

وهنا ينبغى ان نفهم امرا آخر وهو ان الغرض من هذا الخطاب القرآنى كله تفنيد عقيدة ألوهية المسيح التى اعتنقها المسيحيون وآمنوا بها ولقد كان لظهور هذه العقيدة بينهم اسباب ثلاثة :

١ — ولادة المسيح الاعجازية .

٢ — معجزاته الصريحة الملموسة .

٣ — رفعه الى السماء الذى نجد ذكره واضحا جليا فى كتبهم .

والقرآن يؤيد الامر الاول ويصدقه ويقول ان ولادة المسيح من غير أب هى معجزة من الله القادر قدرة مطلقة ، فالله يخلق ما يشاء وليست هذه الولادة غير الطبيعية دليلا على أن المسيح اله أو له نصيب من الألوهية .

كذلك صدق القرآن الامر الثانى بل سرد معجزات المسيح واحدة بواحدة لكنه قال انه فعل ذلك كله باذن الله ولم يفعل أيا منها برغبته وقدرته واختياره ، وعلى هذا فليس من بين ذلك ما يحق لكم أن تستنتجوا منه أن المسيح كان له حظ من الألوهية .

أما فيما يتعلق بالامر الثالث فاذا لم تكن رواية المسيحيين غلطا من أساسها لكان ضروريا لتفنيد عقيدتهم فى الوهية المسيح ان يقال لهم فى صراحة ووضوح ان من جعلتموه الها وابنا لله قد وجد ميتا ومدفونا فى التراب وان كنتم تريدون مزيدا من الاطمئنان فاذهبوا الى المكان الفلانى وشاهدوا قبره ولكن القرآن بدلا من هذا كله لم يكتف بعدم التصريح بموته وباستخدام الألفاظ التى يفهم منها أنه رفع حيا الى السماء . وانما قال — عكس ما زعم

المسيحيون — أن المسيح لم يصلب أصـلا يعنى أن من قال فى آخر لحظة « ايلى ايلى لم شبقتنى » ومن كنتم تطوفون به معلقـا على صليبه ليس هو المسيح ، انما المسيح قد رفعه الله اليه قبل هذا .

لعمرى ان من يحاولون — بعد هذا — ان يسـتخرجوا من آيات القرآن معنى وفاة المسيح انما فى الحقيقة يثبتون ان الله — جل شانه — ليست لديه السليقة التى يستطيع بها ان يعبر عن مراده فى عبارات والفاظ واضحة لا لبس فيها . نعوذ بالله من ذلك .

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ

المراد بالذين كفروا اليهـود الذين دعاهم المسيح عليه السلام الى الايمان فرفضوه وكفروا به أما الذين اتبعوه فهم على عكس ذلك واذا كان المراد بالذين اتبعوك من اتبعوه حقا فمعناها يقتصر على المسلمين فحسب، وان كان المقصود منها من قبلوه جملة فان المعنى ينسحب على المسيحيين والمسلمين معا .

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

يعنى ان كانت الولادة الاعجازية دليلا يكفى لجعل أحد الها أو ابنا لله فأحرى بكم أن تعتقدوا هـذا عن آدم فاذا كان المسيح قد ولد دون أب فان آدم قد جاء الى الدنيا بغير اب وأم .

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

النكات الرئيسية التى قدمت للمسيحيين فى الجزء الانف من الخطاب تتلخص فيما يلى : —

الامر الاول الذى اراد الله ان يقره فى اذهانهم هو ان الاسباب التى نشأ منها اعتقادكم فى ألوهية المسيح ليس من بينها سبب يحملكم على هذا الاعتقاد . فلقد كان المسيح بشرا ، ورأى سبحانه وتعالى — وفق حكمته — أن يخلقه على نحو اعجازى غريب ، وأن يؤيده بالمعجزات التى تؤكد نبوته تأكيدا صريحا ، ولم يدع منكرى الحق يصلبونه بل رفعه اليه . اذ السيد المالك له الحرية فى أن يستخدم عبده كيف يشاء ، فكيف يصح أن نستنتج من مجرد معاملة غير عادية ان هذا العبد كان هو السيد المالك ، أو أنه كان ابن المالك أو شريكه فى الملكية ؟.

والامر المهم الثانى ان ما جاء المسيح ليدعو اليه هو نفس ما جاء محمد عليه الصلاة والسلام ليدعو الناس اليه ، وليس من اختلاف بين دعوتيهما ولو قدر ذرة .

وثالث الامور فى هذا الخطاب أن دين الحواريين بعد المسيح كان هو الاسلام الذى يقدمه القرآن ، أما المسيحية التى قامت بعد ذلك فلم تتخذ التعاليم التى كان المسيح يقول بها أساسا لها وعمادا ، ولم تتبع ذلك المذهب الذى اتبعه الحواريون اصحاب المسيح عليه السلام .

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

المقصود من عرض تسوية النزاع على هذه الصورة ان وفد نجران كان لا يزال مصرا على تمرده وعناده . ولم يكن عندهم جواب اى من الامور التى ذكرت آنفا بل حتى كتبهم المقدسة نفسها ليس فيها سند يدعون على اساسه — ادعاء ملؤه اليقين — ان عقائدهم هذه او احداها تطابق الواقع تماما ولا تتعارض مع الحقيقة أبدا .

ولما نظر الوفد الى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتبصروا تعاليمه ومعجزاته ملا صدور أكثرهم صدق نبوته أو على الأقل ضعف انكارهم له ، ولهذا حين قيل لهم ان كنتم على يقين تام من صدق عقيدتكم فتعالوا ندعو الله ان ينزل لعنته على الكاذبين ما برز واحد منهم لهذه المواجهة ، فانجلى امام العرب جميعا ان زعماء مسيحية نجران الذين

طالما حاطت بهم هالات القدسية يتبعون — اصلا — عقائد لا يثقون فى صدقها ثقة تامة .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

من هنا يبدأ خطاب ثالث اذا ما دققنا البصيرة والعقل فى مضمونه استطعنا الحدس بأنه نزل فى الزمن بين حرب بدر وحرب احد . غير ان هذه الخطابات الثلاثة تتصل معانيها ببعضها اتصالا ظاهرا حتى ان انسياب الكلام وارتباطه عبر آياتها من أول السورة والى هنا لا يبدو عليه الانقطاع او يظهر فيه التفكك . ولهذا السبب التبس الامر على بعض المفسرين فظنوا ان الآيات التالية (التى اولها قل يا اهل الكتاب تعالوا ..) ايضا من آيات الخطاب الخاص بوفد نجران الا ان الخطاب الذى يبدأ بهذه الآية يوضح اسلوبه ان المخاطب فيه هم اليهود لا النصارى .

تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

يعنى اتفقوا معنا على هذه العقيدة التى نؤمن بها نحن ايضا ولا تستطيعون انكار صحتها ، وهى العقيدة المنقولة عن انبيائكم وتوجد تعاليمها فى متون كتبكم المقدسة .

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

يعنى أن يهوديتكم ونصرانيتكم هذه ظهرت بعد نزول التوراة والانجيل وان ابراهيم عليه السلام مات قبل نزول هذين الكتابين بأمد بعيد فمن به مسكة من عقل اذن ، يدرك بسهولة ان ابراهيم عليه السلام كان على دين غير اليهودية أو المسيحية . فاذا كان سيدنا ابراهيم على الطريقة المثلى والصراط القويم فلا محيص من التسليم بأن نجاة الانسان واتباعه للطريق القويم ليس مقصورا على الايمان باليهودية والنصرانية والسير على سبيلها . (انظر تفسير الآية ١٣٥ والآية ١٤٠ من سورة البقرة) .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا

والمراد بلفظ حنيف المستخدم هنا الشخص الذى يحول وجهه عن كل سمت وطرف ثم يمضى فى طريق خاص .

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

يجوز أن نفهم ((**وأنتم تشهدون**)) بمعنى المشاهدة أو بمعنى الشهادة وكلا الفهمين لا يخل بالمعنى المقصود قط . والحق ان حياة النبى صلى الله عليه وسلم الطاهرة العفيفة واثر تربيته المحيرة فى حيوات الصحابة الكرام وسيرهم وكذا معانى القرآن الراقية السامية . كل هذه الامور كانت آيات مضيئة من الله بحيث اذا ما شاهدها اى انسان له علم بأحوال الانبياء والكتب السماوية استحال عليه الشك فى نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام . **والواقع أن كثيرا من أهل الكتاب (خصوصا أهل العلم منهم)**

كانوا يعرفون ان محمداً عليه الصلاة والسلام هو نفس النبى الذى بشر به الأنبياء السابقون ، حتى انهم كانوا يضطرون فى بعض الاحايين ــ من شدة نور الحق وقوته ــ الى الاعتراف بأفواههم بصدقه وحقية تعاليمه وما جاء به . من اجل هذا كثيرا ما يتهمهم القرآن بتكذيب آيات الله التى يشاهدونها بأعينهم ويشهدون بحقيتها عن قصد واصرار بسبب شرور انفسهم وخبث سرائرهم .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

هذه حيلة من الحيل التى كان زعماء اليهود القاطنين فى أطراف المدينة يحيكونها لاضعاف الدعوة الاسلامية . فلكى ينفروا الناس من المسلمين ويشككون عامتهم فى النبى عليه الصلاة والسلام راحوا يتواطأون فى السر مع بعض الناس ليقلبوا الاسلام علنا أول الأمر ثم يرتدوا ويذيعوا بين الناس اينما حلوا أننا وجدنا كيت وكيت من العيوب والمفاسد فى الاسلام والمسلمين ورسولهم ولهذا انفصلنا عنهم .

وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ
ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

لفظ « واسع » المستخدم هنا يردده القرآن فى ثلاثة احوال : حين يأتى الحديث عن ضيق تفكير وبصيرة فريق من الناس فيلزم ذكره لينبههم الى حقيقة ان الله ليس مثلكم ضيق النظر ، وحين يذم القرآن البخل والبخلاء فيورده ليقول لهم ان الله كريم جواد مبسوط اليد ينفق كيف يشاء وليس بخيلا ــ معاذ الله ــ مثلكم ، وحين ينسب الناس الى الله اى نوع من التقييد والحصر والتحديد بسبب غباء عقولهم وظلمة تفكيرهم . فيقول لهم القرآن ان الله واسع لا يحده حد .

(انظر تفسير الآية ١١٥ من سورة البقرة)

اما « عليم » فى هذه الآية فتعنى ان الله يعلم من يستحق الفضل والشرف .

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

* وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ

وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

سَبِيلٌ

يعنى ان تراعى الامانة والتقوى فى تعاملهم من اخوانهم اليهود فحسب اما غير اليهود فلا جناح عليهم فى اغتصاب اموالهم واكلها . ولم يكن هذا الفكر الجاهلى يصدر عن عامة اليهود وحدهم . فالحق ان النظام الدينى فى اليهودية بأكمله بنى على أساس التفريق بين اليهود وغيرهم فى الأحكام الاخلاقية . فحرام على الاسرائيلى أن يقترف شيئا مع أحد أبناء دينه وحلال له ان يرتكب نفس الشىء مع غيرهم . والشىء الواحد حق للاسرئيلى وليس حقا لغيره . فالتوراة مثلا تلزم اليهودى ان يبرىء كل صاحب دين يده مما اقرض صاحبه كل سبع سنوات فتقول « الاجنبى تطالب واما ما كان لك عند اخيك فتبرئه يدك منه » (التثنية ١٥ : ٣) . وتقول فى موضع آخر « للاجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا » (التثنية ٢٣ — ٢٠) وتقول « اذا وجد رجل قد سرق نفسا من اخوته بنى اسرائيل واسترقه وباعه يموت ذلك السارق » (التثنية ٢٤ : ٧) .

وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ

لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ

إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

السبب ان هؤلاء الناس يرتكبون كل هذه الجرائم الاخلاقية ثم يرون انهم يوم القيامة سيكونون وحدهم عباد الله المقربين ، وان ما علق بهم من ميل الى الذنوب سيسقط عنهم بتقديمهم القرابين لشيوخهم . فى حين أن الامر سيكون لهم عكس ذلك يوم القيامة .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ......

رغم انه من الممكن ان يكون معنى هذا انهم يحرفون معانى كتاب الله أو يقلبون ألفاظه ليستخرجوا منهـا معانى أخرى الا أن معنى هـذه الآية الأصلى أنهم حين يتلون الكتاب يأتون على لفظ أو فقرة مما يخالف مصلحتهم وعقائدهم ونظرياتهم التى وضعوها بأنفسهم فيلوون ألسنتهم فيتغير معناها ولا نعدم أمثلة لذلك بين أهل الكتاب الذين قبلوا القرآن . فبعض الذين ينكرون بشرية النبى يقرأون الآية « **انما أنا بشر مثلكم** » « ان ما انا بشر مثلكم » (١)

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ

كان علماء الدين عند اليهود أصحاب مناصب أو قل موظفين وكان عملهم ارشاد الناس فى الأمور الدينية وتنفيذ أحكام الدين واقامة العبادات وكانوا يسمون ربانيين مثلما قال عنهم القرآن نفسه فى موضوع آخر « **لولا ينهاهم الربانيون والأحبـار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت** » . كذلك يؤدى لفظ ربانى نفس المعنى عند المسيحيين .

بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

---

(١) بهذه القراءة تصبح ان حرف توكيد ونصب وما نافية وبذا يكون المعنى « انى لست بشرا مثلكم » — المترجم

هذا نفى جامع لكل الاقوال الباطلة التى نسبتها مختلف أمم الدنيا الى المرسلين وأضافوها الى كتبهم والتى تتخذ رسولا من الرسل او ملكا من الملائكة الها ومعبودا بأى طريقة وعلى اى نحو ولقد ذكرت فى هذه الآيات قاعدة كلية تقول ان اى تعاليم تنادى بالعبدية والعبادة لاحد غير الله وترفع عبدا من عباد الله من مقـام العبدية الى مقام الألوهية لا يمكن ان تكون تعاليم معطاة من رسول قط وحين ترون هذا فى كتاب من كتب الاديان فاعلموا انه نتيجة لتحريفات الزمرة الضالة المضلة من المنتسبين اليه .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

يعنى اننا قد اخذنا ميثاقا من كل رسول — وكل ميثاق يؤخذ من نبى فهو ملزم لاتباعه ايضا — ان تنصر كل نبى يرسل من عندنا لاقامة الدين الذى امرناك باقامته والدعوة اليه ، فلا تعصب ولا كبرياء ولا مخالفة للحق بل الانضمام تحت راية كل من قام من البشر ليرفع راية الحق بأمرنا .

وعلينا ان نفهم هنا ان كل نبى قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد اخذ عليه هذا العهد ، وعلى هذا اخبر كل نبى قومه بمن سيأتى بعده ، وامرهم بمعاضدته وشد ازره ، ولكن لم يرد فى القرآن ولا فى الحديث قط ان محمدا عليه الصلاة والسلام قد اخذ منه هذا الميثاق او انه اخبر قومه بنبى يأتى من بعده ، وأمرهم بالايمان به .

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

المقصود بهذا تنبيه اهل الكتاب الى انهم بانكارهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعارضتهم له ينقضون عهد الله وميثاقه الذى أخذه من أنبيائهم ومن ثم فهم « فاسقون » أى خارجون على طاعة الله .

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يعنى ان دين الكون ومن فيه وما فيه هو الاسلام بمعنى طاعة الله والخضوع له والتسليم وها انتم تعيشون فى هذا الكون ومن بين مخلوقات الله فيه فأى نظام للحياة تبحثون عنه بعد ترككم الاسلام واعراضكم عنه .

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ

وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

يعنى ليس سبيلنا أن نؤمن بنبى ونكفر بآخر ، ونصدق أحدهم ونكذب الآخر ، وانما نحن أطهار من التعصب برءاء من حمية الجاهلية ، وكل عبد من عباد الله يأتى من لدنه بالحق نشهد بصدقه ونصدق دعوته ،

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟

بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ

اعيد هنا نفس الامر الذى ذكر من قبل مرارا عديدة وهو ان يهود العرب فى عهد النبى صلوات الله وسلامه عليه كانوا يعرفون انه على حق وأن ما جاء به هو نفس ما جاءت به الانبياء من قبل بل ويشهدون على ذلك بألسنتهم ثم ما كان منهم الا أن عادوا الى ديدنهم القديم فى التعصب والمخالفة ومعاداة الحق وهو الجرم الذى كانوا يقترفونه منذ قرون وقرون

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ
أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟
كُفْرًا

يعنى لم يقف الامر بهم عند حد الرفض والانكار بل جنحوا الى سبيل المخالفة والمعارضة العملية أيضا ، وبذلوا ما فى وسعهم لصد الناس عن سبيل الله ، واختلقوا الشبهات ونشروا الظنون والأكاذيب ، وبثوا الوساوس فى القلوب والافئدة ، ونسجوا المؤامرات والدسائس كى لا تفلح دعوة النبى بأى حال من الاحول .

لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ
تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ

الغرض من هذا محو فكرتهم الخاطئة عن « الخير » أو « البر » ، فلقد كانت اسمى افكار الخير وارقى تصوراته عندهم ان يلتزم المرء فى حياته بالتشريع المتوارث منذ قرون خلت والذى اتخذ عندهم شكلا صوريا ظاهريا وأن يزن كافة أمور الحياة الدقيقة الصغيرة وفرعياتها وضمنياتها بميزان مجادلات علمائهم الفقهية التى صارت لديهم نظاما قانونيا عريضا . كان اتباع الشرع هذا فى الظاهر فقط ، اما تحت هذا الغطاء الظـــــاهرى

فكانت تختفى بين أكابر متدينى اليهود عامة عيوب الحرص والبخل وكتم الحق وبيعه وكان الرأى العام يعد ذلك خيرا وبرا .

وللاطاحة بهذا الفهم الخاطىء يخبرهم الله فى هذه الآية أن مقام بر الانسان وصلاحه أسمى من تلك الأشياء التى اعتبرتموها أساس الخير والصلاح . فروح الخير والبر الحقيقية هى حب الله حبا لا يرى فى الدنيا شيئا اعز من رضا الله ، وما الشىء الذى تستولى محبته على قلب الانسان فلا يضحى به فى سبيل حب الله الا صنم لن نفتح ابواب الخير امام المرء مالم يحطمه تحطيما . ولعمرى ان تباع الشرع فى الظاهر مع انعدام هذه الروح ليس الا كطلاء براق دهنت به قطعة خشب انيقة المظهر نخرها السوس وافسد داخلها واذا انخدع بها الانسان فلن ينخدع بها رب العالمين

وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

لما فشل علماء اليهود فى اثارة اعتراض له اساس من الوجاهة على ما جاء به القرآن أو تعاليم محمد عليه الصلاة والسلام (اذ لا فرق فى اساسيات الدين بين ما جاء به الانبياء السابقون وبين ما جاء به النبى العربى على الاطلاق) بدأوا ينبشون على اعتراضات فقهية ، فكان اول ما قالوه للنبى عليه الصلاة والسلام فى هذا انك قد احللت بعض الاطعمة والاشربة مما كان حراما فى عصور الانبياء الاولين . فرد الله على اعتراضهم هذا فى هذه الآية .

إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ

اذا اعتبرنا المقصود باسرائيل هنا بنى اسرائيل كان معنى ذلك انبنى اسرائيل قد تعارفوا — مجرد عرف — على تحريم بعض الأشياء قبل نزول التوراة ، واذا اعتبرنا المراد باسرائيل سيدنا يعقوب كان معنى ذلك انه عليه السلام امتنع عن أكل بعض الأشياء اما بسبب كراهيته لها كراهية طبعية ، واما بسبب مرض ألم به فاعتبرها أولاده من بعده حراما عليهم . وهذه الرواية الأخيرة أكثر شيوعا وانتشارا ويتضح من آية أخرى فى القرآن أن حكم التوراة بتحريم لحم الجمال وغيرها ليس حكم التوراة الاصلية وانما حشره علماء اليهود حشرا فى كتابهم .

قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾
قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

المعنى الى أى مدى ستذهبون فى تقصى هذه الجزئيات الفقهية ؟
لقد تركتم اساس الدين وهو عبادة الاله الواحد ووقعتم فى قذارات الشرك ، وها أنتم تفتشون وتبحثون فى المسائل الفقهية فى حين أن هذه المسائل ظهرت من مجادلات وفذلكات علمائكم خلال قرون الانحطاط الطويلة بعد الانحراف .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

كان اعتراض اليهود الثانى انكم قد حولتم وجوهكم عن بيت المقدس وهو قبلة الأنبياء الاولين وجعلتم الكعبة قبلتكم ولقد رد الله على هذا الاعتراض فى سورة البقرة ، الا أن اليهود أصروا من بعد ذلك على اثارته مرة أخرى لذا رد الله عليه هنا ايضا ، والتوراة نفسها تشهد بان بيت المقدس قد بناه سيدنا سليمان بعدمضى اكثر من اربعمائة وخمسين سنة بعد موسى عليه السلام . (١) وانه جعل قبلة اهل التوحيد فى عهد سليمان عليه السلام (٢) وعلى عكس ذلك تتطع روايات كل العرب المتواترة والمتفق عليهما ان ابراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة ، وانه مات قبل سيدنا موسى بثمانمائة أو تسعمائة سنة . لهذا فأسبقية الكعبة وأولويتها على بيت المقدس حقيقة قاطعة ليس فيها اى مجال للاخذ والرد .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ

---

(١) تقول التوراة « وكان فى سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى اسرائيل من أرض مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على اسرائيل فى شهر زيو وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب » (الملوك الأول ٦ : ١) — المترجم .

(٢) تقول التوراة « لتكون عيناه على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت أن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع أسمع تضرع عبدك وشعبك اسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع » (الملوك الأول ٨ : ٢٩ — ٣٠) — المترجم .

يعنى فى هذا البيت آيات صريحة وعلامات بينة على أنه مقبول عند الله وان الله يحب ان يكون هذا البيت بيته . فلقد بنى فى صحراء جرداء ثم هيأ الله لمجاوريه أفضل رزق وأحسنه ، وعاشت كل الجزيرة فى حالة من الفزع وانعدام الامن لا مثيل لها بسبب ما كانوا عليه من جاهلية ولكن مع كل ذلك الفساد الذى كان يملأ الأرض بأسرها بقيت منطقة الكعبة وأطرافها آمنة مستقرة بل ان من بركات الكعبة ان كان الامن يعم سائر البلاد بسببها اربعة أشهر كل عام (١) . ثم راى الجميع ما حدث لأبرهة حين هاجم الكعبة وسعى لتخريبها وتدميرها ، وكيف انهزمت جيوشه بطريقة الهية محضة ولقد كان كل طفل فى بلاد العرب آنذاك يعرف هذه الواقعة وكان من شاهدوها عيانا لا يزالون على قيد الحياة وقت نزول هذه الآيات .

مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا

كان لهذا البيت احترامه واجلاله حتى فى عصور الجاهلية المظلمة لدرجة أن الخصوم من أولئك العرب السفاحين آنذاك كان يرى بعضهم بعضا عنده دون أن يتجاسر أى منهم على مهاجمة الآخر .

وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ
فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

---

(١) يقصد الأربعة الحرم — المترجم .

يعنى اطيعوا الله واخلصوا له ، وكونوا له اوفياء الى آخر نفس بين ضلوعكم .

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟

المراد بحبل الله دينه . ولقد عبر عن بالحبل لانه الرابطة التى تربط المؤمنين بالله من ناحية وتربطهم ببعضهم وتخلق منهم جماعة واحدة من ناحية أخرى ومعنى « الاعتصام » بهذا الحبل أن تكون الأهمية الاولى فى عين المسلمين للدين ، وان يكون حبهم وشغفهم به وحده ، وان يجاهدوا ويجدوا فى اقامته ويتعاونوا فيما بينهم على خدمته ، أما اذا غابت تعاليم الدين الاساسية عن اعينهم وتخلوا عن اقامة الدين كهدف اساسى وحيث واتجهت اهتماماتهم وشغفهم وولوعهم الى الجزئيات والفروع فلا محالة من ظهور الفرقة بينهم ونشوب الاختلاف بين صفوفهم وهو ما جرف امم الانبياء الأولين عن هدفهم الاصلى فى الحياة وأصابهم بالخزى فى الدنيا والآخرة .

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا

هذه اشارة الى الحالة التى كان عليها العرب قبل الاسلام اذ العداوة ناشبة بين قبائلهم ، والقتال بينهم على كل شىء واى شىء ، والدماء مراقة ليل نهار حتى أوشكوا أن يفنوا عن آخرهم وينقطع دابرهم فما كان لهم من واق يقيهم الاحتراق والفناء فى هذه النيران العظيمة سوى نعمة الاسلام

هذه الايات نزلت وكان اهل المدينة قد اسلموا قبل نزولها بثلاثة او اربعة اعوام لاغير وكانت نعمة الاسلام الحية عليهم لاتزال بارزة شاخصة امام عيونهم وقد تصالحت الاوس والخزرج اللتان عاشتا سنين طويلة فى قتل وسفك فيما بينهما وصارتا سمنا على عسل ــ كما يقول المثل ــ وعامل اهل هاتين القبيلتين مها جرى مكة معاملة لانظير لها فى الحب والايثار والتضحية قلما تجدها بين افراد اسرة واحدة .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يعنى اذا تبصرتم هذه الآيات استطعتم أن تدركوا أين يكمن فلاحكم فى التمسك بهذا الدين أم فى تركه والعودة الى ما كنتم عليه من قبل ؟ وأى الفريقين يريد لكم الخير الله ورسوله أم اليهود والمنافقون الذين يجدون ويجتهدون فى ارجاعكم الى ما كنتم عليه فى الجاهلية ؟

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

هذه اشارة الى الامم التى تلقت عن انبياء الله تعاليم دين الحق الصافية النقية ثم تركت اساس الدين بعد تصرم زمن قليل وتفرقوا فيما بينهم على اساس المسائل الفرعية والامور الضمنية ، ثم شغلوا بالاقتتال على أمور تافهة حتى انهم لم يعوا المهمة التى أسندها الله اليهم ، بل ولم تشغف قلوبهم اصول العقيدة ومبادىء الاخلاق الاساسية التى يرتكز عليها عماد فلاح الانسان وسعادته .

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ
فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

يعنى لان الله لا يريد ان يظلم الناس فقد اراهم الطريق القويم وحذرهم مسبقا بما سيحاسبهم عليه فمن اختاروا سبيل الضلال ولم يرجعوا عن صنيعهم فسيظلمون انفسهم .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

هذا هو نفس المعنى الذى سبق ذكره فى سورة البقـــــرة (١) فالله سبحانه وتعالى يقول لأتباع النبى عليه الصلاة والسلام ان منصب امامة الدنيا وزعامة العالم الذى اقصى عنه بنو اسرائيل لعدم كفاءتهم قد امرتم بمباشرة مهامه ومسئولياته لأنكم أصبحتم أفضل أمم العالم خلقا وعملا ، وتربت فيكم الصفات اللازمة للامامة العادلة وهى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عاطفة وعملا ، والايمان بالله وحده لاشريك له عقيده ومسلكا. ومن ثم يلزم عليكم أن تنهضوا بمسئوليات هذا المنصب ولا تقترفوا الأخطاء التى اقترفها أسلافكم .

وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم

المراد باهل الكتاب هنا بنو اسرائيل .

مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ

يعنى اذا أصابوا حظا من الامن والاســـتقرار فى الدنيـــا الى حين فمرجعه لالقوتهم بل لحماية الاخرين لهم . سواء اعطتهم الامان حكومة مسلمة أم حمتهم حكومة غير مسلمة فكثيرا ما يجدون فرصة للقوة والتمكن غير أنها فرصة لم ينالوها بقوة سواعدهم بل بفضل الآخرين ومساندتهم .

---

(١) انظر الآية ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة البقرة .

وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا۟ سَوَآءً
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ
ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ
فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ
مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ

المراد بالحرث فى هذا المثال زرع الحياة الذى يجنى الانسان ثمره ومحاصيله فى الاخرة . والريح يقصد به عاطفة الخير الظاهرية التى ينفق الكفار على اساسها المال فى سبيل الخيرات والنفع . والصر (١) فى هذا المثال يقصد به فقدان الايمان الصحيح وعدم اتباع قانون الله وشرعته وهو ماجعل حياتهم كلها تتجه وجهة خاطئة .

فالله سبحانه وتعالى يريد ان يقول بهذا المثل رغم ان الهواء مفيد للزرع ، الا انه لو حمل معه صقيعا وبردا قارسا فانه يفسده بدلا من ان

---

(١) برد يصيب الحرث والنبات — المترجم .

يقيده وينميه وكذلك الخيرات ايضا فمع انها تنمى . زرعة الانسان فى آخرته الا أن هذه الخيرات اذا صادفت فى داخله سموم الكفر صارت مهلكة له لا منعشة لزرعة مكثرة لحصاده .

وطبيعى ان الله هو مالك الانسان ، ومالك المال الذى يتصرف فيه الانسان ، وهذه المملكة التى يعيش فيها الانسان ويعمل هى مملكة الله ودولته ، فاذا لم يؤمن هذا العبد (الانسان) بسلطة المالك العليا او اذا أقر لمالكه بالعبودية لكنه اشرك معه فيها شريكا آخر ولم يطع قانون الله وشرعه فى التصرف فى مال الله ومملكته ، فان كل تصرفاته هذه من اولها الى آخرها تصبح جرما كبيرا فكيف ينال أجرا وهو الذى ستقام عليه قضية جنائية نظير ما ارتكبه من تصرفات واعمال ؟ وما مثل خيره الاكمثل عبد فتح خزانه سيده دون اذن منه واخذ ينفق منها فيما يراه مناسبا .

وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

كانت تتوشج اليهود الذين كانوا يقيمون فى أطراف المدينة واهل الاوس والخزرج صداقة وود منذ زمن قديم . فعلى المستوى الفردى كان افراد هاتين القبيلتين يصادقون اليهود ، وعلى مستوى القبائل كانت بين الفريقين صلات جوار وتحالف ، فلما اسلمت الاوس والخزرج ظلوا بعد اسلامهم حافظين لعلاقاتهم القديمة باليهود يقابل افرادهم اصدقاءهم اليهود بالود والمحبة والاخلاص ، الا أن اليهود بسبب عدائهم للنبى العربى عليه الصلاة والسلام ودعوته ، صاروا كارهين ابداء الحب والاخلاص تجاه كل من انضم لهذه الحركة الجديدة فتظاهروا بالحفاظ على ما كان بينهم وبين الانصار من علاقات تليدة ، وبطنوا لهم فى قلوبهم اشد العداوة والبغضاء واستغلوا صداقتهم الظاهرية لهم اسوأ استغلال اذ راحوا فى كل حين يثيرون الفتن والفساد فى داخل جماعة المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فكانوا اذا ما أطلعهم المسلمون على أسرار جماعتهم أفضوا بها الى أعدائهم وفى هذه الآية يطلب الله الى المسلمين أن يأخذوا حيطتهم من نفاق اليهود ومسلكهم فى الخديعة والوقيعة .

وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ

يعنى أنه لأمر عجيب أنهم يشتكون منكم بدلا من أن تشتكوا منهم ولا معنى أو سبب لشكواهم اذن وانتم تؤمنون بالتوراة الى جانب القرآن . ولو كان ثم مجال للشكوى لكان أحرى أن تصدر منكم لأنهم لا يؤمنون بالقرآن وهو كتابكم .

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ
قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ
غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

بالآية الأخيرة يبدأ الخطاب الرابع . وقد نزل بعد واقعة أحد وحوى تعليقا عليها .

ولقد انتهى الخطاب السابق بقوله تعالى ((**وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط**)) ولما كانت هزيمة المسلمين فى أحد ترجع الى قلة صبر بدت منهم ، والى أخطاء تناقض تقوى الله صدرت عن بعض أفراد جماعتهم لهذا أدرجت هذه الخطبة التى أخبرهم الله فيها بعيوبهم ونقاط ضعفهم فى ذيل الخطبة السابقة مباشرة .

وسياق هذا الخطاب الرابع واسلوبه درج على انتقاء أهم ما جريات وقعه احد واحدة بواحدة ، والتعليق على كل منها بآيات سديدات مناسبات تلقن المسلمين دروسا وعظات كبرى ولكى نفهم هذا الخطاب علينا أن نلقى نظرة على خلفية حوادثه ووقائعه التاريخية .

جمع كفار قريش فى بداية شوال من العام الثالث للهجرة جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل وأغاروا على المدينة ، وكانوا فى عدة وعتاد يفوق ما عند المسلمين بالاضافة الى كثرتهم العددية بالنسبة لجند المسلمين ، وجاءوا متحمسين مفعمين بروح الانتقام والثار لهزيمتهم فى بدر ، وكان رأى النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته المجربين أن يتحصنوا بالمدينة ويدافعوا عنها الا ان بعض الشباب ممن كانت نفوسهم تتوق لنيل الشهادة ولم يكن لهم حظ فى الاشتراك فى حرب بدر أصروا على الخروج للقتال حتى اضطر النبى آخر الأمر الى أن يصدر أمره بالخروج لقتال العدو فخرج فى الف من أتباعه ،

وما كادوا يصلون الى الميدان حتى انسلخ عبد الله بن أبى عن جيش المسلمين ومعه ثلاثمائة من رفاقه فوقع الاضطراب فى صفوف المسلمين من جراء فعلتهم هذه حتى أن بنى سلمة وبنى حارثة فت فى عضدهم وارادوا النكوص والرجوع فبذل اولو العزم من الصحابة ما رفع الاضطراب وقشع الوهن من بين صفوفهم فتقدمت المئات السبع الباقية مع الرسول واصطفوا عند جبل أحد (يبعد عن المدينة أربعة أميال تقريبا) فكان الجبل من ورائهم وجند قريش من امامهم والى جانبهم كان هناك مضيق صغير يخشى ان يشن منه العدو هجوما مفاجئا فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين رجلا من الرماة يرابضون فيه تحت امرة عبد الله بن جبير وأكد عليه « انضح (ادفع) الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » وبدأت الحرب ورجحت كفة المسلمين أول الامر ووقع الاضطراب والتشتت فى جيش اعدائهم ، الا ان المسلمين بدلا من أن يصلوا بهذا النصر الأولى الى فتح كامل ونصر مؤزر غلبهم الطمع فى المال والغنائم فراحوا يغتنمون جند عدوهم وهنا رأى الرماة الذين أمرهم الرسول بالمرابضة لتأمين عقب المسلمين جند العدو يفرون والغنائم تتناثر هنا وهناك ، فتركوا مكانهم وقصدوا الغنيمة فذكرهم عبد الله بن جبير بتاكيد الرسول عليهم ومنعهم فما بقى معه غير قليل فاهتبل خالد بن الوليد — وكان يقود جيش الكفار آنذاك — هذه الفرصة واستدار حول الجبل وهاجمهم من المضيق فثبت عبد الله بن جبير ومن معه فلم يقووا على دفعه وتدفقت على المسلمين جموع الكافرين ثم عادت فلولهم التى كانت فرت لتهاجم المسلمين من الجانب الآخر وبهذا انقلب حظ المسلمين فى غمضة عين ولما راوا ما آل اليه حالهم وما كانوا لايتوقعون حدوثه ذهلوا واستولت عليهم الحيرة حتى تفرق اكثرهم وفروا هاربين . واثناء بقاء بعض ابطال المسلمين وفوارسهم صامدين يقاتلون قتالا مرا سرت شائعة تقول ان النبى عليه الصلاة والسلام قد استشهد فافقد هذا الخبر الصحابة عقولهم وحواسهم ، وثبطت عزيمة بقيتهم الباقية وخارت همتهم ووهنت روحهم وكان النبى قد بقى حوله آنذاك عشرة أصحاب من الفدائيين أو يزيدون وقد جرح صلى الله عليه وسلم . وتمت هزيمة المسلمين ، غير انهم حين عرفوا ان الرسول لم يزل حيا جمعوا شتاتهم من كل طرف واجتمعوا عنده وحملوه صوب الجبل وهنا ظهر لغز لاحل له : أى شىء جعل كفار مكة يرجعون من انفسهم دون أن يتموا فتحهم فى حين أن المسلمين كانوا متفرقين بحيث كان اجتماعهم للحرب مرة اخرى امرا جد عسير ولو كان الكفار أصروا على اتمام الفتح وتحقيق النصر الكامل لما كان فلاحهم فى ذلك ببعيد ولا نعرف كيف تركوا الميدان وعادوا أدراجهم .

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا

هذه اشارة الى بنى سلمة وبنى حارثة الذين ضعفوا بعد انفصال عبد الله بن أبى وأقرانه وعودتهم الى المدينة .

وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ
وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

حين رأى المسلمون جند أعدائهم وقد بلغوا آلافا ثلاثة فى حين أن جندهم ألف رجل لاغير بل لقد انفصل عنهم ثلاثمائة ، حزنوا حزنا شديدا فقال لهم الرسول « ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين »

بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم
بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

حين جرح النبى صلى الله عليه وسلم دعا على الكفار فقال « أشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله » وهذه الآيات جاءت ردا على دعائه هذا .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً

كان السبب الأكبر وراء هزيمة المسلمين فى أحد استيلاء الطمع فى المال على قلوبهم وقت الظفر والفوز وجريهم ليأخذوا الغنائم بدلا من اتمام مهمتهم وعملهم ، ولذا رأى الحكيم المطلق من الضرورى أن يسد نبع عبادة الذهب والفضة لرأب هذا الصدع واصلاح هذا الحال فأمرهم بالرجوع عن أكل الربا الذى يجلس المرء ليلا ونهارا ليحسب زيادة ربحه وفائدته والذى يزكى فى نفس الانسان الحرص على المال والطمع فيه (١) .

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ
ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

المجتمع الذى يوجد فيه الربا يتفشى فيه بسبب قسمان من الامراض الاخلاقية :

الحرص والطمع والبخل والاثرة فى نفوس المرابين ، والنفرة والالم والبغض والحسد فى نفوس من يدفعون الفائدة للمرابين . وكان لهذين النوعين من الامراض الى حد مانصيب فى هزيمة المسلمين فى احد . فالله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين ان الصفات الأخلاقية التى تنشأ فى كلا الفريقين المتعاملين بالربا تناقض ما يربيه الانفاق فى سبيل الله من الاخلاق والشمائل الاخرى التى على عسكها تماما وفضل الله وجنته لمن حصلت فيه الثانية لا الأولى .

(انظر تفسير الاية ٢٧٦ من سورة البقرة)

---

(١) من المعروف أن الربا لم يكن حرم على المسلمين حتى ذلك الوقت — المترجم .

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ
فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ

هنا يشير تعالى الى حرب بدر فيقول ان القرح (١) الذى اصاب أعداءكم فى بدر لم يفت فى عضدهم او يثبط همتهم فكيف يوهن عزمكم ما اصابكم من قرح مثله فى أحد .

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ

((**ويتخذ منكم شهداء**)) تعنى أنه سبحانه وتعالى أراد أن يرزق بعضكم الشهادة ويعزهم بها ، كما تعنى أنه تعالى أراد أن يصطفى من الخليط — بين مؤمن ومنافق — الذى كانت تضمه صفوفكم من هم شهداء على الناس حقا يعنى أهل ذلك المنصب الجليل الذى شرف الله أمة المسلمين به .

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ
ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

---

(١) القرح : الجرح والاصابة والمقصود فى هذه الآية الهزيمة — المترجم .

اشارة الى من كانوا يتمنون الشهادة والذين اصدر الرسول عليه الصلاة والسلام أوامره بالخروج من المدينة والقتال بناء على اصرارهم .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ

حين شاع فى المسلمين خبر استشهاد الرسول أنهارت قواهم فبدأ المنافقون (الذين كانوا فى جيش المسلمين) يقولون لنذهب عند عبد الله بن أبى ليأخذ لنا الأمان من أبى سفيان وراح بعض آخر منهم يقولون اذا كان محمد رسولا من الله فكيف يقتل ؟ فلنعد الى ملة آبائنا فجاء الرد على أقوالهم هذه بأن لو كان شخص محمد هو الذى يربطكم بعبادة الحق واذا كان أساس اسلامكم ضعيفا واهيا حتى اذا مات محمد سارعتم منقلبين الى الكفر الذى تركتموه من قبل فليس بدين الله حاجة اليكم ولن تضروا الله بارتدادكم وكفركم .

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ

المقصود بهذا افهام المسلمين أن الفرار خوفا من الموت ما هو الا عبث ولا يمكن أن يموت امرء قبل أو بعد أجله الذى حدده له ربه فلا تفكروا فى الموت او تشغلوا بالكم به بل اهتموا بالحياة وهى المهلة التى منحكم الله اياها وتفكروا فى الغرض الذى تبغونه من وراء سعيكم وجهادكم فيها أهو الدنيا وعرضها أم الآخرة وجوهرها ؟.

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ

الثواب معناه نتيجة العمل والمراد بثواب الدنيا الفوائد التى ينالها الانسان فى هذه الحياة الدنيا نتيجة سعيه وعمله ومعنى ثواب الآخرة تلك المنافع

التى سينالها فى الحياة الاخروية المخلدة نتيجة سعيه وجهده فى الحياة الدنيا والسؤال الفاصل فيما يختص بالأخلاق الانسانية من وجهة نظر الاسلام هو أى النتائج يضعها المرء نصب عينيه وهو يخوض معترك الحياة اهى نتائج دنيوية ام أخروية .

وَسَنَجْزِي الشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

المقصود بالشاكرين أولئك الذين يقدرون نعمة الله حق قدرها اذ حباهم الدين الحق واطلعهم على خبر عالم لانهائى اوسع بكثير من الدنيا وحياتها المحدودة الضيقة ، وعرفهم حقيقة ان سعى الانسان وعمله لا تنحصر نتائجه فى الحياة الدنيا وسنواتها المعدودة وانما تمتد صلتها الى عالم آخر وراء هذه الحياة الدنيا . فمن رأى — بعد المامه بهذه النظرة البعيدة وادراكه للعواقب — ان جهوده ومساعيه لم تثمر فى المرحلة الأولى من الحياة الدنيا أو رأى نتائج عمله منقلبة راسا على عقب ومع هذا استمر وكله ثقة فى الله واعتماد عليه فى أداء العمل الذى أكد له الله حسن عاقبته فى الآخرة فهو عبد شاكر ، وعلى عكس ذلك من ابتلوا بضيق النظر الناتج عن عبادة الدنيا فيميلون الى المساعى الخاطئة والجهود العوجاء التى توتى نتائج طيبة فى ظاهرها دون مبالاة بعواقبها السيئة فى الاخرة ، اما الجهود الصحيحة المستقيمة التى يأملون فى نفعها لهم فى الدنيا ، أو تلك التى يخشون ان تصيبهم بأذى فلا ينفقون قواهم ومالهم وجهدهم على أمل ان تنفعهم فى الاخرة فاولئك هم الكافرون بنعمة الله والجاحدون بما وهبهم الله من علم .

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ

يعنى لم يستسلموا للكفار ولم يضعفوا أمام أهل الباطل وعبادة رغم قلة عددهم وعتادهم بالنسبة لعدد وعتاد الكافرين .

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا
ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا
وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ
أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يعنى انكم ستعودون الى حالة الكفر التى خرجتم منها . ولقد نشر اليهود والمنافقون بين المسلمين بعد هزيمتهم فى أحد أن محمدا لو كان نبيا من الله حقا لما انهزم لكنه شخص عادى يقع له ما يقع للاخرين ،فاليوم نصر وغدا هزيمة ، وما نصر الله وحمايته الذى أكده لكم سوى محض خدعة وسراب .

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم
بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

يعنى أن الخطأ الذى ارتكبتموه لولا عفا الله عنكم لكان أدى الى ابادتكم أجمعين فمن فضل الله عليكم وحمايته وتأييده لكم أن ضلت عقول أعدائكم بعد ما هزموكم فعادوا أدراجهم دون سبب .

* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ

حين هوجم المسلمون من الناحيتين فى آن واحد وتفرقت صفوفهم فر نفر الى المدينة ونفر تسلقوا جبل أحد ، وثبت الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يتحرك من مكانه بوصة واحدة وكان هجوم الاعداء من كل جانب فثبت معه نفر قليل وهو جامد فى مكانه كالطود الراسخ ينادى الفارين « الى عباد الله الى عباد الله » .

فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ

غم الهزيمة وغم نبأ استشهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، غم كثرة قتلاهم وجرحاهم وغم خراب بيوتهم ودورهم وثلاثة الاف من الاعداء — وهو عدد يزيد على عدد أهل المدينة أجمعين — سوف يحشرون جيش المسلمين المهزوم فى ناحية ويفنوه عن آخره .

لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ

كان هذا أمرا عجيبا حدث لبعض جنود المسلمين آنذاك يذكره سيدنا أبو طلحة وكان ممن اشتركوا فى هذه الحرب اذ يقول وكان النعاس يغلبنا حتى كانت سيوفنا تسقط من ايدينا .

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟
وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ

يعنى ان هذه الاقوال ليست قائمة على الحقيقة ، فالحقيقة ان قضاء الله لا يرده مطل المماطلين أو تسويف المسوفين ، غير أن الذين لا يؤمنون بالله ويحسبون كل شىء يقوم على حيلهم وتدابيرهم تبقى لديهم هذه الظنون والتقديرات محض حسرة ويقولون ليت مايحدث يكون كذا ولو كان حدث كذا لكان حدث كذا .

وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ
أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ
كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ
لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن
يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ

لما رأى الرماة الذين وكل اليهم الرسول حماية ظهر المسلمين اغتنام جند العدو ظنوا أن الغنيمة سينالها من اغتنمها فحسب اما هم فلن يكون لهم نصيب منها ، وعلى هذا تركوا مكانهم . فلما رجع الرسول الى المدينة بعد انتهاء الحرب دعاهم وسألهم عن سبب عصيانهم ما أمرهم به فتعللوا بأعذار واهية فرد عليهم : « بل ظننتم ان نغل ولا نقسم لكم » وهذه الاية تشير الى هذا الامر . ومعنى قول الله هذا انه اذا كان قائد جيشكم هو رسول الله نفسه وكافة الامور بيديه فكيف تظنون انه لن يحفظ مصالحكم وهل تنتظرون من رسول الله ان يقسم ماتحت يده من اموال بطريقة اخرى غير الامانة والانصاف والتقوى ؟

وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ

كان أكابر الصحابة خير من يعرف الحقيقة ، وما كان لهم ان يقعوا فى فهم خاطىء او تصور شاذ اما عامة المسلمين فكانوا يرون « ان الكفار لا يستطيعون تحقيق فوز علينا ففينا رسول الله ومعنا نصر الله وتأييده » . لهذا حين لحقت بهم الهزيمة فى أحد صدموا بعكس ما كانوا يتوقعون ، فتملكتهم الحيرة وراحوا يتساءلون : ماذا جرى ؟ لقد خرجنا نقاتل فى سبيل دين الله وقد وعدنا بنصره ، وكان رسوله معنا فى الميدان ثم انهزمنا ، وممن ؟ من الذين جاءوا لمحو دين الله . فجاءت هذه الآيات لتبعد عنهم هذه الحيرة .

قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا

سقط من المسلمين فى أحد سبعون شهيدا بينما قتل من الكافرين بيد المسلمين سبعون وأسر سبعون آخرون .

قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ

يعنى هو نتيجة اخطائكم ، فلقد تعجلتم ولم تصبروا وقارفتم بعض ما يخالف التقوى وعصيتم امر الرسول وطمعتم وجشعت نفوسكم وحل بينكم النزاع والخلاف ، فلم تتساءلون « انى هذا ومن أين جاءتنا هذه المصيبة » .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

يعنى اذا كان الله على نصركم قديرا فهو كذلك على هزيمتكم قدير .

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ

حين انسلخ عبد الله بن أبى فى ثلاث مئات من رفاقه وقفلوا راجعين راح اليه بعض المسلمين وقالوا له ولمن معه « لاتخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم » فقالوا « لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى انه يكون (اليوم) قتال » .

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

(انظر تفسير الآية ١٥٤ من سورة البقرة) .

فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

هناك حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم مروى فى مسند الامام احمد معناه ان من ذهب من هذه الدنيا وقد عمل صالحا اتاه الله نعيما لايتمنى بعده ان يعود الى الدنيا . الا الشهيد فهو يتمنى ان يرسل الى الدنيا لينعم بنعيم وحلاوة مايراة حين تفيض روحه فى سبيل الله (١) .

---

(١) لعله الحديث الذى قال فيه « والذى نفسى بيده ما من مؤمن يفارق الدنيا يحب ان يرجع اليها ساعة من نهار وان له من الدنيا وما فيها الا الشهيد فانه يحب أن يرد الى الدنيا فيقاتل فى سبيل الله فيقتل مرة أخرى » — المترجم .

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

حين رجع المشركون من احد وقطعوا شوطا الى مكة تداركوا أمرهم وقال بعضهم لبعض : ما هذا ؟ لقد سنحت لنا فرصة القضاء على محمد وقوته فأضعناها ، ثم توقفوا فى مكان وتشاوروا فيما بينهم أيرجعون الى المدينة من فورهم ويكروا عليها كرة أخرى ؟ غير أن عزمهم ثبط وفترت همتهم فعادوا الى مكة وهنا خشى الرسول عليه الصلاة والسلام من احتمال عودتهم فأذن مؤذنه فى غد يوم أحد بطلب العدو ، ورغم أن موقف المسلمين كان حرجا الا أن المؤمنين الصادقين تأهبوا لبذل أرواحهم وساروا مع الرسول عليه الصلاة والسلام الى «حمراء الاسد» وتبعد عن المدينة ثمانية أميال .وهذه الآية تشير الى هؤلاء الفدائيين الأوفياء .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ
إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

الآيات من أول ((**الذين قال لهم الناس ...**)) وحتى ((**والله ذو فضل عظيم**)) نزلت بعد أحد بعام واحد غير انها أدرجت فى هذا الخطاب لاتصالها بأحد وما جرى فيها (١).

(١) هذه الآيات نزلت فى موقعة بدر الصغرى التى وقعت بعد عام من أحد وكان أبو سفيان قد قال للمسلمين بعد أحد ان موعدكم بدر للعام المقبل فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام الا أن يلقاه هناك فذهب فى الموعد الى بدر وانتظر وأصحابه ثمانية أيام فلم يأت من مكة أحد لقتالهم حسب وعد أبى سفيان — المترجم .

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

حين كان ابو سفيان قافلا من احد توعد المسلمين وقال لهم «ان موعدكم بدر للعام القابل» فلما قرب الموعد جبن عن لقائهم وكان القحط قد اصاب مكة فى ذلك العام ولكى يتفادى حرج موقفه لجا الى حيلة من احاييله اذ بعث شخصا الى المدينة خفية فأشاع بين المسلمين أن قريشا تعد لكم هذا العام عدة قوية ، وتجمع لكم جيشا لاقبل للعرب كلهم به . وكان قصده من ذلك ان يفزع المسلمون فيبقوا فى مكانهم وبذا يكون المسلمون هم الذين جبنوا عن قتاله وقد ظهر أثر حيلته هذه حين سار الرسول عليه الصلاة والسلام الى بدر ودعا المسلمين فلم يلق منهم جوابا مشجعا فأعلن فى الجمع انه سيخرج وحده اذا لم يخرج معه احد فوقف اليه سبعون فدائيا فصحبهم الى بدر وكان أبوسفيان قد خرج اليها فى الفين من رجاله ، لكنه بعد أن سار مسافة يومين قال لاصحابه يبدو ان القتال فى هذا العام غير مناسب فلنات اليهم فى العام المقبل ثم رجعوا . واقام الرسول واصحابه ثمانية ايام فى بدر ينتظرونهم وفى تلك الأثناء تاجر أصحابه فى تجارة وأصابوا منها ربحا كثيرا . ثم لما علموا برجوع الكفار عادوا الى المدينة (١) .

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ

يعنى ان الله لايحب ان يرى جماعة المسلمين وقد اختلط فيها المؤمنون الصادقون بالمنافقين الكاذبين .

---

(١) قد يكون المقصود بفضل الله فى الآية « **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** » ربحهم الذى أصابوه فى تجارتهم هذه — المترجم .

حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ

يعنى أن الله لا يتخذ طريق الغيب لاظهار الفرق بين المؤمنين والمنافقين فيلقى فى قلوب المسلمين ان هذا مؤمن وذلك منافق وانما يظهر حال كليهما عن طريق الامتحانات والتجارب التى تبين الغث من الثمين . والتى تقع بأمره تعالى .

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ

يعنى ان كل شىء يستخدمه اى مخلوق فى السماوات والارض هو ملك لله اصلا وتصرف المخلوق فيه وامتلاكه له ليس الا امرا عارضا وكل امرىء لاصلة له بممتلكاته على الاطلاق وكل شىء مرده الى الله فى النهاية ، لذا فالعاقل من ينفق مال الله أثناء امتلاكه العارض له بكرم وسخاء والأحمق من جمعه وعدده واجتهد فى اكتنازه .

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ

قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ

هذا قول اليهود . ولقد سخروا حين نزلت الآية ((**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا**)) وقالوا أفلس الله وها هو يطلب قرضا من عباده . (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي
قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

ذكر فى مواضع متعددة من التوراة ان علامة قبول قربان المرء ان تظهر من الغيب نار تلتهمه .

(انظر القضاة ٦ : ٢٠ — ٢١ و ١٣ : ١٩ — ٢٠)

كذلك جاء فيها ان أى نبى كان يقدم قربانا على المذبح كانت تظهر نار من الغيب وتأكله (انظر مثلا اللاويين ٩ : ٢٤ واخبار الأيام الثانى ٧ : ١ — ٢) بيد ان التوراة تخلو تماما من القول بان مثل هذا القربان فى ذاته دليل لابد منه لاثبات النبوة وتأكيدها ، أو ان من لم يعط هذه المعجزة فليس بنبى قط وانما ذلك عذر مختلق اخترعه اليهود لينكروا به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والأدهى من هذا وما يثبت عداوتهم الحقيقية أن بعض أنبيائهم جاءوا لهم بنفس هذه المعجزة (النار التى تظهر من الغيب لتاكل القربان)ولم يتورع هؤلاء المجرمون عن قتلهم ومثال ذلك ما جاء فى التوراة عن سيدنا اليـاس (ايلياه) حين تحدى الذين كانوا يعبدون بعلا وقال ... (فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا نارا وانا أقرب الثور الآخر واجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا ثم تدعون باسم آلهتكم وانا ادعو باسم الرب والاله الذى يجيب بنار فهو الله فاجاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن ... فاخذوا الثور الذى اعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح الى الظهر قائلين يا بعل أجبنا فلم يكن صوت ولا مجيب ... وكان عند اصعاد التقدمة ان ايليا النبى تقدم وقال ايها الرب اله ابراهيـم واسـحق واسرائيل ... استجبنى ... فسقطت نار الرب واكدت المحرقة) .

غير ان النتيجة كانت معاداة ملكة اسرائيل التى تعبد البعل لسـيدنا الياس ولاجل خاطرها تعقبه ذلك الملك عابد النساء كى يقتله (١) فاضـطر الياس الى الفرار من بلده والالتجاء الى جبال سيناء .

(انظر الملوك الاول ١٨ و ١٩) .

---

(١) الملكة المشار اليها هى « ايزابل » والملك هو « آخاب » — المترجم .

وعلى هذا يقول الله لهم فى هذه الآية يا أعداء الحق أنى لكم أن تطلبوا معجزة (القربان الذى تأكله النار) ؟ ومتى توقفتم عن قتل اولئك الانبياء الذين اشهدوكم هذه المعجزة ؟

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

يعنى ان النتائج التى تظهر فى هذه الحياة الدنيا ان اعتبرها احدكم نتائج اصلية وعواقب اخيرة نهائية يقيم على اساسها تقرير الحق والباطل والفلاح والخسران فقد انخدع خدعة كبرى ، والحق ان نزول سيول النعم على احد ليس دليلا على انه على حق وانه يحظى بقبول الله ورضاه ،كذلك حينما تتساقط المصائب على راس احد فهى لاتعنى انه على باطل وانه مطرود من حضرة الله فاقد لرضاه وكثيرا ما تكون نتائج هذه الحياة الدنيا عكس ما يكون فى الحياة الأخرى والعبرة بنتائج الآخرة ولا قيمة الا لها .

۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يعنى لاينفذ صبركم امام طعنهم وتشنيعهم وتهمهم وافترائهم وكذبهم ودعاياتهم الزائفة فتتدلوا الى ما يخالف الصدق والانصاف والوقار والتهذيب والاخلاق الفاضلة .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ

يعنى أنهم تذكروا أن بعض أنبيائهم قد أعطوا القربان الذى تأكله النار كآية من عند الله لكنهم لم يتذكروا أى عهد قطعه الله عليهم فى كتابهم وتمت ان اسند اليهم الزعامة ، وأى مسئولية القاها على كواهلهم .

وانا لنجد ذكر هذا العهد فى مواضع من التوراة خاصة سفر التثنية الذى وردت فيه آخر خطب سيدنا موسى عليه السلام والذى عاهدهم فيه مرارا على أن :

« الرب الهنا رب واحد فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ولتكن هذه الكلمات التى انا اوصيك بها اليوم على قلبك وقصها على اولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم وأربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك » .

(اصحاح ٦ : ٤ — ٩)

ثم اكد فى آخر وصاياه :

« احفظوا جميع الوصايا التى أنا أوصيكم بها اليوم فيوم تعبرون الاردن الى الارض التى يعطيك الرب الهك تقيم لنفسك حجارة كبيرة وتشيدها بالشيد وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس » .

(اصحاح ٢٧ : ٢ — ٤)

كذلك اعطى موسى عليه السلام بنى لاوى نسخة من التوراة وامرهم ان يجمعوا رجال ونساء واطفال الشعب من كل مكان ويسمعوهم الناموس كلمة كلمة غير أن بنى اسرائيل زادت غفلتهم تدرجا الى حد أن كاهن الهيكل السليمانى ، بل وحتى حاكم بيت المقدس اليهودى نفسه — بعد وفاة سيدنا موسى بسبع مئات من السنين — لم يكونا على علم بأن لديهما كتابا اسمه التوراة .

(انظر الملوك الثانى ٢٢ : ٨ — ١٣) .

فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ

يعنى يحبون مثلا أن يقال عنهم سيدنا فلان هذا تقى ورع متدين زاهد وفضيلة الشيخ فلان هذا خادم الدين وحامى حمى الشرع المتين وهو رجل

مصلى ومزكى فى حين ان شيئا من ذلك كله ليس فيهم أو يحبون أن يلقبوا
فى المحافل وغيرها بأن فلان هذا زعيم مؤمن كله ايثار وقائد مخلص على خلق
ودين فى حين أنه على عكس ذلك كله .

فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

من هنا يبدأ ختام الكلام وهو ختام لا يتصل بالآيات السابقة له مباشرة وانما ينبغى ان نتلمس صلته ونبحث عنها فى السورة باكملها ومن الضرورى لفهمه ان نضع امام اعيننا تمهيد السورة على وجه الخصوص .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

يعنى أن كل أنسان يستطيع الوصول الى الحقيقة فى سهولة ويسر عن طريق هذه الايات شريطةالا يكون غافلا عن الله ولاينظر الى الكون نظرة البهم والحيوانات بل ينتفحصه بعين الفكر والتدبر .

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

حين يشاهدون نظام الكون بعين فاحصة متأملة تتضح لهم حقيقة أنه نظام حكيم من اوله الى آخره ، وانه لمما يخالف الحكمة تمام المخالفة ان هذا المخلوق الذى بث فيه ربه هذه الاخلاق واعطاه سلطات التصرف وحرية الارادة ، وحباه العقل والتمييز لا يحاسب على اعماله فى الحياة الدنيا ولا يثاب على خير أو يعاتب على شر ، كذلك اذا ما تدبر المرء نظام الكون أيقن بالآخرة وطلب من الله ملجأ يقيه عذابه .

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾

رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ

هكذا يبعث تدبر الكون فى قلوبهم الاطمئنان الى ان وجهة النظر التى ياتى بها الرسول عن الكون وبدايته ونهايته وطريق الحياة الذي يبنيه حق كله من الفه الى يائه .

رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

يعنى انهم لايرتابون فى وفاء الله بوعده وانما يشكون بالطبع فى مدى صدقهم فى الوفاء بهذه الوعود ، ولهذا هم يدعون الله ان اجعلنا يارب نصدق عهدك ونفى بوعدك واعنا على اتمامه وتحقيقة حتى لانصبح هدف سخرية الكفار وطعن وتشنيع الفجار بعد ايماننا بالرسل ويصيبنا الخزى أمامهم يوم القيامة فيضحكوا منا ويقولوا هاقد آمنوا ولم ينفعهم ايمانهم .

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ

يعنى انكم جميعا بشر وكلكم فى عينى سواء وليس عندى تفاوت او تفريق واختلاف بين المراة والرجل ، والسيد والعبد ، والاسود والاحمر ، والشريف والوضيع فى أصول الانصاف ومعايير الحكم والقضاء .

فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يروى أن بعضا من الذميين جاءوا رســول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له لقد جاء موسى بالعصا واليد البيضاء وابرأ عيسى الأكمه والابرص وجاء غيرهم بشيء من المعجزات فبماذا جئت ، فتــلا عليهم الآيات من أول ((**ان فى خلق السماوات والأرض** ... حتى **والله عنــده حسن الثواب**)) وقال جئت بهــذا .

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ

جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ

عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ

أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا

قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ

وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

لفظ ((صابروا)) الذى جاء هنا له معنيان أولهما : اظهروا للكفار ثباتا وجلدا يفوق ثباتهم فى تمسكهم بكفرهم وخوضهم المشاق فى سبيل ســيادته ورفعته . وثانيهما تباروا وتسابقوا فيما بينكم فى الصمود والثبات امامهم.

* * *

هــذا مــا عنــدى والعــلم عند الله عليــه توكلت واليــه أنيب

محتــويات الكتاب

* * *

تصـــويب الاخطـــاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	٣٤	وأمثالهم	وأمثالها
٩	الأخير	حرا	حر
١٢	٦	الموضات	الموضوعات
١٢	٢٠	يدمر	يدور
١٣	٣	متطلبات	بمتطلبات
١٣	١١	المكبرة	المبكرة
١٨	الأخير	أوحت	أوحيت
٣٥	٧	آياتى	يأتى
٧١	١٧	ذكرها	ذكرهم
٧٩	١٦	١٦٦(١)	١٦٦
٨٢	٧	كبتهم	كتبهم
٩٦	٥	متمائل	متماثل
١٠٨	٤	حقيقة	الحقيقة
١٠٩	١١	والقومة	والقومية
١١١	الأخير	من	عن
١٢٣	٢٣	التأثر	الثأر
١٢٥	٤	صورة	سورة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣٤	٦	أوامرهما	أوامرها
١٦٠	٧	فلكم	فكلم
١٦٥	١٠	عاجزا	عاجز
١٧٣	٨	جهاء	جهلاء
١٧٩	٧	فلعى	فعلى
١٨١	٨	للمطنق	للمنطق
١٨٣	١٢	الاقتراض	الاقراض
١٨٥	١٥	يحلل	يحل
١٨٦	١٣	تعامل	تتعامل
١٩٦	١٦	المصاب	المصاعب
٢٠١	١٩	يتسير	يتيسر
٢٠٧	٨	مثمرة	مثمرا
٢٢٥	٩	ويشككون	ويشككوا
٢٤٤	١٢	امرء	امرؤ
٢٥٥	٢٠	وأكدت	وأكلت
٢٥٨	٢٠	فلان	فلانا

***

هذا الكتاب

كنت أشعر منذ زمن أن عطش المثقفين المسلمين لفهم روح القرآن ومقصود آياته يزداد يوما بعد يوم رغم مساعى المفسرين قبلى فى هذا الشأن ، وكنت أشعر أيضا أن فى مقدورى أن أقدم لهم ما قد يروى عطشهم .. فشرعت فى محاولتى هذه ... ولم أضع أمامى — وأنا أكتبها — اشباع حاجات العلماء والباحثين ولا من درسوا العلوم العربية والدينية ويريدون دراسة القرآن دراسة عميقة ، انما أردت أن أقدمها للمثقفين غير المتخصصين الذين لا يستطيعون الاستفادة من كنوز العلوم القرآنية الضخمة ... كذلك وضعت نصب عينى أن يفهم القارىء العادى — وهو يقرأ كتابى هذا — معنى آيات القرآن فهما جيدا .

وكنت بدأت هذه المحاولة فى المحرم عام ١٣٦١ هـ (فبراير ١٩٤٢) ووصلت فى مدى سنوات خمس الى نهاية سورة يوسف ثم وقع لى ما منعنى من مواصلة الكتابة أو حتى مراجعة ما كتبت ، الى أن أودعت السجن عام ١٩٤٨ فكان سجنى فرصة استطعت فيها اعداد هذا الكتاب للنشر .

وما توفيقى الا بالله العلى العظيم .

المودودى

توزيع
دار الاعتصام

